صفوان قدسي

اللغة العربيّة والعصر

(١)

بادىء ذي بدء، لا مناص من الاتفاق على وجود أزمة في حياتنا الفكرية والثقافية . وهذه الأزمة تتجلى أكثر ما تتجلى في تعاملنا مع اللغة ، لأنه من خلال هذا التعامل مع اللغة ، وما ينجم عنه من مشكلات بالغة التعقيد ، تبدو الأزمة في حجمها الحقيقي . وإذا لم نكن قد بلغنا بعد اللحظة التي نجد معها أنفسنا مضطرين إلى مجابهة هذه الأزمة بمحاولة جادة لتقصي أسبابها ، واكتشاف ما ينفع من الحلول لمعالجتها ، فإن هذه اللحظة آتية لاريب فيها . وإذا كنا الآن في غفلة عن هذه المشكلة ، لأسباب تتصل بانشغالنا في مسائل أخرى تبدو ذات أهمية خاصة ، لأنها مسائل وجودنا

القومي ذاته ، ومستقبل هذا الوجود المهدد بأخطار شتى ، فإننا لابد وأن نجد أنفسنا في يوم قريب في مواجهة هذه المشكلة .

ومنعاً لأي لبس أو سوء تفاهم ، فإنه يحسن بنا منذ البداية أن نقول شيئاً محدداً وواضحاً ، وهو أن أزمتنا اللغوية ليست أزمة اللغة ذاتها ، وإنما هي أزمة التعامل مع هذه اللغة . أي ان العلة ليست في اللغة ، وإنما العلة في الذين يتعاملون مع هذه اللغة .

وحين نحدد المشكلة على هذا النحو ، فإننا لانعلن بذلك تعصبنا للغتنا القومية ، وإنما نقصد إلى القول إن اللغة ليست مسؤولة عما آلت إليه على أيدي أصحابها الذين يكتبونها ويتخاطبون بها ، وإنما المسؤولية تقع علينا نحن ، باعتبار أن اللغة صناعة ، وحين يكون الشيء المصنوع جيداً أو رديئاً ، فمسؤولية ذلك تقع على الصانع ، ولاتقع على المصنوع .

ومع ذلك فلا بأس من قدر معين من التعصب للغتنا القومية ، شريطة أن يقوم هذا التعصب على فهم عميق لعبقرية هذه اللغة ومزاياها وفضائلها، أو لنقل ، على الأقل ، وفي الحد الأدنى ، لخصائصها التي تميزها من غيرها من اللغات ، لأنه لاتوجد على وجه الأرض أمة تخلو من نزعة عفوية إلى تقديس لغتها القومية والتعصب لها . وأذكر أن كاتباً عربياً أشار في مقال له نشر قبل نحو من ثماني سنوات إلى هذه الحقيقة عندما قال إن كل الناس متعصبون للغاتهم القومية . وكان الاغريق يصفون من لايعرف لغتهم بأنه همجي وجاهل وشاذ . وكان وغريب السلاف

يصفون الألمان الذين لايعرفون لغتهم بأنهم خرس ... أي لايتكلمون ما داموا لاينطقون اللغة السلافية ... وكان السياسي ونستون تشرشل الحائز على جائزة نوبل في الأدب ، ينصح المدرسين باستعمال الشدة والقسوة في تعليم اللغة الانكليزية . وكان يرى انها أكثر لغات الدنيا حيوية وحياة. وكان يقول ، يجب أن يتعلم التلميذ اللغة اليونانية مكافأة له على اتقانه اللغة اللاتينية . وأن يتعلم اللاتينية تقديراً لاتقانه الانكليزية .. أما الذي لايتقن الانكليزية فيجب أن نضربه بالسوط حتى تخرج من فمه على شكل صرخات . وكان فيكتور هيجو يقول عن لغته الفرنسية انها لغة تعرفها في ثلاثين دقيقة ، وأما الانكليزية ففي ثلاثين يوماً ، والألمانية في ثلاثين سنة.وفي فرنسا الآن حملة عنيفة على اللغة الفرنسية المستخدمة في الصحف ، وتوصف هذه اللغة بأنها لغة « فرنزية » أي فرنسية انكليزية ، وان هذه اهانة للغة الفرنسية ، وهذه الحملة تدعو إلى تطهير الأقلام والألسنة من الكلمات الأجنبية السخيفة .

لابأس إذن من قدر معقول من التعصب للغتنا القومية وتقديسها ، ولكن ليس قبل سبر أغوارها والوصول إلى مطاويها ووضع اليد على السر في عبقريتها ، كما فعل الأرسوزي عندما استرسل في الحديث عن عبقرية اللغة العربية ، من موقف اعتزاز قومي ينهض في الأساس على معرفة عميقة بطبيعة هذه اللغة ومواطن العبقرية فيها .

(٢)

إذا اتفقنا على ان أزمتنا اللغوية ليست أزمة اللغة العربية نفسها ، وانما هي أزمة التعامل مع هذه اللغة ، أي أزمتنا نحن الذين نتكلم هذه اللغة

ونكتب بها ، فاننا نصل بذلك إلى مسألة أكثر تحديداً ، وهي أننا في تحميلنا لغتنا العربية مسؤولية تخلفنا الحضاري ، ومسؤولية قصورنا عن مواكبة حركة التقدم ، ومسؤولية عجزنا عن اللحاق بركب العصر ، وما إلى ذلك مما اعتدنا عليه من استعمال لمجموعة من العبارات التي تؤدي جميعها في نهاية المطاف إلى نتيجة واحدة ، وهي اننا نلقي على لغتنا القومية جميع أسباب قصورنا ... أقول إننا في هذا الذي نفعله إنما نحاول أن نعفي أنفسنا من مسؤولية هذه الأزمة اللغوية التي نواجهها .

مثال ذلك ان نفراً ممن يخطىء في استعمال لغتنا العربية الاستعمال الصحيح ، يعمد إلى رمي هذه اللغة بكل ما من شأنه أن يحط من قدرها ، وأن يجعلها تبدو مسؤولة عن أي خطأ يمكن أن يقع فيه هذا النفر من الناس .

ومن يتأمل في ما يكتب وينشر باللغة العربية ، فإنه سوف يقع على حقيقة مثيرة للهلع ، وهي ان الكثرة الكاثرة منه إنما تستهين باللغة استهانة تكاد ان تكون بغير حدود . وأكثر من ذلك فانه قلما نقع على نص يخلو من خطأ نحوي أو املائي ارتكبه الكاتب . وأنا هنا لاأتكلم على الأخطاء الشائعة ، فتلك أمرها معروف ، لكني أتكلم على هذه الوفرة العجيبة من الاخطاء التي شاعت شيوعاً لايمكن تفسيره إلا على انه نوع من الاستهانة بعقل القارىء وذوقه ، فضلاً عن انه اشارة إلى هذا العجز اللغوي الذي حل بهذه الكثرة الكاثرة من كتابنا .

والطريف في الأمر هو انه قلما تجد من يوافقك على أن الشرط الذي لابد من توفره في أي كاتب هو شرط حسن استعماله للغة وأدائه لها . وكثيراً ما سمعت من بعض من كنت أحسن فيه الظن ، ان مسألة اللغة مسألة ثانوية ولا تستحق أن نتوقف عندها طويلاً ، لأن المهم هو الفكرة التي يحاول الكاتب أن يقولها . والغريب العجيب في هذا المنطق هو انه يقوم على افتراض بالغ الخطورة وهو ان ثمة انفصاماً بين الكلمة وبين ما تحاول أن تقوله أو بين الفكرة وبين اللغة التي تؤدى بها . كذلك فإن هذا المنطق يقوم على افتراض آخر ، وهو أن قواعد اللغة العربية يمكن أن تنفصل عن اللغة ذاتها .

هذا المنطق لايعدو أن يكون تسويغاً لهذا العجز اللغوي الذي حل بالعديد من كتابنا ، إذا لم يذهب بنا سوء الظن إلى أن المسألة أعمق من ذلك وأخطر ، وأنها جزء من المحاولات المبذولة لاقتلاعنا من جذورنا : هذه الجذور التي لاشك في أن اللغة جزء منها .

والأغرب من ذلك هو ان المدافعين عن هذا العجز اللغوي يتجاهلون حقيقة ذائعة ومعروفة ، وهي انه مادامت اللغة العربية لغة منطق وقياس فإن الخروج على قواعدها يصبح خروجاً على منطق اللغة ، ويصبح بالتالي خروجاً على المعنى الذي تحاول اللغة تأديته

وفي بداية الأمر ، كانت معركة اللغة العربية مع دعاة استخدام حروف غير حروفها . ثم أصبحت فيما بعد مع دعاة اللهجات المحلية ، أو ما نسميه بالعاميات العربية . وعلى الرغم من أن المعركة الثانية مازالت

قائمة حتى يومنا هذا ، فإن المعركة القادمة سوف تكون مع الخارجين على منطق اللغة العربية وقواعدها المعروفة .

ولو كانت المسألة مسألة لغة وحسب ، لجاز للمختلفين أن يختلفوا ، وللمجتهدين ان يجتهدوا ، وللعاجزين أن يستعرضوا عجزهم أمام الناس . لكن المسألة أخطر من ذلك . انها مسألة وجودنا القومي ذاته . ومن هنا فان التساهل في هذا الأمر يشكل خطراً كبيراً . ولست أحسب ان أمة من أمم الأرض يمكن أن تتساهل في مسألة تمس صميم وجودها القومي وقدرة هذا الوجود على الاستمرار . ولا أظن أن أمة من الأمم يمكن أن يكون وجودها القومي موضع جدال .

قد يعترض معترض فيقول إن قصورنا في استعمال لغتنا ، وشيوع هذا الخطأ في استعمالها ، إنما يعزى إلى خلل في اللغة ذاتها ، وان هذا القصور في حد ذاته دليل على وجود هذا الخلل . والرد على ذلك غاية في البساطة ، وهو ان علينا التفريق بين قصور صادر عن جهل باللغة ، وقصور صادر عن رغبة في التطوير . ولقد يكون التمييز بين هذين النوعين من القصور عسيراً ، لكنه يظل في جميع الأحوال تمييزاً ضرورياً . لأن قصور الجهل ليس في مستوى قصور المعرفة . وهذا يطرح موضوع تجربة الكاتب مع اللغة ، وهو ما يغطيه الاستفتاء الذي أجرته « المعرفة » في هذا العدد الخاص باللغة العربية والعصر ، مع نخبة من كتاب القصيدة والقصة والمسرحية ، لأن هذه التجربة تكشف عما إذا كان قصور الكاتب ناجماً عن جهل باللغة ، أو إذا كان هذا القصور صادراً عن رغبة في تفتيح آفاق جديدة للغة تزيدها غنى وقدرة على استيعاب تجارب لغوية جديدة . ومع

ذلك فإن هذا كله لاعلاقة له بحال من الأحوال بمسألة شيوع الخطأ النحوي أو الاملائي الصريح ، وهو خطأ لايمكن أن يفسر إلا على أنه تعبير عن جهل من الكاتب باللغة التي يكتب بها .

(٢)

في صميم المشكلة اللغوية ، تقع مسألة ما يمكن أن نطلق عليها اسم العاميات العربية . فهذه العاميات العربية تجد بين وقت وآخر من يحاول أن يجعل لها وجوداً قائماً بذاته يفصلها عن جذرها الذي ولدت منه ، وهو اللغة العربية .

وعلى الرغم من أن هذه العاميات العربية ليست لغات وإنما هي مجرد لهجات يصفها أحد الكتاب بأنها مجموعات من الألفاظ خاضعة للتقسيمات الجغرافية ، تختلف عن بعضها في بلاد عن بلاد ، ثم في مدينة عن مدينة من ذات البلاد ، ثم تقسم إلى لهجات مختلفة أيضاً ضمن الحي الواحد .. أقول انه على الرغم من ذلك كله ، وعلى الرغم من أن هناك من يدافع عن هذه العاميات العربية ويدعو إلى الاستفادة منها ، فان الأمر لايصل بحال من الأحوال إلى اعتبار هذه العاميات لغات قائمة بذاتها .

وقد قرأت منذ مدة مقالاً عن نشوء اللهجات وحقيقة الفصحى ، حاول كاتبه أن يثبت وجهة نظر تقول ان العربية الفصحى لم تكن لغة الحياة اليومية لدى العرب ، وإنما كانت لديهم منذ الجاهلية لهجاتهم المحلية ، ووجهة النظر هذه تقوم على افتراض يقول لمن العربية كانت في يوم من الأيام لغة واحدة ولدت منها لهجات متعددة ، ثم مالبثت هذه

اللهجات أن توحدت في لغة مشتركة ، مالبثت بدورها أن تفرعت إلى لهجات متعددة ، وهكذا . غير إن أحداً لم يحاول أن ينسب إلى هذه اللهجات مقدرة لاتملكها ، أي أن يعتبرها لغات عربية قائمة بذاتها ، وجل ما فعله هؤلاء هو أنهم فسروا أسباب نشوء هذه اللهجات والظروف الحضارية التي ساعدت في نشوئها ، ولم يجرؤ أحدهم على المجاهرة بأن هذه اللهجات التي تمثل في حقيقة الأمر انحطاطاً في مسار اللغة ، هي لغات عربية . وربما رأى بعضهم الآخر أن وجود لهجات عربية ليس مقصوراً على اللغة العربية فحسب ، وإنما هو ظاهرة موجودة في جميع لغات الأرض . غير انه لاأولئك ولا هؤلاء قد ادعوا ان هذه اللهجات تتمتع بمواصفات اللغة القائمة بذاتها ، أو انها ليست أكثر من تفرعات عن العربية الفصحى .

لكن محاولات فصل هذه اللهجات عن جذورها إنما تستمد مشروعيتها ، في نظر أصحابها على الأقل ، من جهد مبذول لتطبيق ما آلت إليه اللغة اللاتينية ، وما انتهت إليه من مجموعة لغات جديدة تتمتع بخصائصها الذاتية ... تطبيق ذلك على اللغة العربية ، واعتبار هذه اللهجات ، أو ما أطلقنا عليه اسم العاميات العربية ، لغات جديدة ، اللغة العربية جذرها ، لكن خصائصها المستقلة تجعل منها لغات قائمة بذاتها .

وما زلت أذكر بكثير من الاجلال ذلك الجهد الذي بذله ساطع الحصري في دراسته التي نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٥٧ ، تحت عنوان « اللغة العربية واللغة اللاتينية » ثم اعاد نشرها في

كتاب يضم مجموعة من الدراسات ، تحمل عنواناً واحداً هو «اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية» ، والتي عقد فيها مقارنة بين تاريخ اللاتينية وتاريخ العربية ، وأظهر مابين التاريخين من فوارق أساسية . وفي هذه الدراسة نقرأ عن «الأحداث والعوامل التي تضافرت على تفريع اللغة اللاتينية إلى فروع كبيرة ، وعلى تبعيد هذه الفروع بعضها عن بعضها من ناحية ، وعن اللاتينية الأصلية من ناحية أخرى» . وكان الحصري يرى ان الفوارق بين تاريخ اللغتين يقوم على أن اللغة العربية بعد أن استقرت ، لم تتعرض إلى هجمات وغزوات لغات جديدة ، كما تعرضت إليها اللغات الرومانية ، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية واستيطانها مختلف أنحاء البلاد . وان البلاد العربية لم تبتل بتشتت وتفتت يماثل أو يقارب ما ابتلت به البلاد الغربية خلال العهود الاقطاعية . صحيح ان البلاد العربية فقدت وحدتها السياسية ، وانقسمت إلى دول ودويلات عديدة ، إلاأن عدد هذه الدول والدويلات ظل محدوداً ، ولم يصل الانقسام السياسي في العالم العربي — حتى في أسوأ عهود ملوك الطوائف ، ولو من بعيد — إلى درجة التفتت التام الذي حدث في العالم الغربي ، حيث أصبحت كل مقاطعة ، وكل مدينة تقريباً ، مستقلة ومنطوية على نفسها .

ولعل ذلك كله ان يقودنا إلى نتيجة محققة وهي ان العاميات العربية ليست لغات قائمة بذاتها ، وإنما هي مجرد لهجات صنعتها ظروف معينة ، وان هذه العاميات تنحدر من أرومة واحدة هي اللغة العربية ، وان هذه العاميات لاتملك أن تتحول إلى كيانات لغوية مستقلة

(٤)

المشكلة اللغوية قائمة في حياتنا الفكرية والثقافية . وتبدو ملامح هذه المشكلة – الأزمة في مجموعة ظواهر .

مثال ذلك ان لغتنا العربية ، على غناها وثرائها اللفظي وقدرتها على التعبير ، تتحول شيئاً فشيئاً لتصبح لغة فقيرة . ذلك أن حياتنا بتغير والأشياء من حولنا تتبدل ، لكننا نتعثر في محاولتنا العثور على معادل لغوي لهذا التغير والتبدل . وربما كان السبب في ذلك يعود إلى اننا ما زلنا أسرى الصيغ الجاهزة في التعبير ، وهي صيغ لم تعد صالحة للاستعمال ، لأنها فقدت صلتها بالواقع ، وفقدت مقدرتها على الايصال ، وتحولت إلى ركام من الكلمات التي فقدت مدلولاتها . وهذا المعادل اللغوي لايمكن العثور عليه مالم نتمكن من كتابة قاموس لغوي جديد مناسب لحياتنا الجديدة . وإذا أمكن العثور على هذا المعادل اللغوي ، فان الطريق إلى تجاوز الأزمة اللغوية تصبح ممهدة .

لكن ثمة ضرورة للانتباه إلى أن التعبير لايتم عن طريق اللغة فحسب . وإنما يتم أيضاً بوسائل أخرى . وقد شرحت « سوزان لانغر » ، وهي مؤلفة ألمانية الأصل تكتب باللغة الانكليزية ، في كتاب لها صدر بعد الحرب العالمية الثانية تحت عنوان « الفلسفة من منظور جديد » ، هذا الجانب من الموضوع عندما أشارت إلى أن « الإنسان في سعي دائم إلى التعبير عن نفسه » ولكن هذا التعبير لايتحقق عن طريق التفكير فحسب ،

أي طريق اللغة ، على اعتبار ان اللغة والتفكير لاينفصلان ، وإنما يتحقق ذلك أيضاً بوسائل أخرى متعددة ، لأن « عالم المعاني أوسع نطاقاً بكثير من عالم اللغة . فمع اعترافنا بأن اللغة هي أهم مظاهر نشاط الذهن البشري في اتجاهه إلى التعبير عن نفسه تعبيراً ذا معنى ، ينبغي ان نعترف في الوقت ذاته بأن نطاق التعبير ذي المعنى ، في الإنسان ، أوسع كثيراً من نطاق اللغة »(١) .

(٥)

من هذه الآفاق ، تنطلق هذه المحاولة لاصدار عدد خاص عن « اللغة العربية والعصر » . وقد راعينا في الاعداد لهذا العدد مجموعة اعتبارات :

منها أن لايكون الاسهام فيه مقصوراً على اللغويين العرب الذين نهضوا في يوم من الأيام برفع لواء الدعوة إلى العربية ، لكنهم انتهوا ، بشكل أو بآخر ، وبنسب متفاوتة ، إلى أن يكون جهدهم منصباً على الحفاظ على ما هو قائم ، وليس على ما ينبغي أن يكون . كما ان احجامهم عن متابعة ما يجري في العالم على صعيد الأبحاث اللغوية ، قد وضعهم خارج دائرة المهمة الموكول إليهم أمر القيام بها .

ومنها أن يحيط هذا العدد بالموضوع المطروح من جوانبه كافة . بحيث تغطي دراساته وأبحاثه اجزء الأعظم من المشكلة اللغوية .

---

(١) انظر « آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة » – الباب الرابع – افق جديد للفلسفة – ص ٤١٦ وما بعدها.منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٥ .

ومنها أن تقسم المشكلة اللغوية إلى وحدات تعالج كل وحدة منها بعداً من أبعاد المشكلة .

ومنها أن يستفتى عدد من أبرز كتاب القصيدة والقصة والمسرحية في الاجابة عن سؤال محدد يتصل بتجربتهم مع اللغة ، وأن يجري تقويم ذلك بدراسة نقدية تحاول أن تجيب عن السؤال الآتي : كيف يفكر الكاتب العربي المعاصر باللغة ؟.

وإذا كانت هذه المحاولة قد نجحت في رسم خارطة تفصيلية للمشهد اللغوي العربي المعاصر ، فان اغناء هذه المحاولة إنما يتحقق عن طريق اثارة حوار جاد حول الموضوع المطروح للمناقشة ، بهدف سد أي نقص يمكن أن يكون قد أصاب هذه المحاولة التي سعينا إلى أن تكون في مستوى الموضوع الخطير الذي تعالجه .

★ ★ ★

يوسف اليوسف

نحو فلسفة اللغة العربية

تعيش الدراسات اللغوية اليوم عصرها الذهبي في العالم المتقدم ، ولاسيما في أمريكا وفرنسا . أما في ثقافتنا المعاصرة فلم تزل الدراسات المتعلقة باللغة العربية تعاني ألم الولادة . إننا لم نزل في مرحلة ترسيخ الأدب ، ولم نحرز نقلة كبيرة في مضمار ترسيخ الفكر والعلوم . ولاريب في أن علوم اللغة أدخل في قطاع التفكير منها في قطاع الأدب . ولاجدال في إن نمو هذا الوجه من أوجه الثقافة سيظل مشروطاً بتطور الفكر ، الذي هو بدوره مشروط بتطور التاريخ العربي بكافة ايقاعاته ، ولاسيما ما كان منها متعلقاً بالتحول الاقتصادي .

فعلى الرغم من التراث الهائل المتعلق بالدراسات اللغوية ، والذي تحدر الينا من القرون الوسطى ، فان البحوث المعاصرة في ميدان اللغة العربية لم تحرز أي تقدم ذا شأن . ويبدو أن علم اللغة العربية المعاصر لم يزل فتياً ، بمعنى أنه يبدأ في الا غضون العقود الأخيرة . ومن الملاحظ أن النهضة التي انطلقت منذ أواسط القرن الماضي لم تعر اللغة اهتماماً كبيراً ، فظل هذا الايقاع الثقافي مقصراً عن النمو ، في حين راحت علوم اللغة في الغرب تتفرع إلى ميادين لم تكن معروفة أثناء القرون الأولى من النهضة الأوروبية . وهكذا أنضجت أوروبا علم الصوت ، وعلم الدلالة ، وتاريخ اللغة ، وعلم النفس اللغوي والانتربولوجيا اللغوية ، وما الى ذلك من الفروع الهامة في هذا المضمار .

ويمكن القول دون أي تحفظ إن عرب القرون الوسطى هم أهم شعب أشتغل في التحليل

اللغوي عبر القرون القديمة والوسيطة . وقد بلغت النظرية اللغوية ذروة شامخة على أيديهم . وتمثلت هذه الذروة في رجلين يكمن فضلهما في الفهم الكلي للبنيان اللغوي. أول الرجلين هو ابن جني الذي يمتاز بقدرته على البحث عن قوانين اللغة ، أو عن بنياناتها الداخلية . ولعله أول عبقري حاول أن يكتشف هذه العلائق الداخلية التي كانت اللغة العربية تنمو وفقاً لها وتبقى محكومة بها . وقد مثل فقهاء اللغة العربية الذين أتوا بعد ابن جني (بمن فيهم المحدثون) خطوة إلى الخلف بالنسبة إلى هذا العبقري الفذ . ففي حين راح ابن جني يبحث عن قوانين اللغة وكلياتها ، ظل فقه اللغة العربية سادراً في التعامل مع الجزئيات وعاجزاً عن بلوغ الشمولي والعام .

وثاني الرجلين هو عبد القاهر الجرجاني الذي أرسى النقد الأدبي على التحليل اللغوي ، وكان بذلك أول عالم في التاريخ يخطو هذه الخطوة . وتكمن أهمية عبد القاهر – كسابقه ومتقدمه ابن جني – في أنه رفض أن يفهم اللغة من حيث هي ركام هائل من المفردات ، بل فهمها بوصفها شبكة من العلاقات الداخلية ، وهذا آخر ما توصلت إليه علوم اللغة في الغرب. ولا ريب في أن هذه النظرة إلى اللغة تفتح أفقاً خصيباً وواسعاً أمام الدراسات اللغوية . ولا تقل عنها أهمية أطروحة عبد القاهر الرامية إلى فهم الأدب وفقاً لما يقع بين النسيج اللغوي من صلات . وتتأتى أهمية هذه الأطروحة من أن الألفاظ ليست ثياب المعاني أو أوانيها التي تحفظها وتثبت لها شكلها ، بل إن الألفاظ – عبر بنائها وحده – تحدد الإحساس بما يقوم بينها من ترابطات ، وهذا يعني أن الترابط بين المفردات هو المعنى عينه ، وأن لامعنى خارج إطار الترابط اللفظي ، وأن لا أهمية للمفردة مأخوذة على حدتها .

وقد تملك الذهاب الى ان ظهور عبد القاهر (القرن الخامس الهجري) مدين لظهور ابن جني (القرن الرابع) ، وهذا يعني أن تقدم التحليل اللغوي والبحث عن كليات اللغة هو المهاد الثقافي لتوليد نظرية لغوية في النقد الأدبي . وفي يقيني أن النقد الأدبي في ثقافتنا المعاصرة سيظل مقصراً عن الشأو المرجو طالما راوحت علوم اللغة العربية في مكانها ، لأن أي تقدم في فهم اللغة يلعب دور الشارط والمشروط معاً في عملية تقدم الوعي .

* * *

في ظني أن الاسهام الرئيسي لدراسة الخيال اللغوي للسان أمة بعينها هو الكشف عن العمليات التي كانت تصوغ شكل تفكير تلك الأمة إبان المرحلة الطويلة التي تكون اللسان خلالها ، والتي تواظب على صياغة ذلك التفكير ما واظب على استخدام اللغة نفسها . وهذا يعني أن اللسان ليس مجرد انعكاس لتاريخ حضارة من الحضارات فحسب ، ولا مجرد « مرآة للحضارة » وكفى ،

بل هو قبل كل شيء تجل أساسي من تجليات روح الأمة ، تماماً مثلما أن فنها وفلسفتها وعمارتها تجليات أخرى لهذا الروح . وفضلا عن ذلك فان الاهتمام بتشريح اللسان هو واحد من العمليات التي يمكن انتهاجها ابتغاء تحقيق استبار نفساني للخصائص الروحية التي يتميز بها شعب من الشعوب ، وذلك من حيث أن هذه الخصائص تفش ذاتها في اللغة قبل سواها من المبدعات ، أي قبل التاريخ المدني الواعي لانجازاته .

ولما كانت اللغة هي التمظهر الأول الذي تتبدى من خلاله عبقرية أمة من الأمم ، كان من الضروري أن تختلف اللغات وتتنوع ، وذلك نتيجة منطقية لاختلاف عبقريات الأقوام . فاذا صح الزعم الرامي إلى أن اللغات تتشابه في مستواها الأعمق فقط ، فلعل من المؤكد أن اللغات تتباين في مستوياتها الأخرى كافة . وهذا يعني أن الخصوصيات التي تتفرد بها لغة ما هي – في رأس ما هي – عين الخصوصيات أو السمات التي يتفرد بها عقل تلك الأمة ، كما يعني أن التباين اللغوي بين الأمم هو بالضرورة انعكاس للتباين الذهني بينها ، مثلما هو أرومة أو أساس التباين عينه . إن كل فهم و كل تصور تشرطه اشتراطاً نفسياً العمليات اللغوية المتحكمة بذهنية منظومة بشرية معينة. وبناء على هذا تغدو الوحدة اللغوية أصلب أرضيات الوحدة العقلية ، وبالتالي أساس وحدة المنظومة الاجتماعية ، أو دعامة الوحدة القومية . بدهي ، إذن ، أن ردم الهوى القائمة بحدة بين اللهجات العربية الراهنة (من خلال وسائل الاعلام) هو الخطوة الأشد فاعلية والأكثر تأسيساً لوحدة الأمة .

توضح لدينا الآن ما مؤداه أن تشكل منظومة من المنظومات البشرية (مجتمع ، عشيرة ، مدينة .... الخ) يرتبط مباشرة بتشكل احادية التصورات العقلية في هذه المنظومة ، كما أن تشكل هذه الأحادية يعتمد أساساً على التشكل الأنظومي للجماعة البشرية . وهذا يعني أن العلاقتين تتجادلان وتتضايفان في الوقت نفسه . فاللغة ، في هيئتها الأرقى ، هي التي تشرح اكتمال تطابق التذهنات البشرية وانسجام العمليات الادراكية في مجتمع معين ، على الرغم من تكثّر مناهج الإدراك وتكاثرها . ومن هنا كانت أهم وظائف اللغة هي صياغة التصورات الموحدة والموحدة في آن معاً ، ولذا فهي أداة تواصل بين الأفراد ، من جهة ، وعلية أساسية في حركة التضام الاجتماعي والحضاري . ودون أن تصاغ هذه التصورات فإن الخلاء الفاصل بين الأفراد ، أو بين أجزاء الأمة ، سيظل شاخصاً كما هو . وعلى هذا فإن صياغة التصورات تشكل الشرطية الأولى ، أو القبلية المنطقية ، لكل تواصل قومي أو اجتماعي ، وبالتالي لكل توحد حضاري . ولذا عمدت الامبراطوريات ، كل الامبراطوريات وفي كل الأزمان ، سعياً وراء الاتساق الذهني ، إلى نشر لغة واحدة (مدعومة بثقافة تلك اللغة) بين مواطني

الامبراطورية كافة ، بحيث شاهدنا الجزائري يتكلم فرنسية لاتقل جودة عن فرنسية باريس . ان مثل هذا الاجراء هو خير وسيلة لصيانة الامبراطورية من التفسخ في حقبة وجيزة . ولكننا لن يفوتنا التشديد على ما فحواه أن الاتساق الحضاري الناجز عبر الرموز اللغوية ، من شأنه أن يلعب دوراً كبيراً في صيانة التصورات وتوحيدها . وبذلك يقوم تحاور تمثلي بين هاتين الوظيفتين للغة : الاتساق الذهني والاتساق الحضاري .

ثمة ، اذن ، تجادل بين اللغة والتصور : فمثلما أن التصور ينمي اللغة بنموه ، فإن اللغة بدورها تنمي التصور بنموها.

ما اللغة ، إذن ؟

اللغة من هذا المنظور ، أي بوصفها استطاعة ترابط داخلي وتضام حضاري (لامجرد أداة تواصل بين الناس ، بغض الطرف عن درجة كثافة أو ضحالة هذا الترابط) ، هي – أولا وقبل كل شيء – طريقة التفكير المشتركة لمنظومة بشرية معينة . إن لغة واحدة تعني ذهنية واحدة أو شخصية واحدة ، كما أن لهجة واحدة داخل إطار لغة معينة تعني مزيداً من تعميق الترابط الداخلي بين أفراد المنظومة صاحبة اللهجة . ولما كان حد اللغة أنها نهج تفكيري مشترك داخل جماعة بعينها ، فإن تعلم لغة أجنبية ، يعني بالدرجة الأولى ، اكتساب طريقة تفكير جديدة ، وهذا أمر تقاومه طريقة التفكير الوطنية التي تعززت في الدماغ عبر الطفولة الأولى . ومن هنا كان تعلم لغة أجنبية ما إلى حد الاتقان المطابق لاتقان اللغة الوطنية أمراً مستحيلا (الا في شروط استثنائية) .

وبانتهائنا إلى أن اللغة طريقة تفكير مشتركة نكون قد وضعنا أصبعنا على أهم أسس الوحدة العربية : كلما قضينا على اللهجات العامية واقتربنا من لغة موحدة ، نكون قد تقدمنا باتجاه الوطن العربي الموحد . وفضلا عن هذه النتيجة ، فإن القول بأن اللغة طريقة تفكير مشتركة بين أفراد المنظومة القومية الواحدة يعني أنها ليست أداة فحسب ، بل هي غاية في ذاتها ، وذلك لأن الطريقة ليست خارجية بالنسبة إلى التفكير الذي ينتهجها . ان الطريقة هي المضمون عينه ، وهذا يفضي إلى القول بأن اللغة هي الهيئة الظاهرية العقل ، انها العقل وقد أصبح مدركاً أو شفافاً أمام نفسه .

وهنا نبلغ المبدأ الذي ينبغي أن تتأسس عليه فلسفة اللغة العربية :

إذا كانت اللغة العربية هي العقل متخارجاً ومدركاً في آن معاً ، وإذا كان مضمون اللغة

هو مضمون العقل عينه ، وخصائص اللغة هي خصائص العقل الذي أفرزها ، فإن نظرية اللغة العربية هي أولا ، أو كلياً ، نظرية استيعاب العقل العربي في ماهيته وسماته .

ولكن هذا المبدأ عريض ، بمعنى أنه ليس تفصيلياً ، وهو يشكل غاية فلسفة اللغة العربية ، وبالتالي فإنه لايعدو كونه الايقاع الأعمق في المنهج ، ولا يشتمل عليه كله .

° ° °

ينبغي البحث في اللغة من حيث هي كيان يحمل في داخله جملة من العلاقات التي تنكشف في المباشر اللغوي ، أي في الظاهري . وهذا يعني أن البحث في كليات اللغة (علائقها وقوانينها الأشد عمومية) هو الموضوع المركزي لفلسفة اللغة ، وكذلك المحور المستقطب لجملة المنهج . لم يكن فقه اللغة العربية – إذا استثنينا بعض الأسماء الهامة كابن فارس وابن جني – الا تعاملا مع المباشر بمنأى عن الجوهري الذي يؤسسه ويوحده . فعلى الرغم من أن فقه اللغة لايكتفي بالبحث في الحالات ، بل هو يتعامل مع التبدلات ، أي مع الصيرورة اللغوية ، فقد واظبت غالبية الفقهاء على تناول هذه الصيرورة في جزئياتها ومباشريتها معاً . ولا يمكن لفقه العربية أن يتخلص من الموضعية (البحث في هذا الموضع أو ذاك دون النظر إلى الوضع مأخوذاً كجمل) الا من خلال تنمية فلسفة اللغة التي تحاول القبض على كليات الصيرورة اللغوية .

ولنبسط ما نحن بصدده . لقد استطاع اللغويون أن يشرحوا الأصل الطبيعي لكلمة « ماء » و « هواء » و « صوت » .. الخ ، ولكنهم لم يستطيعوا الكشف عن الترابطات المتينة والواهية التي تقوم داخل اللغة ، أي أنهم ظلوا في منأى عن اكتشاف قوانين الانتقال التطوري من هذا الوضع إلى ذاك . لقد حققت اللغة العربية أرقى وثباتها التطورية إبان مرحلة رعوية طويلة ، وكانت الكيانات الاجتماعية ، وكذلك الجزئيات اللغوية ، تتشكل خلال هذه المرحلة ، أو هي تواظب على تشكلها الدائم ونموها المستمر ، وهذا يعني أنه لابد من وجود ترابط متين بين حركة اللغة وبين التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية .

لقد كد الفقهاء المحدثون أذهانهم ليثبتوا ما فحواه أن اللسان العربي ضارب الجذور في البدائية ، فن المؤكد أن اللغة العربية – ككل لغة – قد تشكلت في الأطوار الوحشية من الوجود البشري ، ولكنها بانتقال العرب من الوحشية إلى الرعي ، حققت وثبة هائلة بحيث أوجدت كمية هائلة من المفردات العالية التجريد . ولم يعد من اليسير ان نربط بين هـذه المفردات وبين الطبيعة ، إذا غضضنا البصر عن أصلها : حرية ، تمثل ، انفعال ، خير ،

شر... الخ . وانصبت الجهود على ارجاع كل صورة لغوية إلى أصلها الطبيعي ، مع أن هذه الصورة كانت قد فارقت ذلك الأصل مفارقة رفعتها إلى لحظة أرقى ، بحيث راحت الصور الجديدة تحمل من المعاني مالا صلة له بأصلها الا من حيث أن هذا الأصل يوضح معناها دون أن يحتويه . فلو أخذنا كلمة « نبع » التي ترجع إلى انبثاق الماء ، فإن الصورة التي تحملها في اللحظة الأرقى لاتمت إلى الماء بأية صلة . وهذا يعني أن فقه العربية في تشبثه بالأصل الطبيعي للكلمة العربية لايرى حركة النمو اللغوي إلا في وجه واحد هو وجهها الاسترجاعي ، أي لايرى اللفظة الا في اصالتها ، وكأنما هي اذ تتطور انما تراوح في مكانها . والحقيقة ان الكلمة إذ تتطور إنما هي تفارق وتبتعد . ان فقه العربية أقرب إلى السكونية منه إلى الجدلية.

حاول فقه العربية أن يركس هذه اللغة في الطبيعة من أجل الاركاس فقط ، مع أنه كان ينبغي أن يفسر سر مثابرة العربية على الحفاظ على هذا الأصل الطبيعي لجذور الألفاظ .

* * *

ولكن ما هو أهم من كل شيء ، وعلى وجه الخصوص ، ما هو أهم من تقري الأصل الطبيعي للفظة العربية ، هو الكشف عن قوانين انتقال اللغة من الهمجية إلى الرعي والتجارة ، أي عن قوانين انبثاقها من الطبيعة واندراجها في الحضارة . وما لم يقم المنهج الاسترجاعي (الذي يرد الألفاظ إلى أصلها الطبيعي) بتحقيق هذه الغاية فإنه سيظل شحيح النفع وضئيل الفائدة. لقد كان لغويو القرون الوسطى معذورين في عدم تصديهم لمثل هذا المبحث الجبار ، لأن قوانين التاريخ لم تكن قد اكتشفت بعد . فحين جاء ابن خلدون وأماط اللثام عن المادية التاريخية بذهابه إلى أن احوال الناس تتحدد بنوعية نحلتهم المعاشية ، وإلى أن الترف المادي هو المسؤول الأول عن تفسخ المجتمعات ، كان الفكر العربي قد انحط وكانت الدراسات اللغوية قد انقطعت تقريباً ، اللهم إلا إذا استثنينا السيوطي الذي جاء بعد ابن خلدون بقرن واحد تقريباً ، والذي لم يزد على ما قاله المتقدمون شيئاً ذا بال . ففي حين كان العلامة ابن خلدون يمثل لحظة متقدمة بالنسبة إلى أسلافه ، فإن أخلاف ابن خلدون مثلوا برهة التردي بالنسبة إلى هذا العبقري نفسه .

إذا آمنا بأن الشيء يتطور ابتداء من البسيط وانطلاقاً شطر المعقد ، فإن نظرة تحليلية نلقيها على مفردات المعجم قد تخول لنا حق الذهاب إلى أن اللغة العربية قد مرت بأربع مراحل تطورية :

الأولى ، أو مرحلة النشوء :

كانت اللفظة العربية تتكون من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن . وهذه هي أبسط التشكلات اللفظية التي يمكن أن تعني مضموناً ما ، ولذا فإنها أدناها وأولها . وقد انبثقت هذه المرحلة من الطبيعة، أو من جملة محاولات الانسان الهمجي في تقليده لأصوات الطبيعة . كان الروح لم يزل فجاً ، ولم يكن أكثر من أداة تسجيل خشنة تحاول أن تلتقط الأصوات تسجلها في منظومات لسانية تحاكيها محاكاة شبيهة بالأصل . ولم يكن الروح يعي ذاته الا بوصفه اندماجاً في الطبيعة لايمكن فصله عنها . انه روح فقير بالذاتية مليء با لخارجية .

ولعل القانون الناظم لبدايات التشكل اللغوي هذه يقبل أن يتلخص في الألفاظ التالية : ما من صوت طبيعي يمكن تركيبه من أكثر من صوتين (أو حرفين) ، ولهذا يمكن تصويره ايقاعياً عبر حرفين فقط . كان الروح يتعامل مع أصوات الطبيعة كما لو أنها لا تحتاج إلا إلى تقليد واصداء . انه أشبه بجسم عاكس للصدى وحسب ، لأنه لايعي الا وحدته مع الطبيعة . انه ما يزال بعيداً عن أن يعي نفسه كذات منتجة لمعانيها البعيدة عن ماهية الطبيعة .

إذن ، كان الروح لم يزل فجاً ، ولم يكن أكثر من أداة تسجيل خشنة تحاول أن تلتقط الأصوات وتسجلها في منطوقات لسانية تحاكيها محاكاة شبيهة بالأصل . وهكذا وجدت كلمات من مثل : طر ، قر ، خر ، رف ، جر ، هو ، مر ، دز ،هره، رم ،مز،مص،طق ، سق ، هف ، تف ، جف ، نف ، حف ، وكثير من الكلمات الأخرى ذات المدلول الطبيعي الصوت . ومن الملاحظ أنه في هذه المرحلة كان على الصوت أن يرسم الواقعة وكان على الواقعة أن تحدد صورة الصوت أو شكله تحديداً مسبقاً . ان الذاتي في حالة غياب شبه تامة ، وان الموضوعي هو الذي يعمل من خلال ذات مائتي في حالة نعاس ذهني .

لهذا ، لانجد في تلك المرحلة الممعنة في الفور سوى تلميحات إلى المدلول ، فالعقل مايزال مركوساً في الطبيعة وتابعاً لها . انه في الطبيعة أشبه بطفل في الرحم ، ولذا فإنه ذوبان في الخارجية وغربة عن داخليته .

ومما يرفع احتمال صحة هذه المرحلة أن المفردات ذوات الحرفين لم تزل قائمة في اللغة العربية حتى اليوم . وكذلك ترفع هذا الاحتمال المرحلة اللاحقة لها .

المرحلة الثانية :

في هذه المرحلة راحت اللغة تكون مفردات جديدة من مضاعفة المفردات ذات الحرفين ، ان الروح ما زال مسفوحاً في الطبيعة ، أي ما زال في مرحلة ما قبل البربرية التي هي بداية الحضارة وأدنى درجاتها . إنه لم يدخل عصر الصيد بعد .

والأرجح أن الحرف الثاني في الكلمة الرباعية الجديدة المشتقة من مضاعفة الصوت الثنائي الأحرف قد حافظ على سكونه ، وأن الحرف الرابع جاء ساكناً هو الآخر ، بحيث أن كلمة « جرجر » كانت تلفظ مفتوحة الحرف الأول وساكنة الراء الأولى ومفتوحة الحرف الثاني وساكنة الراء الثانية .

وهكذا ظهرت كلمات من مثل : سقسق ، هفهف ، حفحف ، حسحس ، رفرف ، نفنف ، فرفر ، طقطق ، قلقل ... الخ .

وربما اندثرت الكثرة الكاثرة من المفردات المكونة وفقاً لهذا الأنموذج ، في المراحل اللاحقة . ان تحدر عدد لايحصى من أمثال هذه الكلمات إلى العربية الراهنة ، وكذلك وجودها في اللغات الأخرى ، لايؤكد أن نشوءها قد شكل مرحلة من مراحل التطور اللغوي وكفى ، بل هو يؤكد أن المرحلة السابقة (مرحلة تشكل الصوت من حرفين فقط) كانت مرحلة الانبثاق اللغوي دون أي تحفظ . إذ يستحيل عقلاً أن تأتي هذه الكلمات المكررة المقطع إلا إذا سبقها تكون المقطع الذي تكرره .

والقانون الناظم لهذه المرحلة بسيط كسابقه . وهو – كسابقه أيضاً – يعكس الروح في سذاجته وغربته عن ذاته وتدني طاقاته الابداعية . ولكن ، وعلى الرغم من هذه البساطة ، فإننا لانعدم الذكاء في صياغة هذا الشكل ، ولا نعدم قدرة العقل على التصور . انه لأول مرة يحاول أن يتجه نحو الداخل .

وعلى أية حال هذا هو القانون الذي يؤلف العلامة الأعمق لتلك المرحلة : ان الصوت الطبيعي إذ يعبر عن استمراريته انما يكرر تفعيلة واحدة لمدة طويلة . فالفعل « سقسق » هو ترافد ثنائي للتفعيلة « سق » . ووجه الذاتية في هذه الصياغة أن العقل اكتفى بترديد هذه التفعيلة مرتين ليعبر عن تواترها في الطبيعة لأكثر من مرتين .

لقد مثلت هذه المرحلة جزءاً من الحقبة الانتقالية الفاصلة بين الطبيعة والحضارة .

ولكن ، وعلى الرغم من هذا التقدم الملموس ، فإن الروح في هذه المرحلة لم يزل بعيداً عن الارتفاع الجذري ، وبالتالي فانه لم يزل بعيداً عن الروحية والداخلية . وهو ما انفك معتلا بكل الوهن الذي يمليه الانبثاق عن الطبيعة . إنه لم يغادر الخارجية إلا قليلا ، لأن الاجتماعي ما برح غائباً ، وذلك على عكس المرحلة الثالثة التي راحت تتأسس على البنيان الذاتي حين أخذت اللفظة تتحول إلى صورة بدلا من كونها ايقاعاً موسيقياً فظاً يعكس الخارجي كما هو.

وخلاصة القول فيما يتعلق بالمرحلتين السابقتين أنه مثلما كان هنالك دين الطبيعة ، كانت هنالك لغة الطبيعة. ان العلاقة وثيقة بين اللغة التي تنبثق من الأصوات التي تقدمها الطبيعة كمادة خام لأصوات اللغة ، وبين الطقوس الدينية المتعلقة بأساطير الخصب ، وهي التي لم تكن قد تشكلت بعد في المرحلتين الأولى والثانية ، ولكننا نستطيع أن نفترض تشكلها من الارتباط الطويل بين الانسان والطبيعة . ولكن هذا لايعني أن اللغة والدين متشاركان ، بل هما ينبجسان من أصل واحد هو الطبيعة .

المرحلة الثالثة :

الآن أخذ الروح يرتد إلى ذاته، أي يتجه نحو الداخلية، إن الطبيعة قد منحته كل ما تستطيع تقديمه كمادة خام ينسج منها اللغة . فما هي اللغة بدءاً من الآن ؟ إنها تفتح العقلانية (الذهن بالدرجة الأولى) وانكشافها في رموز صوتية ، وبالتالي جعل الشعور واضحاً أمام ذاته . بدءاً من الآن ، أصبحت خصائص اللغة عين خصائص العقل ، لأن العقل أخذ يصوغ اللغة على هيئته ومثاله .

ولكن ما سر هذا الافتراق عن الطبيعة ؟

لقد أصبح الانسان صياداً . وبذلك كسر الرابطة التي تشده إلى الطبيعة . أصبحت الطبيعة عدواً يحتاج إلى أن يلجم لكي يتطور المشروع الانساني . وجاءت الأداة لتعمق انفصال الانسان عن امه الطبيعة ، ولتزيد في قدرته على كبح شراستها . وينبغي الا نقلل من شأن الأداة البدائية في تشكيل اللغة . ومع ذلك فإن العلاقة بين الأداة والتشكل اللغوي اللاحق لاكتشافها ليست علاقة مباشرة . ولكن أثرها على الوثبة اللغوية الجديدة كان يفعل عبر أمرين :

أولهما : أن اكتشاف الأداة يعني قفزة هائلة في حركة نمو العقل . وحين ينمو العقل فإنه يطور لغته . ان الاكتشافات الحديثة قد طورت اللغات الأوروبية تطويراً لايمكن أغفاله .

وثانيهما : أن اكتشاف الأداة بحد ذاته هو خطوة نحو الداخلية ، واللغة المتطورة هي من نتاج الداخلية قبل الخارجية . أصبحت الداخلية تشعر أن أصوات الطبيعة الفقيرة بالمضامين يستحيل أن تقدم الشكل الكافي لتصورات الوعي المتقدم ، ولهذا شكلت الأداة تحدياً كبيراً ، بل محرضاً فعالا يدفع الداخلية نحو تعميق التصورات وبالتالي تعميق الأشكال أو الرموز المعبرة عنها .

وإذا كانت الأداة (والصيد طبعاً) هي الأساس الاقتصادي لهذه المرحلة ، فإن تشكل الجماعة البدائية هو أساسها الاجتماعي . لقد أصبح الانسان عضواً في مجموعة بشرية ذات نشاط اقتصادي واجتماعي معاً . وكان لابد في هذه المرحلة من أن تتشكل الأساطير المتعلقة بالحيوانات الطريدة . مثل هذه الحال لابد من أن تدفع بالنمو اللغوي إلى الأمام ، لأنها تشعر الأفراد بعجز الاشارات الصوتية الطبيعية عن نقل شعور المرء تجاه الآخر ، ولأنها تفتقر إلى المصطلحات المعبرة عن أحوال الاقتصاد . وهكذا كان لابد من تشكيل الجذر الثلاثي للألفاظ . وابتداء من هذا التشكيل يبدأ التجريد اللغوي ، ويبدأ العقل في الاتجاه نحو داخله بعمق شديد .

كيف بدأ العقل بتشكيل الثلاثي ؟

كان العقل قد أنجز الفعل الرباعي المكون من تكرار تفعيلة واحدة بحيث يتكون من التكرار كلمة جديدة تفيد الاستمرارية العملية أو الاجرائية . ووجد أن من الممكن حذف الحرف الثالث ليأتي الثلاثي الجديد معبراً عن العمل دون اشارة إلى استمراريته . فبدلا من أن تقول « جرجر » ، أصبحنا نقول « جرر » وبدلا من « مدمد » ، أصبحنا نقول «مدد» ، وهكذا . ولابد من أن يكون تشكل الثلاثي قد بدأ على هذا النحو ، لأسباب كثيرة أهمها أن العربية ما تني تحتفظ بالرباعي المكرر التفعيلة وبالثلاثي الذي قد أسقط حرفه الثالث منبثقاً عن ذلك الرباعي ، أما ادغام الحرفين الثاني والثالث من هذا الثلاثي الجديد (« مد » ، « شد » ، « رد » ، مثلا) لم تتم الا في المرحلة الرابعة على الأرجح .

في هذه الفترة الأولى من المرحلة الثالثة ، كانت الداخلية ما تني ضئيلة الشأن إذا ماقورنت بالفترة اللاحقة ، وذلك لأن العقل يبني الثلاثي مستنداً فقط إلى حذف حرف رأى فيه زيادة ما . إنه يبني بالاسقاط لا بالاضافة .

وإذا كانت الفترة الأولى تعاملا مع الرباعي المكرر ، أو ما يدعوه ابن جني « بالمصادر الرباعية المضعفة » ، فإن الفترة تمثلت [عودة] إلى الثنائي [ا] لعاكس لصوت طبيعي غفل . وعوضاً

عن تكرار هذا الصوت الثنائي ، وبدلا من اسقاط واحد من حروفه الأربعة ، فإنه أخذ يتجه نحو اضافة حرف (أو صوت) ليس من أصل الصوت الطبيعي إلى آخر أو أول أو منتصف هذا الصوت الأخير . لقد أخذ العقل يبني بالاقحام . فمثلما كان يدخل هيئته ومثاله على الأداة بحيث يجعل منها شيئاً يخدم أغراضه ، فقد أخذ يولج في الصوت الطبيعي حركة تجعل منه شيئاً أكثر طواعية في التعبير عن الشعور .

ومن البدهي أن يكون العقل في هذه الفترة الأرق من سابقتها قد بدأ بصوغ الثلاثي من أصوات أقرب إلى التعبير عن المجسدات منها إلى التعبير عن المجردات . ان المجردات تحتاج إلى مخرض كبير ابتغاء تأسيسها ، وبالطبع واجه الانسان ذلك المخرض أثناء مسيرته التطورية.

وهكذا تشكلت في البداية أصوات ثلاثية تشير مباشرة إلى مجسدات ماثلة عياناً . فظهرت كلمات من مثل « أنف » المتشكلة باضافة حرف الألف إلى أول المقطع الثنائي « نف » ، وهو المقطع الذي يرسم الصورة الصوتية لاخراج المخاط من الأنف . وظهرت كلمة « بصق » باقحام حرف الباء على أول المقطع « صق » الذي يرسم صورة واقعة البصق . وربما كان هذا الجذر الثلاثي ، أعني « بصق » ، يحمل اشارة في تلك الأيام إلى كل من مادة البصاق وعملية البصق وفعل البصق في آن معاً ، أي أن « بصق » كانت تعني : « بصق » و « بصقاً » و « بصاقاً » . ومع أن كلمة « قط » كانت تعني تماماً ما تعنيه اليوم – القطع – فالأرجح أنها تطورت في تلك المرحلة إلى « قطع » .

إن مما يلفت الانتباه في المعجم العربي هو تلك الكثرة الهائلة من المفردات الدالة على القطع والكسر والتشقق والفصل . ومما لا يرقى اليه شك أن هذه المفردات قد تكونت خلال المرحلة الثالثة ، وربما حين بلغت ذروتها ، وذلك لسببين : ان الانسان قد أخذ يبني بيوته من خشب الغابة التي راح يقطع اشجارها بعد أن طور أدواته . هذا من جهة ، ومن الجهة الثانية فإنه راح يقطع الحيوانات ويفصلها إلى أجزاء ليتيسر أكلها . ولكن هذه المفردات لابد من أن يكون قد لحق بها بعض التطور بحيث انتقل قسم منها إلى برهة متطورة جعلت اللفظة تحمل أكثر من معنى ، أو تحمل معنى آخر بالاضافة إلى معناها الأصلي . إن كلمة « رضخ » ، مثلا ، تعني « كسر » مثلما تعني الخضوع للآخر . ولابد من أن يكون معناها الثاني قد اكتسبته في المرحلة الرابعة ، أي الحق بها عبر التطور .

في الفترة الثالثة من المرحلة الثالثة تشكلت الجذور الدالة على أعمال تجسيدية ليس من اليسير على ايقاعها الموسيقي أن يعكسها . من ذلك مثلا : شرب ، قفز ، وثب ، رمى ،

أكل ، حرب ، هوى ، غرق ، سلخ ، شطر ، مخط ، ما شابه ذلك . انها ألفاظ تحتاج إلى نسبة عالية من التجريد ، ولو أنها تحتفظ بالصوت الطبيعي خلوئها .

إن إضافة حرف إلى منتصف الكلمة لابد من أن يكون قد ظهر بعد مرحلة اضافة الحرف إلى أول الكلمة أو آخرها . والدليل على ذلك أن الثلاثي المعلول العين (زار ، نام ، دار ، طاف ، خاف ،) أمعن في التجريد من سواها من الكلمات في الغالب الأعم . كما أن كلمات أقحم إلى عينها حرف ليس من حروف العلة لاتخلو من تجريد هي الأخرى ، ولنأخذ كلمة « سحق » المصوغة باقحام الحاء إلى الثنائي « سق » (وهو صوت عملية السحق) ، وكذلك كلمة « محق » المكونة بادخال الحاء إلى الثنائي « مق » لو أمعنا النظر في هاتين اللفظتين لوجدنا أنهما أكثر تجريداً من لفظة « هوى » مثلا ، وهي المصوغة باضافة الألف المقصورة إلى آخر الثنائي « هو » (صوت الهواء) .

ان مبدأ التشكل في هذه المرحلة الثالثة من مراحل تطور العربية هو أن الألفاظ الأقل تجريداً والأكثر قدرة على التعبير عن أجساد وأحداث خارجية الوقوع ، وكذلك الأكثر قدرة على رسم صوت الحدث الخارجي ، هذه الألفاظ هي التي راحت تتشكل في هذا الطور العظيم . اننا ما نزال بعيدين كل البعد عن الداخلية المطلقة ، وان كانت الداخلية قد فضت جزءاً كبيراً من مضامينها .

ولكن ، وأياً كان الشأن ، إن أهم سؤال ينبغي أن تجيب عنه فلسفة اللغة العربية بالذات هو هذا : هل كان تشكل الثلاثي يتم عشوائياً أم وفقاً لقانون معين ؟ وبعد اكتشاف القانون بتفصيلاته الجزئية تنبثق مسألة لاتقل صعوبة عن المسألة السابقة ، وهي معضلة تعليل ذلك التشكل ، أي : ما هو السبب الذي دفع الخيال التصويري إلى سلوك هذا المسلك أو ذاك في تشكيل الثلاثي ؟ لماذا أضاف العقل حرف الألف إلى أول المقطع « نف » ليشكل كلمة«أنف»؟ لماذا لم يضف حرفاً آخر أيا كان ؟ وإذا كان الجواب أن كلمة « أنف » بأحرفها الثلاثة تعكس صوت الأنف ، فإن المسألة عينها تطرح بخصوص كلمات لايمكن أن تصور معناها تصويراً ايقاعياً ، كالفعل « نام » أو « هام » أو « أحب » . إن ثمة أحداثاً لا أصوات لها على الاطلاق : « وهب » ، « نجم » ، « فكر » ، « صور » .

هنا ، على فيلسوف اللغة أن يشحذ أسلحته .

المرحلة الرابعة :

لم تعد اللغة في شكلها السابق صالحة للتعبير عن المرحلة الاجتماعية الجديدة التي أصبحت تعرف حداً ما من التشكل السياسي والعسكري والفكري : ظهور الشعر والاسطورة والدين . ولذا لم تعد الطبيعة هي المؤسس الأول والأخير للانسان واللغة . ان الانسان هو الطبيعة في تاريخ ، الطبيعة ذات التاريخ ، والتاريخ المنبثق عن الطبيعة . الانسان تلاحم الحقيقة الاجتماعية مع ما هو قبلي بالنسبة اليها ، أو تلاحم الاجتماعي مع ما هو ليس اجتماعي ، مع ما هو سابق على الاجتماعي .

هذه المرحلة ، على المستوى الاقتصادي ، هي مرحلة الرعي ، الشكل الإنتاجي الأرقى من شكل الصيد . في مرحلة الرعي تدخل الملكية الخاصة إلى التاريخ ، وبالتالي تدخل الأسرة . وتأسيس الأسرة يستتبع حلالاً اجتماعياً – نفسانياً لعله من أهم المؤثرات على الروح الإنسانية ، إن لم يكن أهمها جميعاً . لقد فرضت المجتمعات تحريماً (تابو) تم عبره الانتقال النهائي من الطبيعة إلى الحضارة ، ولم يكن ذلك التحريم سوى حظر عشق المحارم . ومع ذلك الحظر دخل اللاشعور – ولأول مرة في التاريخ – إلى بناء الذات . أصبح الزواج الخارجي (الزواج من عشيرة أخرى) هو العلاقة الجنسية الوحيدة المباحة . وهذا ما أفضى إلى اندماج مجموعات من العشائر في عشيرة واحدة . وقد عبرت اللغة العربية عن هذا الدمج من خلال استعمال كلمة « صهر » للتعبير عن العلاقة بأهل الزوجة . ويبدو أن هذا النوع من التصاهر كان يتم في عصر اكتشاف الحديد . إن عشيرة الأزواج كانت تتصهر مع عشيرة الزوجات في تركيبة اجتماعية جديدة . ويبدو أن الزواج كان يتم بالتبادل الجماعي للبنات . تأخذ العشيرة الأولى بنات العشيرة الثانية ، وتأخذ العشيرة الثانية بنات العشيرة الأولى ، وبذلك تتصهران في عشيرة واحدة .

مثل هذا الانصهار كان لا بد له من التأثير على اللغة وذلك من خلال إخصاب معجم العشيرة الواحدة بمعجم العشيرة الأخرى ، ومن هنا نلحظ كثرة المترادفات في اللغة العربية . إن دورة النساء ، وكذلك دورة السلع ، كانت تحمل معها دورة اللغة . بالزواج الخارجي أرغمت المجتمعات العشائرية الصغيرة على أن تفتح دوائرها المغلقة بعضها أمام بعض . وهذه الشبكة الواسعة من العلاقات تحتاج إلى معجم واسع للتعبير عنها ، الأمر الذي يعني ضرورة تطوير اللغة .

أما دخول اللاشعور إلى بنيان الذات فقد أفضى إلى شيئين أساسيين :

أولها : تشكل المجازات . في اللغة العربية ، هناك عدد ضخم من المفردات يحمل معناه حملا مجازياً لا إشارياً . فالاستقامة (أي حسن السلوك) مأخوذة من استقامة الدرب وعدم انحنائها . والجرم أصله اللغوي « القطع » ، وقد أخذ هذه التسمية لما يستوجب من قطيعة تحصل بين المجرم والمعتدى عليه . والمكيال والميزان يطلق عليهما اسم « القسط » لأنهما يعدلان بين الناس بشكل واضح . ويسمى المقاتل الجيد « بطلا » لأنه يبطل (أي يهلك) أعداءه . والتيه يعني الضلال والزوغان عن السمت ، ونعت المتكبر بالتيه أمر من قبيل المجاز ، لأن التياه ضال عن الاستقامة .

ولو حاولنا أن نحصي الألفاظ التي تعبر عن معناها بآلية المجاز وحده لاحتجنا إلى معجم ليس بالصغير .

وثانيها ، ما يعبر عن النزوع الشهوي . لقد أخذ الكثير من الألفاظ يعكس رغبات الأفراد عكساً لا شعورياً ، ولنأخذ على ذلك أمثلة :

١ – الضمير : ضمر الشيء ، هزل . ضمر العود ، جف بخضوره . تضمير الخيل ، ذهاب رهلها واكتناز لحمها . وهل هذا يمكن للضمير أن يكون ذلك القطاع الحي من النفس البشرية ، مثلما يمكن له أن يكون ذلك القطاع الذي يهزل فيه المضمر كي يكبت .

٢ – العرب : من يعربون أو يفصحون ، أما العجم فأهل العجمة .

٣ – الأمة : الجماعة تعاملك معاملة الأم .

٤ – الرحمة : إن الذكرى اللاشعورية لواقعة السلام الآمن في الرحم هي التي أملت اشتقاق لفظة « الرحمة » من الرحم .

٥ – الرب : إن تغيير حرف الألف في كلمة « أب » والاستعاضة عنه بحرف « الراء » الذي يشير إلى التربية هنا (لا بد من وجود علاقة بين « رب » و « ربى » ، والفرق بينهما هو الألف المقصورة المقحمة على الثنائي ليغدو ثلاثياً) ، هذه الاستعاضة تعني وجود علاقة خفية بين الأب والرب . إن الرب هو الأب النموذجي ، أو الأب مرفوعاً إلى أفق المثال . والجدير بالذكر أن المسيحية ، وهي ديانة الساميين ، أجداد العرب ، ترى الإنسان ابناً للرب .

في كل هذه الكلمات ، وفي كثير مثلها ، نلاحظ المعنى مكثفاً ومحولا ، أي أنه يلمع إلى شهوة منقولة من موضع إلى آخر .

إن علينا أن نؤسس الانثربولوجيا اللغوية لكي نحيط بهذه اللغة التي تتأتى صعوبة فهمها من أن لها « أصولاً وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا كما قال سيبويه » . وهذه هي كلمات ابن جني ، وردت في الجزء الثاني من كتاب « الخصائص » .

وربما كان أهم سؤال تطرحه انثربولوجيا اللغة العربية هو هذا : كيف أثرت علاقات القرابة المتأتية عن الزواج الخارجي في انتاج المعاني وصوغ الألفاظ ؟ .

ما من أحد يملك اجابة عن هذا السؤال حتى الآن . ولكن بداية البداية قد تكون في ملاحظة انساق الألفاظ . ولست أدري ما إذا كان الفقهاء قد لاحظوا هذه الانساق أم لم يلاحظوها . وأياً ما كان الشأن ، فانها قد تكون مفتاح حل معضلة التطور اللغوي في مراحله الأرقى ، الأمر الذي يجعل من مسألة عدم ملاحظتها من قبل اللغويين (أو عدم بحثها إن كانوا قد لاحظوها وأهملوها) أمراً مثيراً للعجب .

وقبل أن أعرض هذه الانساق أود أن أبين أمرين هامين كان ابن جني قد عرضهما في « الخصائص » ، وهما في صلب مسألة القرابة :

الأول : « تراسي الأصول والميل بمعانيها إلى موضع واحد » ، أي أن الأصول والصيغ على اختلافها جميعاً تعود إلى أس ذهني واحد ، أو إلى ماهية واحدة . « وهذا باب إنما يجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجردة من الألفاظ ، وليس كالاشتقاق الذي هو من لفظ واحد ، فكأن بعضه منبهة على بعض » (الخصائص ، الجزء الثاني) .

ويقدم ابن جني امثلة على هذه الظاهرة الثابتة الصحة . من ذلك أنه يأخذ هذا العنقود من الكلمات ويثبت أن اصوله تتراسى ولكنها جميعاً تنكص بمعانيها إلى بؤرة مضمونية واحدة : الحاجة ، الحوجاء ، اللوجاء ، الإرب ، الإربة ، المأربة ، اللبانة ، التلاوة ، التلية ، الأشكلة ، الشهلاء . ثم يقول : « وأنت تجد مع ذلك من اختلاف اصولها ومبانيها جميعها راجعاً إلى موضوع واحد ومخطوماً (مربوطاً) بمعنى لا يختلف ، وهو الإقامة على الشيء والتشبث به . » وهذا يعني أن الجذور الثلاثية لمفردات القائمة الأخيرة يعني كل منها معنى : أقام أو تشبث . ويأخذ ابن جني أمثلة أخرى من هذا القبيل ويحللها بذكاء ليلحظ العلاقات القائمة بينها . وتعبيراً عن كثرة مثل هذه العناقيد المشتركة الماهية يقول ابن جني في نهاية ذلك الفصل الذي يعنونه بهذا العنوان : « باب في تلاقي المعاني ، على اختلاف الأصول والمباني » ، يقول : « وهذا مذهب في هذه اللغة طريف ، غريب لطيف . وهو فقهها وجامع معانيها وضام نشرها . وقد هممت غير دفعة أن أنشيء في ذلك كتاباً أتقصى فيه أكثرها ،

والوقت يضيق دونه . ولعله لو خرج لما أقنعه ألف ورقة إلا على اختصار وإيماء . »

إذن ، هناك قرابة بين المعاني من غير أن تكون ثمة قرابة بين الألفاظ . (وفي هذا تختلف أنساق الألفاظ ، التي تظهر عليها قرابة اللفظ والمعنى ، عن عناقيد ابن جني .) إن زمرة واحدة من المفردات تنبثق من ماهية واحدة ، أو من أصل مفهومي واحد . والسؤال الذي يمكن طرحه الآن هو هذا : ألا يشير هذا الانتساب اللفظي الواحد إلى علاقة بين اللغة وبين أنساب القبائل أو خطوط القرابة الدموية ؟

الثاني : ورد في الجزء الثاني من كتاب « الخصائص » بحث عنونه ابن جني بهذا العنوان : « باب في الاشتقاق الأكبر » . وهو يعرف هذا الاشتقاق بقوله : « وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وإن تباعد شيء من ذلك عنه رد بلطف الصنعة والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد . » وهو يأخذ ثلاثة أمثلة لإثبات مذهبه هذا وهي : كلم ، قال ، جبر . إن تقاليب كلمة جبر (ج ب ر ، ج ر ب ، ر ج ب ، ر ب ج ، ب ر ج ، ب ج ر) تفيد القوة والشدة . ولا داعي لكي أفصل هذا الباب لأنه معروف عن ابن جني ومشهور . والجدير بالذكر أن هذا العلامة لم ير في الاشتقاق الأكبر قانوناً كلي الشمول ، بل قال : « واعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة ، كما لا ندعي للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة . » .

إني لا أستطيع أن أقطع الآن في صحة دعوى ابن جني أو في بطلانها . ولكني مع ذلك آخذ على الفقه المحدث اهماله لهذا المبحث الهام ، بل وآخذ على بعض الأكاديميين موقفهم الأستنكاري لدعوى ابن جني . إن ميل الأكاديمية العربية المحدثة إلى التعامل السطحي مع الظواهر هو المسؤول عن عزوفها عن التحليل . ومثل هذه المسألة التي يطرحها ابن جني لا يمكن إثباتها إلا باطراد التحليلات بحيث نتمكن من القبض على الماهية المشتركة بين أفراد أو أجزاء مثل هذه العناقيد ، وهي الماهية التي تشكل العلاقة الناظمة لأعضاء العنقود الواحد .

ثمة أمر هام أشار إليه ابن جني ، أو هو بحثه بالتفصيل في الجزء الثاني من الخصائص تحت هذا العنوان : « باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني » . وهو يعرف هذا التصاقب بقوله « أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني . وهذا باب واسع » . وفي هذا الباب يأخذ ابن جني كلمتين تشتركان في حرفين من حروفهما وتفترقان في الحرف الثالث (بنقص الطرف عن موقعه) وبذلك تتقاربان في المعنى . ولنقتطف بعض الأمثلة التي حللها ابن جني:

« العسف والأسف ، والعين أخت الهمزة ، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها ، والهمزة أقوى من العين ، كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف . فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين . »

ثم يأخذ : « جرف » ، « جلف » ، « جنف » ، وكلها بمعنى « أمال » .

ثم يأخذ : « علم » ، « علب » ، « عرم » وكلها تعني « الأثر » .

« غرب » ، « غرف » لتعني متح الماء .

« جبل » ، « جبن » ، « جبر » لتقاربها في موضع واحد ، وهو الالتئام والتماسك .

وفي باب آخر من الجزء الثاني يحمل عنوان « باب في اساس الألفاظ أشباه المعاني » ، يبين ابن جني العلاقة بين : « خضم » و « قضم » . « القد » و « القط » . الوسيلة والوصيلة . « صعد » و « سعد » . ولا داعي لشرح هذه الأمور بالتفصيل لأن من الممكن العودة إلى مصدرها من أجل استيعابها ، لا سيما وان هدفنا ليس عرض ابن جني بل الانطلاق منه . ان ابن جني ينتظر من يكمله .

ان هذه النقاط الثلاث (١ – البؤرة الواحدة للمعنى . ٢ – الاشتقاق الأكبر . ٣ – تصاقب اللفظ بسبب من تقارب المعنى) تشير صراحة إلى أن داخل اللغة توجد علاقات قرابة . وهذا يعني ان ابن جني يبحث في قلب اللغة لا على سطحها . ولكنه مع ذلك لم يفعل شيئاً أكثر من ملاحظة ظواهر اللغة التي سماها كلاسيكيو الفقه بخصائص اللغة . ان الفرق الأساسي بين فقه اللغة وفلسفة اللغة هو أن العلم الأول يكشف عن الظواهر في حين أن العلم الثاني ينزع نحو تعليلها . لقد فقه القدامى اللغة ولكنهم لم يفلسفوا فقههم .

ولكن ما يهمنا الآن هو الذهاب إلى أن الظواهر الثلاث التي قدمها ابن جني تصلح أساساً لأنساق اللفظ . وإذا ما استطعنا أن تطور هذه الأنساق وأن نثبت صحتها – كظاهرة أو خصيصة أو علاقة تقوم داخل ألفاظ اللغة – فاننا نكون قد دفعنا ابن جني خطوة كبيرة إلى الأمام . وإذا ما استطعنا أن نربط بين هذه الأنساق وبين علاقات الانتساب العشائري فإننا نكون قد وضعنا أرضية متينة لانثر بولوجيا اللغة العربية .

قبل كل شيء ، دعنا الآن نطرح هذا السؤال : ما هو أهم مضمون تنطوي عليه بحوث ابن جني ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال غاية في الأهمية . أشعر وكأن ابن جني يريد أن يخلص إلى هذا القرار الكبير : في اللغة هناك فروق تفرخ التقارب . أي : هناك انفصالات تولد

التواصل . وهذا تماماً نقيض ما ذهب إليه الفرنسي دوسو سور حين قال : « في اللغة ثمة فروق وحسب » . نحن نقول ، وانطلاقاً من ابن جني ، في اللغة ثمة فروق مسؤولة عن روابط القرابة بين الألفاظ . ان موقف دوسوسور سكوني ، في حين أن أبحاث ابن جني جدلية ترى الألفاظ في التحول مثلما تراها في الثبات ، لأن التفارق ينتج التواصل .

أما بخصوص الأنساق فبودي أن أؤكد ما فحواه أنها لا تتمتع بسمة الاستمرار في مجمل اللغة ، كما أنها تحتاج إلى بحث خاص بها .

أما النسق الأول فهو كامل ومستمر . وهذا هو :

نبأ . نب ، نبت ، نبث ، نبج ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبز ، نبس ، نبش ، نبص ، نبض ، نبط ، نبع ، نبغ ، نبق ، نبك ، نبل ، نبه ، نبا .

كل هذه الجزئيات الداخلة في نسق واحد متقاربة في المعنى دون أن تكون متماثلة . وقد عبرت اللغة عن تقارب معنى هذه الجزئيات من خلال اشتراكها جميعاً بحرفين اثنين من أصل ثلاثة ، ولكنها عبرت عن تفارقها ، أو اختلاف معناها ، بتغيير الحرف الثالث أو الأخير . ولكن هذا الحرف الفارق لم يأت ليفصل الجزئي عن تناسقه الكلي ، أي ليفرزه عن مجراه الترابطي ، أو ليخلعه عن جذعه ، بل ليلونه بحيث يبدو نوعاً ضمن كلية متناسقة أو ليغدو جزئية في تركيبة أحادية العضوية .

ولنأخذ نسقاً آخر . وهو غير مستمر على ما يبدو .

نقب . نقح . نقد . نقص . نقض . نقى .

النقب نقض ، والنقض نقص ، لأن الشيء ينقضه نقصه الماثل فيه ، أي سلبه أو عدمه . والنقد يتضمن البحث عن النقص ، والبحث عن النقص نقض ، وهو في الوقت عينه تنقيب وتنقيح معاً ، وهو تنقية أيضاً .

وهذا نسق آخر :

شرح . شرج . شرخ . شرط . شرم .

يبدو أن المقطع « شر » كان يفيد الشق ، إذ كل أعضاء هذا النسق تشترك في معنى التشقق . وتأتي الحروف الأخيرة لتنوع معاني التشقق المختلفة .

ثم هذا النسق :

مرج ، شرج ، فرج ، حرج .

ر بما كان المقطع « رج » يفيد الخروج والفصل .

وهذا النسق :

سطر . شطر . فطر « الفطر = الشق » . وطر .

يبدو أن أعضاء هذا النسق تفيد التوجه ، أو شق الدرب باتجاه ما . ويبدو أن المقطع « طر » هو الذي يحمل بؤرة المعنى .

لاحظنا حتى الآن أنساقاً تشترك أجزاؤها بفاء الفعل وعينه دون لامه ، وأنساقاً يشترك أعضاؤها بعين الفعل ولامه دون فائه . ويمكن أن نقدم أنساقاً تشترك بالفاء واللام دون العين . ولكننا نلاحظ أن هذا النوع الأخير من الأنساق قليل الأمثلة ، وأن أفراد النسق الواحد قليلة العدد هي الأخرى . وهذا ناجم عن تشبث العرب بعين الفعل وبأهمية هذا الحرف الأوسط . وهذه ظاهرة مهمة . أنقول في تفسيرها أن عين الشيء هي ماهيته ، وأن العقل العربي يذهب إلى ثبات الماهيات ، ولذا فإنه لا يغير الحرف الأوسط في الثلاثي إلا قليلا ؟ ان هذا ليس تعليلا . أتوجد صلة بين علاقات القرابة وبين عدم إكثار اللغة من تغيير الحرف الأوسط ؟ إن هذا ما لم نزل بمنأى عن إثباته . ولكننا نملك أن نقدم المزيد من النوعين الآنفي الذكر :

فرز ، فرم ، فرد ، فرس ، فرى ، فرط .

فصح . فصد . فصل . فصم . فصص .

ومن الواضح أن ثمة تقارباً وتصاقباً بين لفظتي « نسب » و « نسق » . وهذا مما يعزز الدعوى الرامية إلى أن هنالك صلة بين أنساق المفردات وأنساب الأفراد . وهذا يعني أن في أعماق اللغة تقوم وحدات ، أو بنيانات متراصة تراص أفراد العشيرة الواحدة . فكما يعود أفراد العشيرة جميعاً إلى جد واحد ، أي إلى رابطة دموية واحدة ، فإن مفردات اللغة تشكل أنساقاً تعود مفردات كل منها إلى بؤرة مضمونية واحدة .

ومن هنا كانت كبرى مشكلات البحث في التشكل اللغوي (المرتكز على أرضية انتربولوجية) هي اكتشاف الموحدات (الترابطات) الأعمق القائمة تحت الفروق الظاهرية التي تتوضح على سطح اللغة .

إن هذه الاشتقاقات أو الترابطات (تصح اللفظتان لأننا أمام ظاهرة التخارج المترابط) تتم بتغيير حرف من حروف الثلاثي (دون عينه في الغالب) ، فينتقل المعنى قليلا من برهة الى برهة أخرى تباين سابقتها من حيث المعنى ، ولكنها تشترك وإياها في بنية مضمونية واحدة ، أي في اتساق واحد .

ولكن ما سر انقطاع النسق الواحد ؟ أي : لماذا لا يستمر التشارك المضموني في كل أعضاء النسق الواحد ؟ لو أخذنا هذا النسق مثلا ، مستثنين الوحشي من مفرداته :

أسر . بسر . جسر . حسر . خسر . دسر . عسر . فسر . قسر . كسر . نسر . يسر .

أنستطيع أن نثبت أن مفرداته كافة ذات أرومة واحدة ، أم أن هنالك انقطاعاً في المعنى الواحد ، بحيث يحتوي النسق على عدة أشكال مضمونية ؟ ربما استطعنا أن نرد عجزنا عن تفسير الظاهرة إلى أحد أمرين :

أولهما أن النسق كان بالأصل أحادي المضمون ولكن التطور اللغوي هو الذي أوجد القطيعة بين مفرداته .

وثانيهما أن للغة أسراراً ما زلنا عاجزين عن سبرها . وهذا يعني أن الإمعان في التحليل هو ما يمكن أن يكشف عن استقامة النسق .

ترى ، لماذا أطلقت اللغة العربية اسم « المفردة » على الكلمة ؟ ألأنها تفرد من كل أنظومي منسق ومتسق دون أن تبتعد عنه كثيراً ، أي دون أن تخسر معناه الكلي ؟ ألأنها تنفرد عن نسقها بمعنى جزئي يرتبط بالمعنى الكلي ؟

° ° °

قلنا ان خصائص اللغة هي عين خصائص العقل ، لأن العقل يصوغ اللغة على هيئته ومثاله . فإذا كانت المرحلتان الأولى والثانية تعتمدان على حاسة السمع الحادة عند إنسان الغابة ، فإن التشكل اللغوي في المرحلتين اللاحقتين يعتمد على قوة التصور الخيالي ، وبالتالي على الذهن الذي تطور كثيراً بسبب من تطويره لأدواته ومجمل شرطه الإنتاجي وعلاقاته الاجتماعية . ونحن نفترض أن تحريم عشق المحارم هو الذي حرض العقل على انتهاج الرمزية ، أساس اللغة ، وبذلك أصبح العقل ذا قدرة على إنتاج الإشارات الرامزة إلى المعاني ، وانتاج المجازات ، وكذلك المفردات المعبرة عن السلوك الشهوي . ولا ريب أن هذا يعني فعالية اللاشعور في إنشاء اللغة ، الأمر الذي قد يفضي إلى القول بأن نظرية اللغة هي نظرية اللاشعور اللغوي .

إن العقل العربي الذي يرى في الأسماء اختزاناً للماهيات ، والذي يسحب الخواص من موضع إلى موضع آخر ليشكل المعنى الجديد ، والذي يكرر عين الفعل (لأنه أقوى حروفه) ليكرر العمل ، والذي يدل بالصوت على المعنى ، هذا العقل يتسم بالنسقية . إنه يرى الأشياء على نسق ، يراها في ترابطها الداخلي .

والعقل العربي مفرط الحساسية ، وإفراط الحساسية هي الفن عندي . إن حساسية مرهفة هي تلك التي تملك أن تميز الأحداث على هذا النحو (كالتمييز بين الخضم والقضم ، مثلا ، وكذلك التمييز بين الخضم والخضد ، أو بين القصم والفصم) . هذه الحساسية المفرطة أو المرهفة تعني ثلاث أطروحات هي في قلب فلسفة اللغة :

أولا — وحدة الداخلي والخارجي .
ثانياً — الموضوع والمفهوم في هوية واحدة .
ثالثاً — شفافية الواقع أمام العقل .

إن اللغة العربية حين تحلل تحليلا فلسفياً عميقاً وموسعاً سوف توجه ضربة قاصمة إلى المذهب القائل بأن العقل عاجز عن الإحاطة بالواقع أو عن استبار الظواهر التي لا يمكن أن ندرك جوهرها . ولسوف تثبت هذه الفلسفة أن اللفظة غالباً ما تكون مفهوماً من المفهومات . فليس صدفة أن يقوم العقل العربي بإطلاق اسم « الترف » على لين العيش . إن الترف ضعف ، وليس أدل على ذلك من وجود الفاء في آخر هذه اللفظة . وأكثر أحوال الفاء « أنها للوهن والضعف ونحوهما » على حد قول ابن جني . ولما كان الترف ضعفاً فقد توافق هذا المفهوم اللغوي ، المورروث عن البداثة والمتكون تكوناً لا شعورياً ، مع فهم ابن خلدون للترف بوصفه عامل انحلال المجتمعات وسقوط الممالك .

فإذا كانت المفهومات ألفاظاً فإن الألفاظ مفهومات .

واللغة العربية تسحب الخواص من موضع إلى موضع آخر لتشكل معنى جديداً لا يستطيع الموضع الأول أن يتصل به إلا من حيث هو أسه وتفسير لمعناه الطارىء ، ولنمثل على ذلك بقول ابن جني في « باب تلاقي المعاني ، على اختلاف الأصول والمباني » الوارد في الجزء الثاني من « الخصائص » : « ان الحاج شجر له شوك ، وما كانت هذه سبيله فهومتشبث بالأشياء ، فأي شيء مر عليه اعتاقه وتشبث به . فسميت الحاجة تشبيهاً بالشجرة ذات الشوك . أي أنا مقيم عليها ، متمسك بقضائها كهذه الشجرة في اجتذابها ما مر بها ، وقرب منها . » .

العلاقة بين الحاج والحاجة هي سمة التشبث والتمسك في الحالين . العقل ، إذن ، ينقل الماهية من الهنا إلى الهناك . فاللفظة ، إذن ، مفهوم ، وليست مجرد اصطلاح .

وهذا ما نجد صداه في الشعر العربي التراثي ، ولا سيما الجاهلي ، وعلى الأخص في شعر امرىء القيس . ففي المعلقة يقوم هذا الشاعر باستخلاص الخصوصيات الإيجابية وإسباغها على الموصوف في محاولة تنحو شطر ابتكار المثالي أو تعينه . إنه يشخص المثالي في العياني ومن جزئيات مستقاة من عيانات أخرى . يقول في المعلقة :

كبكر المقاناة البياض بصفرة   غذاها نمير الماء غير المحلل
وكشح لطيف كالجديل مخصر   وساق كأنبوب السقي المذلل

إن لون جلدها مأخوذ من امتزاج البياض بالصفرة . والخصر كالجديل والساق كأنبوب نبات طري . إن هذه الصفات محولة من مكان إلى آخر . والأمر عينه يمكن أن يقال بخصوص وصف امرىء القيس لحصان . ولا لزوم للدخول في كل هذه التفاصيل لأن ذلك موجود في تحليلنا لمعلقة امرىء القيس .

إذن ، بين الشعر واللغة صلة . إنهما تجليان لعقل واحد .

واللغة ، بوصفها دائرة مغلقة على ذاتها ، بمعنى أنها جسد هائل يولد جزئياته من داخله وفي داخله ، كما يولد الكبد الكريات الحمر ، تتوافق مع منزع العقل العربي نحو التوحيد ، توحيد الله في الاسلام ، وتوحيد الوجود في الصوفية ، وتوحيد الدولة بالخليفة .

كل هذا يدفع بنا إلى دراسة كيمياء العقل العربي في تجلياته المتنوعة . لقد استطاع ابن جني وابن فارس ، هذان العقلان الجدليان ، أن يريا اللغة في كيميائها ، في ترابطها ونموها ، وشاهد ابن خلدون المجتمعات في تفاعلها ، وشاهد الصوفيون الكون في ترابطه الداخلي . وقد أثبتت هذه الايقاعات الثقافية مجتمعة أن العقل العربي عقل جدلي قادر على رؤية التفاعل والنمو. ولكننا فقدنا الثقة بالعقل العربي إلى حد بعيد في هذه الأيام . علينا أن نعيد إلى هذا العقل كرامته وكبرياءه .

ومن الخطأ الانسياق وراء بعض المستشرقين الذين يحاولون اقناعنا بأن العقل العربي يتسم بالداخلية ، ويكتفون بذلك مهملين مقولة الخارجية . ان العقل العربي قادر على الموضوعية قدرة هائلة ، وان تشكل اللغة العربية لم يقم في أي يوم من الأيام بمعزل عن الخارجية ، بدليل أن المفردات العربية الحاملة لمفهومات وصور ذاتية ، والتي تشكلت في أرق مراحل تشكل اللغة ، جاءت مزيجاً من الخارجية والداخلية . ترى ، الا نشم رائحة المجتمع الرعوي العشائري، وبوجه خاص الصحراوي في المفردات التالية : القوم (من يقومون قومة واحدة) ، والقبيلة (من يقبلون دفعة واحدة ، أو يقاتلون الخصم مقابلة موحدة) والعشيرة والطائفة والفرقة والفئة والفصيلة والمورد والمصدر والبيئة والقصة والتقري والتحري .

لابد من وجود ترابط متين بين هذه المفهومات ، من جهة ، وبين التشكيلات الاجتماعية وشكل الانتاج الرعوي والطبيعة الصحراوية البدوي ، من جهة ثانية . إن الألفاظ الدالة على الرمز الاجتماعية ليست محض ذاتية ، بل هي موضوعية أيضاً . حقاً إن هذه التصورات تختزن حس الانتماء إلى جماعة ، مثلما تختزن القيمة البدوية الكبرى ، أعني الحفاظ على وحدة القبيلة وتراصها وانفصالها عن بقية الناس (الشعب أناس ينشعبون عن الناس معاً ، أو يسكنون في شعب واحد) . ولكن القبيلة (أو الشعب ... الخ .) هي الشكل الانتمائي الوحيد الذي تفرضه الصحراء . وبالتالي فان اللفظة تأتي تعبيراً عن واقعة موضوعية تمليها شروط موضوعية.

وبالمناسبة ، الا توحي لنا هذه الزمر الاجتماعية ، وكثرة الفاظها في العربية، بعلاقة ما بينها وبين زمر الاتساق اللفظية ؟

° ° °

ان الاستمرار والتواصل الصوري للأنساق اللغوية في العربية (وكذلك القيمة المفهومية للفظة ، وقدرة اللغة على نقل المعنى من موضع إلى آخر) ليست مجرد تصورات يبتكرها العقل وكفى ، بل هي سمات للوقائع يحيلها الوعي إلى مفهومات بعدما يجرد خصائصها بفعل قواه الذهنية . وهي في الوقت عينه علاقات ترى الوجود نسقاً متواصلا ومستمراً . بهذا أكد العقل العربي شموليته وكليته . انه لايستطيع أن يرى الشيء إلا ضمن نسق .

فالوعي اللغوي يلتقط ضرورة الإشياء في قلب وحدتها العضوية ، ويقبض على مفهوماته مبثوثة في التواصل القائم بين الموجودات . الوعي اللغوي ، إذن ، يدرك الموجودات في علاقاتها الداخلية بما يعمق ضرورتها ويؤكد وحدتها الحيوية ، كليتها التي تولد تفصيلاتها أو جزئياتها بانقسامات ترابطية تقع داخل المجمل دون أن تلغي تلاحمه ووحدته العضوية ، بل على النقيض من ذلك ، تتأكد هذه الوحدة وتتعضون عبر هذه الانقسامات المتولدة عن الكل الواحد ، لأن كل انقسام هو مجرد مضي من جزئية إلى جزئية أخرى تكملها ، ولأن تكامل الجزئيات بعضها ببعض هو عين هوية الكل أو الوحدة ، ان هذه الانقسامات ليست سوى اشتقاقات مستمرة نحو الوحدة أو المجمل . وتلكم هي كيمياء اللغة .

ولهذا كانت اللفظية العربية مشاركة وانفلاتاً من اسار المشاركة في آن معاً . فاللغة منظومة منفتحة ، أو شبكة واسعة من الانفتاحات والتواصلات التي تقوم عبر حركتها الخاصمة أو الداغمة بربط الجزئي في الكلي بواسطة خيوطها المطلقة التشعب . وبناء على فهم حركة الخضم والدغم هذه يمكننا أن ننمي اللغة ونطورها ونضيف اليها اليوم عدداً لاحصر له من الألفاظ ، وذلك بالصدور عن الألفاظ الوحشية التي لم تستعمل بعد والتي لم يقم أحد باحصائها بعد .

إذن ، هذه الانفتاحات ، هذه التشعبات ، تقبض على الكلي في امتلائه ونزوعه نحو الكمال ، وتقبض على الادراكات ، لا بوصفها خصائص الموجودات فحسب ، بل من حيث أن هذه الخصائص هي عين الادراكات . وبذلك تتوافق المفهومات مع جواهر الأشياء التي هي موضوعات هذه المفهومات . وهنا تتجلى وحدة الداخلي والخارجي في اللغة العربية . ان الجوهر الخارجي (جوهر الشيء خصوصيته) في هوية مع المفهوم ، أي أن العقل قد استل الشيء من داخله (أو استل « الشيء في ذاته » على حد تعبير كانط) والقى قبضته على كامل

تراثه . ان أية فلسفة صادقة وعميقة للغة العربية لابد لها من أن ترفض تقسيم كانط للظاهرة على أنها « الشيء والشيء في ذاته » . فالاستنتاف اللغوي من « العصا » إلى « العصيا ن » (مثلا) يعني أن العقل يدرك العصا بما هي وسيلة لمجابهة العصيان ، وهذا هو جوهرها فعلا ، خصوصيتها الملازمة لها . ههنا ، إذن ، يتم الانبثاق بالانتقال من الذاك إلى الهذا ، ولكن دون أن يتخلع الثاني عن الأول ، إذ بما هو انبثاق ، فإنه انبجاس ، تواصل ، استمرارية ، ولذا كان بالضرورة الغاء للانخلاع . وهذا يعني أن الوعي اللغوي العربي ، الذي هو في توافق مع وعي الموضوع ، لايمكن أن يتصور العصا خارج شرط المواجهة .

ما من صورة يسعها أن تتفلت من أسر الحركة الداغمة الخاصمة للاجزاء ، أنزع هذا المنزع على الرغم من أنني أعي عجزها الراهن عن تنسيق الألفاظ في خطوط متسقة ، ولكنني اعتمد على ثقتي المطلقة بنسقية العقل العربي . فالدغم ، دغم التصورات المتوافق مع دغم المفردات في فصائل ، هو السمة الجوهرية للغة العرب ، وبالتالي للعقل العربي .

* * *

بودي أن أختتم هذا البحث بالملاحظات التالية :

أولا – إذا أريد العقل العربي أن يتصدى للمعضلات التاريخية التي تعيق نمو الأمة فيجب أن نبعث فيه الروح الجدلية . وخير سبيل يفضي إلى هذا الغرض هو تأسيس فلسفة اللغةوتطويرها. وفلسفة اللغة هي تحليل الظواهر اللغوية وتعليلها ، لا الاكتفاء بملاحظتها وتبويبها .

ثانياً – في المعركة الراهنة التي يخوضها العقل العربي من أجل ولادته ، على الفكر أن يطرح الشعار التالي ويتبناه : علينا أن نسحب دراسة اللغة العربية من أيدي الأكاديميين الذين هم ليسوا الا جزءاً من واقع المموات الراهن . انهم يمثلون خطوة إلى الخلف بالنسبة إلى كلاسيكي فقه اللغة العربية . لم يزل ابن جني وابن فارس وسواهما أكثر تقدماً من كل الجامعات العربية في فهم اللغة ، على الرغم من مضي ألف سنة على وفاة كل من الرجلين .

ثالثاً – علينا أن نخلص العقل العربي من العنانة وعقدة الخصاء اللتين اكتسبهما عبر الانحطاط وأن نعيد إليه جوهره الكيميائي في التعامل مع الأشياء .

وأخيراً أود أن أوكد ما فحواه أن خصائص اللغة هي عين خصائص العقل ، ولذا يمكن فهم العقل عبر فهمهذهالخصائص . وهذا يعني أن تطوير اللغة هو تطوير للعقل أيضاً ، بل ان تطوير اللغة هو ، في آن معاً ، شرط ونتيجة لتطوير العقل .

* * *

فايز مقدسي

الاسلوب وجدلية اللغة العربية

الاسلوب ، وعلاقة اللغة بالروح :

.. يعني الأسلوب أن الروح العمومي للأمة تحدوه رغبة التعبير عن ذاته جمالياً ، أو عن نقطة مكثفة بلغها من مساحة ذاته . وهو أمر يعني أن يتحول الروح إلى رمز فيحتاج اللغة ضرورة وإلا ظل تصوراً مبهماً . حيث أن الرمز يحتاج دائماً إلى صيغة أبجدية يتشكل فيها ليكتسب صورته ووجوده وليتحول في التاريخ إلى معنى ، حيث أن التاريخ وبالتالي الحضارة ليسا سوى تحول الرمز الدائم إلى معنى .

فبدون الصيغة الأبجدية اذن لا يمكن الرمز أن يكته ولا أن يتحقق في الواقع كفعل . لأنه سوف يظل – ما دام دونما شكل – إيماء مبهماً في الفكر لا يمكنه التعبير لا عن هويته كإرادة ، ولا عن دلالته كحدث . وبالتالي فإن الروح يظل حبيس حدوده الذاتية إن لم يجد صيغة أبجدية تستوعب رغبته في التعبير عن ذاته جمالياً وتبين عنها . وهكذا فإن ظاهر الأمة لا يعود بوسعه ، بالتالي ، الاتصال أو استلهام تلك النقطة المكثفة من باطنه .

لذلك فالتوتر النفساني ، الذي يرافق عملية خلق الأسلوب ، يفسر ببحث الروح الدائم عن صيغة أبجدية ، وباحتياج الأبجدية بدورها إلى الروح .

لأنها ، أي الأبجدية ، بدون الروح ، تظل رمزاً جمالياً مغلقاً ما بوسعه التحول لا إلى معنى في التاريخ ولا إلى فعل في الواقع . ولأن الأبجدية حين تعبر ، بتحولها إلى معنى ، عن الحركة الباطنية لروح الأمة ، تكون قد عبرت عن ذاتها وحققت وجودها في وقت واحد .

وهكذا فعبر عملية خلق الأسلوب يتم اتحاد الروح باللغة من خلال إتحاد الرمز بالمعنى . وهو اتحاد يضحي فيما بعد آحدية تؤدي إلى الأسلوب الذي يؤدي بدوره إلى الحضارة ثم إلى التاريخ عبر ديمومية عملية الخلق .

فالروح يعبر عن ذاته باللغة . فاللغة إذن صيرورة الروح . أما الأسلوب فهو الشكل الجمالي الإبداعي الذي به تتجلى الصيرورة في الزمن والمكان .

والأمة عندئذ لا تدرك ذاتها إلا بالأسلوب . ونحن حين نصادف الأسلوب محققاً في التاريخ ونتعرف إليه ، بدرسنا خصائصه ، نكون في الحقيقة قد تعرفنا إلى شكل الروح العمومي أو إلى صيرورته في الزمن والمكان . أي أننا نعي امتداد هذا الروح في التاريخ . لأن تحول الروح باللغة إلى أسلوب هو أمر يشكل نقطة العمق من تاريخ الخليقة . حيث في لحظة التحول السالفة الذكر ، يتجدد دائماً خلق الأبجدية فتكفيء إلى وضعها القبلي كرمز — وهو ما سنشرحه في مكانه من هذا البحث —

ويعني ذلك أن اللغة تتجاوز ذاتها عن طريق تحولها من جديد إلى رمز بعد أن كانت قد تحولت إلى معنى . وبفضل هذا التجاوز الذي تقوم به اللغة ، مدفوعة بالحاسة الجمالية الإنسانية ، يتعمق وعي الروح العمومي لذاته ، ويتضخم حس الإنسان بانسانيته .

فالأسلوب إذن ليس سوى ذلك التجاوز والتعمق وقد استحالا من « حدث » إلى « رمز » لا يلبث بدوره أن يتحول إلى « معنى » .

والأمة تعي في الأسلوب صورتها كما هي في الباطن لا كما هي في الظاهر . لأن ما تعرفه الأمة عن صورة روحها في الظاهر إنما هو بعض انعكاسات صورة الباطن العمومية مضافاً إليها تشويش الخارج . أما الأسلوب فإنه بمثابة المرآة التي تعكس الصورة الخالصة لروح الأمة كما هو في كليته .

ويعني ذلك أن الأسلوب يغدو مرآة مصقولة إذا حدق فيها روح الأمة أبصر ذاته لا كما هي في اللحظة الآنية ، بل كما هي في دوامها التاريخي ، أي كما هي في لحظة من العلاقة الأبدية ما بين ماضي الأمة ومستقبلها .

ويتحول الأسلوب هنا إلى نقطة مركزية تستقطب اللحظة الديمومية الباطنة التي تخلق أسس الحضارة الروحية في الأمة ، والتي تحفظ الطاقة الخلاقة فيها . حيث يفيض ، عبر الأسلوب ، الروح العمومي للأمة على اللغة ، وتتابع اللغة ، باعتبارها باطن الأمة وحارس تاريخها الثقافي والروحي ، فعل الخلق الدائم . عندئذ وفي الأسلوب تتقدم الأمة ، وقد وعى روحها ذاته ، في عمق الحضارة .

لهذا نجد أن الأسلوب ليس بالظاهرة التي تتكرر كل يوم . إنه ، وبكلمة واحدة ، ظاهرة لا تتمنهج . أي أنه لا يخضع لقانون التطور الطبيعي بقدر ما يتوافق وظاهرة الطفرة الغامضة الأسباب والتي تغير من شكل الجغرافيا أكثر مما يغيره قانون التطور الطبيعي .

إن مجيء الأسلوب يخضع في طبيعته لإختلاج الروح العمومي حيث كل شعب من الشعوب يطمح على نحو غامض إلى التعبير عن ذاته جمالياً من حين إلى حين . وهو أمر يؤدي عبر التاريخإلى الأسلوب ، أي أن هاجس الجماعة العمومي المبهم ينقلب إلى رؤيا جمالية تداهم الفرد المبدع الذي يستحضر ، في روحه ، الروح العام لشعبه ثم في الأسلوب يتحول هذا الاستحضار الغامض إلى استحضار معلوم وجمالي .

لأن الفرد المبدع يقوم أثناء عملية الخلق بفعل تصوري ، أي أنه بقوة التخيل يحاول ربط المرئي بالخفي ؛ فهو يعمل وفي باطنه تصور جمالي يطمح الروح العمومي من خلاله إلى التعبير عن ذاته . فالروح يمنح الإيحاء ، واللغة تصوغه رمزاً ، والتاريخ يحوله إلى معنى يحيله البشر بدورهم إلى حضارة تتحول بدورها ، بفعل الزمن ، إلى تراث أو تاريخ يعاد استلهامه في عملية مماثلة لا نهاية لها تصل أول الكون بآخره فتصيره دائرياً ، وتربط الفرد بروح أمته ، والأمة بالإنسانية جمعاء ربطاً عضوياً يرتفع من خلاله الكائن من مستواه الإنساني إلى مستواه الكوني على الصعيد الجمالي .

فإن حدث وجاء الأسلوب في التاريخ فإنه ينقض . فهو يأتي مصحوباً بالرعب ، بالمعنى المجازي ، حيث فيه يتمثل الصراع الجدلي لحظة التحول التي تداهم وظائف اللغة فتنقلب من قدرة حافظة إلى قدرة هدامة ، وفي آن واحد إلى قدرة مطورة . لأن اللغة ، كقدرة هدامة ، تقوم بوظيفتها التطورية في ذات الوقت الذي تمارس فيه دورها التهديمي .

والأسلوب في الحق لا ينقض بقدر ما يعمق من ارتباط الماضي بالمستقبل ، أو أنه

يضيف إلى الماضي جزءاً من المستقبل . لأنه إن نقض كلياً ما سبقه من أساليب لوجدت الأمة ذاتها منفصمة الشخصية ، غير قادرة على وعي تاريخها ،فالأسلوب يتصف بالصفة التخريبية لأنه يمثل أمراً تطورياً يمثل بدوره طفرات الروح في حركته ، وحيث أنه لا يمكن للروح أن يكف عن الارتقاء ، بالمعنى الحركي ، لأنه إن كف هرم في ذاته واضمحل فيحدث نتيجة لذلك ما نسميه بانهدام الحضارات . فالروح إذن يحتاج أن يهدم ذاته ليتوسع ، وفي جوهر ذاته تكمن القدرة المثلثة التي رأينا أن اللغة تتصف بها : الهدم والمحافظة والبناء .

لذلك يماثل الأسلوب الروح واللغة ، باعتباره كما سبق صورة أحديهما ، فيكتسب صورة الإله الهندوسي المثلث القوة،والذي هو براهما Brahma من حيث كونه خالقاً ، وفيشنو Vichnou من حيث كونه حافظاً ، وسيفا Civa من حيث كونه مهدماً .

فاللغة إذن تتراءى في وقت واحد كقدرة حافظة للفكر حين تتحول ، عبر الأسلوب ، إلى بناء ثقافي روحي في تاريخ الأمة وثم في تاريخ البشر . وكقدرة مطورة للغة حين تهدم ما سبقها حيث أنها لا تكف عن تجاوز ذاتها ، حين يتطلب منها الروح صيغة تجسده ، في محاولة دائمة للامتداد في المستقبل . والاسلوب هنا ما هو إلا اللغة حين تداهم المجهول فتحيله معلوماً .

وكما أن الروح لا يمكنه الكف عن الحركة التي تتمثل مظاهرها في القدرة المثلثة السالفة الذكر التي تسمي وظائف اللغة ، فان الاسلوب أيضاً باعتباره صورة الروح لايستطيع أن ينتظم في قاعدة . لأنه إن حدث وانتظم في قاعدة لكف عن الحركة وهرم هو الآخر في ذاتهفيضيع بذلك امتداد روح الأمة العمومي وتنقطع وشائجه مع المستقبل ، فلا يمكن بعدئذ لتلك الأمة أن تعي حضورها إلا في الماضي فتفقد بذلك بعدها الزمني المستقبلي الذي يجسد حيويتها الخلاقة ، فتتلاشى فلا يبقى إلا الخواء مع الزمن ، لأن الماضي سوف يغدو انقطاعاً زمنياً لا ينضاف إليه المستقبل من خلال الحاضر الوهمي . ونقول الوهمي لأن الزمن الحاضر لاوجود حقيقي له . كونه لايمثل لحظة الدوام الحقيقي وكونه لايشكل سوى ذلك الانتقال الدائم من ما كان إلى ما سيكون فالحاضر هنا هو بمثابة عمق زمني تصوري يتيح لنا فقط ملاحظة ذلك الانتقال الدائم الذي يتحول من خلاله الزمان المستقبل إلى زمن ماض .

وهكذا يستحيل الماضي شيئاً فشيئاً إلى انقطاع زمني – كما قلنا – لايتفاعل مع الحركة في الزمن فيتفسخ ويدركه العطب . وحين يصل الاسلوب إلى هذه الحالة من الهرم لكونه يعجز عن بعث ذاته حياً – كالعنقاء – في كل مرة يموت فيها ، فان اللغة تفقد قدرتها على ممارسة قدراتها المثلثة وتتحول من صيغة ابداعية تعمق معنى التاريخ ومعنى الوجود الإنساني،

إلى صيغة كلامية جامدة ومتقعية. حيث أن اللغة في محاولة تعبيرها عن الروح تتحول إلى اسلوب – كما سبق لنا القول – حيث يمكن للأبجدية أن تكون رمزاً ومعنى في آن واحد لأن الاسلوب كما ورد في صدر هذا البحث هو احدية الرمز والمعنى. فإذا حدث ولم تتحول اللغة إلى اسلوب فإنها تنحط إلى الحالة التي نوهنا عنها آنفاً. أي تلك الصيغة الكلامية الجامدة المتقعية. وهي اللغة في وضيعة انفصام ما بين الرمز والمعنى، وهي حالة تحس الأمة من خلالها بانفصام نفساني في وحدة شخصية روحها العمومي وتولد آثاراً إبداعية ممسوخة وهجينة.

لأن الأمة، حين تستخدم اللغة وقد تحولت إلى صيغة كلامية كالتي سبق وصفها، تقف إزاء حالتين للاستعمال: فاما أن تتناول الرمز فينقصها المعنى فلا تتحقق في التاريخ فتفقد واقعيتها. وإما أن تتناول المعنى فينقصها الرمز فلا تتحقق في الخلق فتفقد حيويتها. وهي في كلتا الحالتين عرضة للضياع.

لأن اللغة كاسلوب تجد ذاتها وجهاً لوجه إزاء التاريخ العام. فهي تحاول خلقه من حيث هي رمز لم يكتمل بعد. وتنضوي فيه كمساهمة في بنائه باعتبارها معنى له دلالته. وتتجاوزه في آن واحد لكونها ككلمة إنما تطمح إلى الانفلات من التاريخ باتجاه فعل الخلق الدائم الذي يمثل الجانب التهديمي من الاسلوب.

لذلك فان الأمة حين تتناول اللغة وقد انتظمت في اسلوب يحتوي الرمز والمعنى ويوحدهما، فانها، أي الأمة، تلائم في هذه الحال ما بين الرمز والمعنى وتجعل منهما ومنها، في الاسلوب، « حرفاً مشدداً »(١).

وبهذا المعنى المغيب في « الحرف المشدد » تحقق الأمة ذاتها في التاريخ كواقع تمده الحيوية بالطاقة فلاينقلب ثباتاً عقيماً، وفي الخلق كحيوية يسندها الواقع فلا تنقلب بدورها إلى تصور عدمي أو خالص.

وفي التحقق في التاريخ كواقع، وفي الخلق كحيوية، تكون اللغة من خلال تحققها هي

---

(١) « الحرف المشدد حرفان مبطون أحدهما في الآخر » ترجمان الأشواق – محيي الدين ابن عربي.

الاخرى في أسلوب قد باتت محورها الذاتي الذي نستطيع بواسطتهأن نميز صفة الروح وصفة حضارتها . لأن الحضارة كما قلنا ليست في معناها العميق سوىنتيجة للتحول الدائم الذي يداهم الرمز الأبجدي فيحيله إلى معنى في الزمن . وهي عملية تخلقالتاريخ وتحدد اسس الواقع . حيث أن تحول الرمز إلى معنى يعني بشكل ما تسمية المبهم وتحويله إلى معلوم وإدخاله بعدئذ في نطاق الواقع ، أي في نطاق الوعي البشري الذي يحوله فيما بعد إلى تاريخ .

لذلك فليس هناك من تاريخ دون واقع ، ولا واقع دون تسمية ، ولاتسمية دون لغة ، ولا لغه دون روح ، أي دون وعي إنساني . وكلواحد من أولئك يحتاج إلى الآخر . فهم بمثابة آحدية خالصة نتيجتها الحضارة ، ورمزها « الحرف المشدد » .

ويتكون التاريخ من هذا المنحى اللغوي يمكن ، فيما بعد ، رصد حضارة إنسانية . حيث أن الحضارة ما هي إلا ذلك التراكم المستمر لحركة الروح المعبر عنها باللغة عبر الزمن . أي عبر التاريخ .

وحين تكمل اللغة دورها التاريخي في تبيان اختلاج الروح من خلال قيامها بتحويل المجهول إلى معلوم عن طريق تسميته – وهي العملية التي من خلالها يبنى الواقع ويتوسع ويتحدد في الوعي – فإنها ، أي اللغة ، لاتلبث أن تنفصل عن موضوعها مخلفة حقبها الزمني إلى حقبها التاريخي الأبدي . فتتحول بذلك من صيغة بيانية إلى صيغة جمالية . وهو انتقال تقوم به اللغة لتعيد تحويل كيانها البنائي من معنى إلى رمز بعد أن كانت قد تحولت من رمز إلى معنى لتحقق إقامة الروح في التاريخ كحدث واقعي .

فإذا ماأنجزت مهمتها هذه ، عادت فتحولت من معنى إلى رمز – كما سبق – وهو تحول لايعني أن اللغة حين تتحول إلى رمز تترك المعنى كصيغة مطلقة في التاريخ . إنما يعني أن اللغة تتحول إلى معنى فتحقق التاريخ بإحالتها المبهم إلى معلوم . ثم لاتلبث أن تتجاوز المعنى الذي حملت به عن طريق تحولها إلى صيغة جمالية كما رأينا . أي أنها تسمي المجهول فتحيله إلى معلوم فتدخله بذلك حيز الواقع ، ليتضاف ذلك الشيء إلى التاريخ كشيء مسمى ، أي كمعنى . وهذا هو معنى قول – النفري – في مواقفه : « اذهب عن الأسماء ، تذهب عن المعاني . » .

ثم إن الاسم لا يلبث أن يتجاوز ما يسميه فيغدو من خلال الاستعمال الأسلوبي الأدبي كلمة خالصةتلوحوكأنهاقد انفصلت عن ما كانت تسميه . أي أنها تغدو جمالا مطلقاً يكتسب

قيمته من وقع الكلمة كلفظ منغم ضمن إيقاعها اللفظي ، ومن خلال موسيقاها الصوتية السماعية ، وعبر صورتها الكتابية ، متصلة بالمعنى أو منفصلة عنه ، وحيدة أو مع غيرها من الكلم . فاما عبر الكلمة واما عبر الجملة واما من خلال النص .

وتشكل هذه العملية ، التي لعل علم تطور دلالات الألفاظ ينضوي تحت لوائها ، الأسس الرئيسية لعلم الجمال الأسلوبي . وان كلا منا يستطيع اختبار القيمة الجمالية الصوتية للغة بأن يأخذ كلمة ما ويثابر على لفظها لبعض الوقت ولسوف تنتهي التجربة بأن تفقد الكلمة معناها وتتحول في الوعي إلى صوت أو إلى مجموعة من الأصوات المطلقة غير ذات دلالة . وهي بالمناسبة عملية تعتمدها ضروب السحر المتعددة . ويلجأ اليها السحر أحياناً – للوصول إلى الغاية ذاتها – إلى ما يسمونه بالقراءة المقلوبة ، أي أن تبدأ قراءة نص ما من نهايته إلى بدايته كما في أصناف السحر الأسود . وذلك كله يهدف إلى تحرير اللفظة من المعنى المحملة به ، حيث يعتقد المبدأ السحري أن ذلك يساهم في منح اللغة قوة غامضة استثنائية .

إن عملية مشابهة للعملية السحرية السالفة الذكر ، تتمثل في تحول اللغة العكسي من معنى إلى رمز ، أي من نهاية إلى بداية. نقول إن عملية مشابهة تساهم في تكوين ما يمكن تسميته بعلم جمال الصيغة اللغوية كما تساهم في تطور هذه الصيغة .

ونجد أن ذلك التحول العكسي انما هو ضرورة تلجأ إليها اللغة أولا لخلق علم الجمال ، وثانياً لأنها إن لم تقم بتحولها هذا لاستمرت في وضعها كمعنى على نحو دائم فاقدة بذلك وجودها كرمز فلا يعود للأسلوب من وجود طالما أنه لا يتحقق – كما رأينا – إلا من اجتماع الرمز والمعنى باعتباره أحديهما . وبالتالي فلن يعود بوسع اللغة – بواسطة تحولها من رمز إلى معنى – أن تعبر عن رغبة جديدة تداهم الروح في تبيان ذاته جمالياً .

وعدا عن أن هذا التحول العكسي المستمر للغة يؤدي إلى علم جمال الصيغة وتطور دلالات الألفاظ ، ويخلق الأسلوب على فترات تاريخية ، فإنه يمثل في الوقت ذاته حنين اللغة أيضاً وقد انضوت في معنى – من خلال انضواء الحروف في كلمة – إلى وضعها الأبجدي ، أي حالها في الحرية المطلقة كحروف ، ضمن الأبجدية ، ذات دلالة صوتية . وهي الحرية ذاتها التي يحن إليها الروح حين يدمر أسلوباً ليخلق آخر . فكما تحن اللغة إلى ما وصفناه بالوضع الأبجدي ، فإن الروح يحن إلى ما يمكن وصفه بالوضع الإيمائي للروح ، أي حاله في ماقبل المعنى .

وبمعنى عام فهذا الحنين هو حنين جميع ما هو مسمى إلى فقدان اسمه والعودة إلى حال ما قبل التسمية ، أي إلى حال المجهول أو إلى كلية الكون كشاركة عضوية آحدية عمومية . ونلاحظ هنا أن الوضع الأبجدي يكتسب سمات صوفية حتى أنه يصح نعته، بمعنى من المعاني، بالوضع الصوفي . فما هو اذن هذا الوضع الصوفي الذي تحن إليه اللغة كما يحن إليه الروح ؟

وتتلخص الإجابة في أننا حين نسمي الشيء غير المسمى بعد ، أي المجهول ، فنحيله معلوماً بواسطة تسميته فإننا نسلخه بذلك من حاله في الأصل ، أي عن غيره مما لم يسم بعد وندخله في عالم المسميات الغريب عنه . فهو بحنينه إلى وضعه الأبجدي أو الصوفي إنما يحن إلى محيطه الأول وإلى ما انسلخ عنه ، أي ، إلى اللامسمى . لأن كل شكل إذا انتهى حن إلى نقطة بدئه . وفي ذلك قال الشيخ الأكبر : « ... ان العالم لما كان اكري الشكل حن الإنسان في نهايته إلى بدايته . » (١)

خاصية اللغة العربية :

ومن ذلك أيضاً أن الروح الشرقي العربي قد تمثل خاصية هائلة في الحنين جسدتها تلك النزعة الطوطمية ، أي الشوق الدائم إلى الماضي ، وهي خاصية داهمت اللغة باعتبارها لا تنفصم عن وضعية الروح وطغت على قالب الصياغة فاستحوذت على الأسلوب في فترة ما قبل الإسلام ثم تحولت إلى تقليد شعري تمثل في البكاء على الأطلال – التي تمثل الماضي – في افتتاحية كل قصيدة عموماً .

فإذا ربطنا هذه الظاهرة الطوطمية باللغة العربية وقواعدها وجدنا لها آثاراً تتجلى في الزمن الماضي للفعل في اللغة العربية . فنلاحظ أن الفعل الماضي لا يتحدد في أزمان ماضية تحدد بعد هذا الماضي أو قربه بل تتركه مطلقاً بحيث أننا نحتاج ، إن صح القول ، إلى جملة في بعض الأحيان كي نستطيع تحديد عمق الماضي كزمن لوقوع حدث من الحوادث .

وحنين اللغة إلى ما سميناه بالوضع الأبجدي الذي يجسد حالة الحرية المطلقة والأحدية الكونية ، ويلعب دوره الحيوي في عملية ارتقاء دلالات الألفاظ ، وهو الحنين الذي سبق لنا وصفه بالوضع الصوفي ، يتمثل كأفضل ما يكون في رموز الألفاظ ودلالاتها اللغوية في صيغة اللغة العربية باعتبارها بمثابة شبه استحضار عمومي للغات السامية الأخرى ، وباعتبار أن

---

(١) الفتوحات المكية محيي الدين ابن عربي .

علاقة هذه اللغة بالمكان أكسبتها ميزتها الجدلية في تسمية الأشياء ، وفي تحديد ولا تحديد المسمى في وقت واحد . وهي ظاهرة نستلتج منها أن اللغة العربية تمتلك قدرة تجاوز ذاتها على نحو دائم وعجائبي . فهي في آن واحد ، لغة مكتملة ولغة في طور التكوين . إنها تجمع الحياة والموت في قبضة واحدة ، فتستعصي على المنطق ؛ وتفرق ما بينهما في آن ، فتلوح عصية على اللامنطق أيضاً .. لا الحلم ينتظمها ولا الواقع !

ونرى في جملة حنين الروح الشرقي العربي إلى الوضع الأبجدي كما يجسده تطور اللفظة من الرمز إلى المعنى إلى الواقع ثم إلى اللفظة في ذاتها .. أقول – نرى في جملة ذلك كله حنين الروح – منضوياً في اللغة أو في الرموز – إلى الحرية المطلقة . وهو حنين قاده إلى إيجاد = الصفر = في عالم العدد . وهو اختراع كان بمثابة نقلة كبيرة حولت التاريخ الإنساني من المتناهي إلى اللامتناهي ، ووضعت في وعي المربوب قدرة الرب . فطورت من وعي الخيال لذاته ووسعت من مجال نشاطه . لأن المتناهي واللامتناهي هما معنيان يتجسدان في الصفر الذي هو بدوره بداية الأعداد ونهايتها من جانب ، ولا تناهيها من جانب آخر . إن حنين اللغة إلى وضعها الأبجدي يتمثل أيضاً في الصفر الذي يجسد بدوره حنين العدد إلى وضعه السلفي ، أي الماضي وهو الصفر . وحنين العدد إلى وضعه اللامكتوه ، أي المستقبل وهو أيضاً الصفر . باعتبار الصفر بداية العدد ونهايته ، وباعتباره يجسد في تاريخ التخيل البشري توق الأشياء إن إلى بدئها وإن إلى نهايتها وإن إلى خلودها وتسرمدها فلا بعد الصفر شيء ولا قبله شيء لأنه ذاته « لا شيء » . إن العقل يتحطم على صخرة الصفر .

حيث أن اختراع الصفر أتاح للمخيلة البشرية لأول مرة في تاريخ نشاطها أن تتأمل وأن تتخيل على شكل منهجي : مفهوم اللامتناهي . إذ بالصفر – الذي هو القيمة المطلقة – خرجت كلمة اللامتناهي من مدلولها اللفظي ودخلت في مدلولها الواقعي أو الممكن . وهو أمر أتاح للتاريخ الإنساني طفرة عظيمة ، وعمقاً في وعي الكائن مفهوم الألوهة . وهو ما نراه في ماهية النقطة عند الصوفية .

لهذا نجد أن اللغة العربية تتسرب من المحدود الزمني إلى المفلوت المطلق . لا الزمان .. بل الأبدية .

ولذلك أيضاً تمكنت العربية من أن تمثل في اللفظة الواحدة، كما سوف نرى ، مفهومين ودلالتين . إنها كروحها تلبست عجائبية الصفر فعبرت في كلمة واحدة عن النقيضين . وهو ما سنأتي على درسه .

اللغة والمكان :

فنلاحظ أول ما نلاحظ تلك العلاقة الغريبة ما بين الروح الشرقي العربي وما بين المكان . وهي العلاقة التي ما لبثت أن انعكست على اللغة العربية .

ونقول عموماً ان الصحراء – كمكان بالمفهوم الجغرافي – لعبت دوراً سحرياً في إغناء اللغة العربية وبالتالي في إغناء الروح . ونستطيع أن نرد أسباب ذلك إلى عوامل المناخ ومنها الريح التي تهب على الصحراء فتنقل الرمال وتطايرها مغيرة بذلك من صفات الأشياء والأماكن والأحجام على نحو شبه دائم بحيث يفقد الشيء صورته في كل مرة ، وبحيث أنه ما من ثبات أبدي للشكل في الصحراء . فكل شيء عرضة للتغير والتبدل . حتى أن الصحراء ذاتها التي مثلت لساكنها نقطة العالم ، تحولت في نظره إلى رمز أو إلى أمثولة ميتافيزيقية وعى الموت وبقية الغوامض الاخرى من خلالها وعياً أدى بالروح العربي إلى اختراع دلالته اللغوية فقال :

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل »

حيث أن المكان بتفاعله مع اللغة قاد الوعي دفعة واحدة وللمرة الأولى في التاريخ إلى العبث وإلى الألوهة ، ثم من العبث إلى الألوهة .

ونرى من جانب آخر أن أمثولة الصحراء الميتافيزيقية عن بطلان الأشياء ، قد أجبرت الروح العربي على تسمية المرئيات دونما نهاية ، حيث في كل لحظة ثمة ولادة لشكل في الصحراء وتبدل أو تغير أو انقراض لشكل آخر على نحو كلي أو جزئي . واللغة وجدت نفسها هنا ، كأبجدية ، إزاء اضطرار غير منطقي – يماثل لا منطقية الصحراء – على تسمية ما ينبثق وما ينصرم ، وعلى إعادة تسمية الشكل المسمى من قبل فيها إذا أصابه نقص أو زيادة فلحقه التغير ، مما أدى لغوياً إلى تعدد أسماء الشيء الواحد ، وإلى تطور لفظي عجيب الشأن رفع من شأن علم جمال الألفاظ التي تجاوزت المعنى والدلالة ، كقيمة ذاتية ، إلى جمال النطق وغنى التعبير عن المفهوم الواحد بالمدلولات اللفظية المتعددة ، أو عن المفهومين المتعاكسين بمدلول لفظي واحد . إن اللغة هنا وصلت إلى العبث الجمالي وإلى الألوهة الجمالية في زمن واحد ثم تحولت وأضحت افتتاناً بالبيان .

ولكننا نجد أن الروح ما لبث أن تجاوز أمثولة المكان بواسطة اللغة التي ورثت خصب الروح وقدرته على التجاوز فأعادت صوغ قيمة المكان – بواسطة الرمز – حين سمته . لأن اللغة – كما سبق القول – حين تسمي الشيء تتجاوزه كمجهول وتحيله في التاريخ إلى معلوم

مدخلة إياه حيز الواقع . وبواسطة تسمية الموجودات التي تؤلف بمجموعها المكان ، يكتسب المكان كيانه باعتباره لم تحدد وتحول من مجهول إلى معلوم . وما أن تحدد اللغة المكان حتى تكون قد تجاوزته .

إن المكان يكتسب ولا شك غناه من ذاته وبذاته كوجود ذي ماهية . لكن لو أن الروح ما استطاع استيعاب ذلك ، لظل غنى المكان عبثاً مطلقاً ، أو أمثولة ميتافيزقية عن العبث .. هي ريح تهب ورمال تتطاير .. صورة عن بطلان الأشياء ولا غير ! إنما الروح فاض بخصبه على اللغة التي استطاعت - كونها أبجدية غير محدودة - مجاراة اتساع المكان حين سمته . بل إنها وسعت من حجمه رمزياً بخلقها الدائم للأسماء .

اللغة إذن تعيد بمعنى آخر خلق المكان أو الواقع بواسطة تسميته . لأننا قبل أن نسمي الأشياء تظل مجهولة ، أما حين نسميها فاننا لا نحيلها معلومة وحسب ، بل إننا نهب الواقع إدراكه لذاته أيضاً .

ونجد أن اللغة العربية لم تكتف بتسمية مكان عصي على التسمية كالصحراء وحسب ، بل أنها شطحت فجاوزت وسعه غير المنطقي مكتسبة صفة الحلولية الصوفية .

ويمكننا من خلال تحليل اللغة استيعاب هذه الصفة الجدلية ، وكيف أن الكلمة الواحدة تحتوي على معنيين ، أو الإسم الواحد وكيف يسمي النقيضين . ونحن بهذا التحليل إنما نستقصي الأبعاد الجمالية للأسلوب وعلاقته بالروح .

- الصفة الجدلية :

فنرى أول ما نرى وعلى نحو عابر أشبه بالإشارة أن الفرق القائم بين الاسم « الرحيم » ، وهو واحد من أسماء الألوهة . والاسم « الرجيم » ، وهو نعت يطلق على الشيطان نقيض الألوهة .. نرى أن هذا الفرق يتحدد فقط في - نقطة - .

لأننا لو حذفنا النقطة التي تحت حرف « الجيم » في كلمة « الرجيم » لانعدم الفرق بين الإسمين ولدلا على شخص واحد متماثل بذاته وصفاته وأسمائه . وإن شئنا أضفنا النقطة ذاتها إلى حرف « الحاء » في كلمة « الرحيم » فنحظى بالنتيجة ذاتها .

فان قال أحدنا : إن هذا يصادف الكثير من الكلم في العديد من اللغات . قلنا له : صحيح . إنما الأمر كما أوردناه يخص لفظتين تخصان بدورهما مفهوم الألوهة ونقيضها .

أي مقولة انتظمت تاريخ الفكر الديني والفلسفي وقامت عليها ثنائية الخير والشر في الفلسفة منذ أمد وحتى حين . فلا يمكن إذن أن يكون تقارباً عفوياً وقع بمحض الصدفة أو نتيجة لاتفاق عرضي . بل هو تمثل لشطح العبقرية الخلاقة للغة العربية حيث في حنينها إلى الوضع الأبجدي وصلت إلى حرية مذهلة أتاحت لها أن تسمي الشيء فتتحول إلى مدلول لفظي محمل بمعنى ، ثم أن تتجاوز ذلك بتسميتها أيضاً نقيض المسمى الأول فتصل بذلك إلى مدلول لفظي متعال ينتقل بها إلى حالة رمزية تعوض عن الوضع الأبجدي السالف الذكر .

فإن احتج محتج ورمى هذه الجمالية بالعبث ، ذكرناه أن اللغة العربية وعت العبث والألوهة دفعة واحدة كما أسلفنا . وان الجمالية الأسلوبية تتضمن دائماً حسا هارمونياً وان الحس الجمالي يتضمن بدوره حساً توحيدياً . وهو معنى شائك يشرحه ويجليه النص الصوفي.

ولكي نخرج من مجال الصدفة والاتفاق الذي يحدث أن يصادف كلمة ما ، نورد اسماً آخر يؤدي بنا تحليله إلى النتيجة ذاتها التي سبقت . أي تسمية الألوهة ونقيضها . .ولكن هذا الاسم « ابليس » وهو نعت شيطاني أيضاً . فنجد ، إذا ما حللنا حروفه ، انه يحتوي معناه على ذاته ككلمة ، وفي تركيبه الأبجدي وفي مدلوله اللفظي أيضاً حين ينفي الالوهة عن طريق ذكرها . والنفي كما نعلم هو دائماً إثبات .

ونبدأ بتجزئة الكلمة فنأخذ من الكلمة « ابليس » الألف والباء فتتشكل لدينا كلمة « اب » وهي كلمة إذا أخذنا مدلولها الرمزي ومسقطها الأصلي وجدنا انها تدل على الله باعتباره أصل الخليقة وموجدها بالفعل وبالقوة . ويتبقى لنا من مجموع أحرف الكلمة الأصلية : « ليس » بعد أن حذفنا الألف والباء . و « ليس » في اللغة العربية هي نفي الوجود كما هو معروف . وأصل كلمة « أيس » أي الوجود . والعرب لاتستعمل الكلمة إلا مسبوقة بحرف النفي « لا » فجرت العادة أن نقول « ليس » بمعنى نفي الوجود . فيصير معنى كلمة « ابليس » اذن : الأب أو الله ليس موجوداً . » وهو معنى ينفي الألوهة ، أو في أبسط حال يعارضها . وهو حال يتولد منه المعنى النقيض ، أي الشيطان . لكن هذه الكلمة تحتوي معنى الالوهة أيضاً حين تنفيها . فنجد ان من نفي مفهوم نثبت آخر ، والعكس صحيح . وان الأسم الواحد يحتوي على المسمين في وضع نفي كل منهما للآخر عبر علاقة جدلية فريدة هي احدى ميزات الروح العربي الشرقي على وجه العموم الذي يستطيع دائماً بخاصية لغته ان يوفق بين المتناقضات فيسميها ويدل عليها بلفظة واحدة فيقول : « جيم جنة وجيم جحيم . » (١) أو يجمع في الصيغة

(١) المواقف والمخاطبات للنفري . تحقيق آربري .

اللغوية الواحدة الاثبات والنفي كما في قولنا : « لا إله إلا الله . » فالمقطع الأول « لا إله » هو نفي . بينما المقطع الثاني : « إلا الله . » هو إثبات (٢)

ومن ذلك انه قيل للشبلي : « لماذا تقول الله ولا تقول : لا إله إلا الله . » قال : استحي أن أوجه إثباتاً بعد نفي وأخشى ان أوخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار . »(٣).

فلما كان الاسم كما سبق يحدد الواقع باحالته المجهول إلى معلوم ، فإن اللغة العربية بخاصتها السالفة الذكر تصعد الوجود إلى حالة هارمونية آحدية يتلاءم علم الجمال وإياها . وتجربة التصعيد هذه نصادفها منضوية في عملية التطور الدائمة التي يمارسها الروح العمومي ، والتي يبينها جمالياً – كما قلنا – الاسلوب ، والتي بدونها تضمحل الأمة .

ونجد ضرورة ان كل ارتقاء يصادف الروح يرافقه تحول في الاسلوب . ويصح العكس أيضاً . أي اننا نحظى بتوسع في مجال علم الجمال اللغوي والعام في كل نقطة محورية من ذاته يرتقي إليها الروح في عملية صنعه الحضارة أثناء بنائه التاريخ .

لأن الأمة بدون تاريخ لاتوجد ، حيث أنها تفقد هويتها وتلازمها العضوي الذي قلنا إنه بمثابة تصعيد هارموني الوجود ، والتقال بالمخلوق إلى الخالق في عودة من النهاية إلى البداية ، أو من الكلمة إلى الأبجدية حسب مصطلحات بحثنا هذا .

– . . الروح والأسلوب . .

ونأخذ على سبيل المثال تصعيد الروح العربي لذاته من الوثن إلى الألوهة فنلاحظ ان ذلك التصعيد كان مرافقاً بتحول لغوي أدى إلى تغير أو توسيع مجال علم الجمال الذي كان سائداً في فترة ما قبل الإسلام والمتمثل في الصيغة النظمية الشعرية المعروفة ، وبدله بعلم جمال جديد بينه الأسلوب الجديد الذي تمثل بالصيغة النثرية التي انتظمت النصوص القرآنية عامة . ويمكننا هنا ان نرصد تحولا ذا شأن عجيب داهم الأسلوب فنقله نقلة واحدة من النظم إلى النثر في تصعيد إلى الشعر . أي من حالة لغوية أقرب إلى الانضواء في كلمة ، إلى حالة لغوية أشبه بالحرية الأبجدية التي رأينا ان اللغة تنزع إليها دائماً . وهو ما سميناه حنين النهاية إلى البداية

(٢) انظر كتاب :

"Les Arabes ou Le Baptéme Des Larmes" Michel Hayek
Textes Inédits Des Mystidues Musulmans ··· - Massignon

ومثلنا عليه بقول ابن عربي : « ... ان العالم لما كان اكري الشكل حن الانسان في نهايته إلى بدايته . » .

كما يمكننا ايضاً ان نرصد في تحولات الروح العربي من الوثن إلى الألوهة ، وفي تحولات الاسلوب من النظم إلى النثر الشعري ، عملية التحول الدائمة للغة من الرمز إلى المعنى ومن المعنى إلى الرمز على نحو حيوي وحركي .

ونحلل الظاهرة السابقة ، أي تحول الروح والاسلوب من الوثن إلى الألوهة ، ومن النظم إلى النثر ، فنقول ان الروح العربي في فترة ما قبل الإسلام – دون ان نعمم – كان يتموضع في شبه الوهة محدودة تتمثل رموزها في عمق ظاهري باعتبارها ألوهة مرئية ومحسوسة ومتفعية . لذلك كان الاسلوب يتلاءم ووضع الروح ، لما حدث ان تعدت الصيغة الربانية للغة ، وقد انضوت في شكل نظمي محدود هو عمود الشعر المعروف ، وصف المنظور واللامرئي من الواقع بشقيه الخارجي والنفسي . حيث لايمكن لعلم الجمال باعتباره تصعيداً هارمونياً ان يتجاوز قدرة الروح التصويرية إلا فيما ندر ، بأن يصف اللامرئي النفسي أو الواقعي . وباعتبار ان حس الألوهة في الإنسان هو الانعكاس الأكبر لذاته على الوجود والوجود على ذاته بالمقابل. وباعتبار ان الألوهة في تلك الحقبة تمثلت كما قلنا في عمق ظاهري . فأن الصيغة اللغوية أيضاً تمثلت في وصف العمق الظاهري والمرئي وفي وضع الشيء – ضمن الصورة الفنية – في موضعه باعتبارها ، أي الصيغة اللغوية ، كانت ، كالحس المنقوص للألوهة ، وصفاً أميناً المنظور الروحي وترتيباً للامور باستثناء بعض الشطحات بالطبع كصورة لامرىء القيس وبيت لطرفة وحكمة لزهير ومقطع لابن ابي الصلت أو أمثولة لصعلوك من الصعاليك لاتشكل في كليتها تراثاً ثقافياً أو اسلوباً عموميا يماثل عمومية الروح .

فاذا حدث ان تعدى النص المنظور الظاهري للواقعة فإنه يكون قد شذ بمفهوم علم الجمال وقواعده في تلك الحقبة من التاريخ حيث كانت الصورة الفنية عموماً ترتيباً للواقع كما هو .

روى الاصفهاني في أغانيه(١) حكاية تصلح مثالا على حديثنا فقال : « قال العجاج (يحدث عن شاعرين) كانا يسألاني عن الغريب فاخبرهما به ثم اراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه ، فقيل له : ولم ذاك ؟ قال : لانهما قرويان يصفان مالم يريا فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي أصف مارأيت فاضعه في موضعه » .

---

(١) الأغاني الجزء الثاني .

وما يهمنا من حكاية الأصفهاني ، هو نقد العجاج للاسلوب المتمثل في وصف مالم ير ، ووضعه في غير موضعه وهو ما يمثل لنا تماماً علية الخلق الأدبي الي تؤدي إلى الاسلوب .

وقوله أيضاً انه بدوي يصف ما رأى ويضعه في موضعه . مما يشرح وجهة نظرنا السالفة الذكر في ان التطور الروحي الذي يداهم الأمة ، يداهم الاسلوب أيضاً .

ولذلك قلنا ان النص إذا تعدى المنظور الظاهري للواقعة لوصف مالم ير ووضعه في غير موضعه فإنه يكون قد شذ . فصورة فنية من صور امرىء القيس مثلا تعتبر في مفهوم «العجاج» (ونأخذه هنا كرمز لا كشخص) شذوذاً عن المألوف الجمالي . لان صورة كالتي وصف بها (امرؤ القيس) حركة حصانه بقوله : « .. مكر مفر مقبل مدبر معاً » تتعدى المنظور الظاهر للحركة إلى الرصد الداخلي لها . أي انها تصف حركة الحصان لا على انها عدة حركات متتالية ، بل على انها مجموع خطوط لحركة واحدة . وهو وصف للحركة يمكن استخدامه – مع تجاوز كل الصعوبات اللغوية – لشرح الحالة الديناميكية للحركة النفسية الانسانية كما طرحها علم نفس شائك ومعقد كعلم نفس « جشطلت » . لأن صورة شاعرنا عن الحركة قدمت التركيب كوضع نفسي على التحليل . وبقوله : مكر مفر مدبر مقبل ثم باضافة كلمة « معاً » إلى ذلك ، جعل رؤية الكل تسبق رؤية الأجزاء ضمن آلية الحركة . اي ان الصورة رأت الحركة باعتبارها كلية دائمة لا كمجموعة من المواقف المتتالية . مما اكسب هذه الصورة دوامها التاريخي العظيم واسبقيتها أيضاً (١) .

ونعود إلى القول ان ما نقده « العجاج في صيغة شاعرية سالفي الذكر ، هو تماماً ما كان يهيء لولادة اسلوب جديد سوف يرافق تجربة الروح في التصعيد الهارموني للكائن وللوجود من الوثن إلى الألوهة . ونقصد بالاسلوب الجديد النصوص القرآنية حيث تمت النقلة الكبرى للصيغة كما اسلفت من النظم إلى النثر في مجاراة لتصعيد الروح من الوثن إلى الألوهة .

ولما كان الله لايتمنهج ولا يتحدد لأنه كما وصفه النص القرآني « شديد المحال » (٢) ، فإن الأسلوب تمثل ذلك وانتقل من صيغة ذات قاعدة منهجية محدودة هي عمود الشعر إلى صيغة تنفي القاعدة والمنهج والمحدود هي النثر أو الشعر المطلق .

---

(١) راجع لنا تفصيلا عن آلية جشطلت ضمن دراسة عن السريالية وأصولها نشرت في المعرفة السورية العدد ١٦٨ .

(٢) سورة الرعد ١٢ .

وما نعنيه هنا بالنثر ليس بالضرورة ما هو نقيض الشعر . ويوضح ذلك استعمالنا لمصطلح « النظم » لنعت المنظومات الشعرية في فترة ما قبل الاسلام وما بعده .

ونحدد فنقول ان مصطلح النثر المعتمد هنا يمثل بدقة الشكل اللغوي الذي يفصل ما بين النظم والنثر بمعناه العام الشائع . وهو الشكل الذي يقودنا مباشرة إلى الشعر وإلى شكل النص القرآني الذي داهم القاعدة التي كانت سائدة ان في الشكل وان في المعنى المغيب في الشكل حيث ان المعنى لا يرصد ولا يتحدد خارج الشكل ، فما من ثنائية في النص الأدبي عموماً .

وانطلاقاً من هذا المفهوم نقول ان النص القرآني جاء يعلم جمال لغوي عارض ما سبقه بأن وصف الغريب واللامرئي ووضع الأمور في غير مواضعها المعتادة . فابدل الوثن بالألوهة ، والتعدد بالتوحيد ، والقبيلة بالأمة . وكان بمثابة عاصفة داهمت الوظيفة التقليدية للغة ، فانقذ اللغة من جمود التوظف في خدمة إيصال معنى ما ، معيداً لها حريتها وقيمتها الدلالية كلفظ وكصورة وكحالة مستقبلية .

نتيجة لذلك تحول التاريخ العربي من منظور الظاهر إلى منظور الباطن فاكتسبت صورة الروح بعدها العمقي . حيث أعادت اللغة تسمية الغريب (حسب التقليد اللغوي العربي) فجعلته مألوفاً ، واللامرئي فصيرته مرئياً ، مجسدة بذلك انعكاس الحس الألوهي فيها وعاكسة له في وقت واحد في الحس الجمالي اللفظي في تصعيد روحي للشعب من « اللات » و « العزى » إلى الله . من الصنم الذي يتناقض جموده وامثولة الصحراء الميتافيزيقية إلى الألوهة التي تغدو الصحراء ذاتها احدى انعكاساتها ، حيث اللغة توقظ في الكائن حسه الداتري وتوجهه نحو بدايته ، وحيث الحس الإلهي وقد انعكس في اسلوب يخاطب الأمة فالفاعل شكل احتفالي :

« ... ايتها النائمة هلمي فاستيقظي
وابشري فقد أنزلت المائدة
ونبعت عليها عيون الطعام والشراب
.... وانفسحي يامحصورة فقد أطلق
اسرك وفتحت عليك الأبواب ،
فتزيني وزيني الشعوب ببهائي
فقد اذهبت عنك الحزن وملأت
قلبك بالفرح ... » (١) .

---

(١) مخاطبة بشارة وإيذان وقت — كتاب المواقف والمخاطبات — النفري .

ان الأمة هنا تستعمل اللغة لغتني نشيد الأرض البشري وتتجوهر في الحضارة منصوبة في بوتقة ذاتها ضمن المعنى التوحيدي . والحضارة – كتصعيد روحي الشعب – تتموضع في التاريخ. والتاريخ يتوسع ، وهكذا دواليك صعوداً إلى الزمن الصوفي حيث قام الروح العربي برحلة جديدة من نهايته إلى بدايته ، أي من معناه كربوب إلى معناه كرب ليصح قول الشيخ الأكبر :

« كل نهاية لايصحبها حال البداية
لايعول عليها . » (١) .

وهو أمر أدى إلى اسلوب جديد سبق لنا درسه فلا نكرر هنا (٢) . وفي هذا الاسلوب نجد ان اللغة قد دخلت مرحلة التأويل لتنحت التاريخ بذلك بعداً جديداً ووسعت من حيز الوعي الإنساني توسعاً تعمقت من خلاله صلة الربط الروحي بين الماضي والمستقبل .

وبحيوية التأويل تحول معنى الألوهة من معنى أخلاقي إلى معنى وجودي ، وداهمت الحس الألوهي آنذاك طاقة ذات شأن ثبتت الإنساني في الألهي ، والألهي في الإنساني تثبيتاً جعل عامر ابن عبدالله يقول : « ما ابالي ، امرأة رأيت أم حائطاً (٣) لأن الكلام الصوفي بات يعلن : « ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه . » .

حتى إذا تطور الحال إلى اقصاه قال الشبلي :

« .. أمر إلى مالا وراء فلا أرى إلا وراء .
وأمر يميناً وشمالا إلى ما لا وراء
فلا أرى إلا وراء .
ثم أرجع فأرى هذا كله في
شعرة من خنصري . »(٤) .

باريس – فايز مقدسي

* * *

(١) كتاب لا يعول عليه – مجموعة الرسائل – محيي الدين ابن عربي .
(٢) بحث في اللغة الصوفية نشر في المعرفة السورية العدد ١٦٥ .
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف – الكلاباذي .
(٤) اللمع في التصوف – الطوسي .

د. أحمد سليمان الأحمد

العلاقة الجدلية بين اللغة والشعر

الشاعر الذي قال — وهو عنترة العبسي تحقيقاً أو اتفاقاً — :

هل غادر الشعراء من متردم .

أية حيرة إبداعية كان يعاني ؟ وأي طموح فني يائس كان يكابد ؟ وأي شيء كانت هذه الصيحة التي ما فتئت تتردد ، ليس بمعناها فقط ، بل وبمبناها على امتداد العصور ، حتى ولو كان كثير من الذين تسرع إلى شفاههم وينزلونها منزل الأمثال والحكم ، لايعرفون معنى دقيقاً لهذا « المتردم » وانما هو معنى محسوس بالسليقة ، ومحسوس من خلال الجو الذي تنطلق فيه هذه الكلمات المعبرة في سياقها ودلالتها الواضحة الغائمة .

ولكن هل كان هذا الشاعر حقاً يعني ، بكل أحاسيسه وبكل مطمح أدواته الفنية ، هذا القول الكبير الذي تكاد تخر له جبال الإبداع دكاً ؟ هل حقاً أن الشعراء لم يتركوا لنا بلغة نتبلغ بها نحن الذين جئنا بعدهم إلا أن نردد ما لالوه وإلا أن نقتنع به ، وإلا أن نجعله وحده الزاد ، مهما طالت الطريق وامتدت على قرون فشهدت تطورات وتغيرات ، وشهدت تجديداً في مظاهر الحياة ، وربما في بناها أيضاً .

لو كان الأمر كذلك لما علقت قصيدة عنترة هذه على جدران الكعبة أو أستارها ، كما حصل فعلاً ، أو كما حصل من خلال ما ترامى إلينا حتى لغدونا ننزله منزلة الحقيقة ، ومنزلة

المسلمات أو الموضوعات في التعابير الرياضية . ومهما يكن الأمر فإن ثمة دلالة على أهمية هذا الشيء الذي نحتفظ به ، ونحرص عليه ، ونردده ، وعلى أنه أتى بشيء ليس هو المعاد المكرور الذي نكاد نضيق به ذرعاً ونكاد نجعل منه سخرية لساخر .

في اعتقادي أن الشاعر عندما أطلق هذه الكلمة الشعرية المأثورة كان قد ضاق بدوره ذرعاً بحدود اللغة والخيال ، طموحاً منه إلى ارتياد عوالم جديدة كما نقول ؛ وأحس أمام هذه العوالم الجديدة التي يطمح إليها أن جناحيه واهيان رغم نهوضهما بإبداعه الجبار ، تماماً كما يحس الفارس الرائع – مهما كانت قوة ذراعه ، ومضاء سيفه ، بأن هذه القوة حداً لايمكن لها أن تتجاوزه ، فيكاد يكفر بالقوة البشرية التي تنهار أمام جرح ناغر من حربة قد يطلقها جبان رعديد مختبىء وراء ضبابة من خوفه وغدره .

غير أن هذا لن يمنعنا من الإعجاب بالبطولة الفذة ، وبأساليبها الخارقة – بالنسبة لنا – وبكل ما تحمل من قيم انسانية في قدرتها البشرية . وكذلك فإن إحساس الشاعر بقصوره في زحام عوالم الإبداع لا يمنعنا من أن ننتشي بما استطاع أن يقتنصه في رحلته التي كانت نوعاً من اللهو الفني ، وإنما هو لهو في لبوس الجد ، وسكر في هيئة الصحو ، وتحلل في حجاب التقى .

في حالة ذهول أمام عالم الإبداع الجبار ، وشعور بقصور الجناحين أمام هذه الآفاق اللامحدودة أطلق الشاعر الفارس صيحته ، وهي صيحة صادقة في جوهرها وفي لحظتها الإنسانية العميقة يعانيها أي مبدع في مجابهة المطلق .

هذا المطلق مازالت عدتنا التعبيرية معه كشعراء هي اللغة . نراه أحياناً أكبر من اللغة ، فنؤثر لو صمتنا ، أو نشعر بقصور ما ستنفرج عنه شفاهنا أو تجري به أقلامنا ، ولكن لابد من أن نقول شيئاً ، وشيئاً جميلا محبوباً . ونحن نقتنع أخيراً أن باستطاعتنا ذلك . وأحياناً يؤثر الفن أننا لم نكن اقتنعنا ، أو أقدمنا بجرأة كي لانستخدم غير هذه الكلمة الجريئة .

ذاك هو وضعنا أمام اللغة . نحن مقيدون بها ، ونريد أحياناً أن ننطلق إلى ما وراءها . ونحن نحتال لذلك بشتى الأساليب . فمنها الابداع التعبيري ، والأسلوبي ، والتصويري ، ومنها تلك الدعاوى التي نقربها إلى الإبداع بالشذوذ ، وهو حيناً شذوذ أصيل ، وأحياناً أكثر ، شذوذ نغل ، أي شذوذ لم يربح نسب الشذوذ . حتى في الشذوذ ثمة أصالة ونغولة .

ولست الآن في صدد التعريف باللغة ، واستعراض ما أضفى عليها المعلميون (الانسيكلوبيديون) وعلماء التفسير من ذيول فضفاضة أحياناً ، مسرفة في الاقتصاد حيناً ،

وهي تارة تكاد لاتقول شيئاً ، وأحياناً تحملنا على أن نؤثر لو أنها لم تكن قالت شيئاً . ولكن تظل اللغة هذه الحصيلة من الألفاظ التي حشدناها على امتداد العصور ، بعضها سقط على الدرب، كبعض رفاق الطريق ، وبعضها مازال دؤوباً على السير ، رغم تقدم السن به ، ورغم الهرم الذي أخذ يخلع قبحاً عليه ، ولا يأبه إلى كونه غدا غريباً في وطنه ، غربة روح وغربة زي. ومنها ما يتوارى حياء ، وما يتمنى لو أن الأرض غارت به ، ولربما حمل بعضها خشبته عشرة أضعاف ما حملها دعبل الخزاعي ولم يجد من يجرؤ على صلبه عليها .

وهذه الحصيلة التي وصلتنا هكذا متناثرة ، ما كان لنا إلا أن نلم شتاتها ، ونحصدناضجها، لنجد له باقات وحزماً تدرس (من الدرس والدراسة) كي تعطينا بعد ذلك الحب (وهو في شكل الحب) وكلاهما غذاء عجيب .

كان لابد للانسان أن يوفق بين هذه الألفاظ التي قلنا عنها في العربية اسماً وفعلا وحرفاً ، وهذا التوفيق كان لحاجة في التعبير تميز هذا الحيوان الناطق . ولكن الحاجة إلى التعبير — التي كانت قمة التطور يوماً ما — أخذت تتطور هي الأخرى فغدت حاجة إلى إجادة التعبير ، ثم إلى تنويعه والتفنن فيه ، وإلى خلع جمالية متغيرة متنوعة عليه . وهذه الحاجة هي التي أخذت فيما بعد اسم والتجديد، أو الطموح إلى التجديد .

هذه الحاجة إلى التعبير ، أخذت تخلع على النطق ، وعلى التركيب أشكالا مختلفة ، ثم أخذت لغة الحديث تختلف عن لغة الكتابة ، ثم أخذت الكتابة ترغب في أن يرتفع الحديث إلى مستواها ، ثم أخذ الحديث يدعو الكتابة إلى أن تكون شيئاً منه ، وأن يلتقيا عند نقطة تتلاشى فيها الأبعاد وتزول الحدود . وأقبلت الدراسات العلمية وغير العلمية على هذه الظواهر ، تدرسها وتتفنن هي الأخرى في نظرياتها واقتراحاتها وتصوراتها ، مما لا يعنينا الآن ، أو هو يعنينا ولكننا لا نريد أن نشغل بالنا أو وقتنا أو مطالعاتنا به ، ولأنه قد يكون غير ذي علاقة مباشرة أو ملحة بموضوعنا ، الذي هو دوماً اللغة في تعبيرها المكتوب الفصيح .

ولا شك في أن اللغة — حديثاً وكتابة — إنما وجدت أشكالا لها في التعبير ، وأساليب ومدلولات ، فتحدثوا عن لغة طبقة معينة من الناس ، أشار إليها ابن الرومي — دون نظرية — عندما رأى أن ابن المعتز يشاهد مالا يشاهد ابن الرومي ، ويتذوق مالا يستطيع أن يتذوقه ، فيعبر عما لايستطيع التعبير عنه .

وتحدثوا عن لغة أصحاب مهنة من تلك الطبقة التي ذكرنا أو من غيرها ، وما زالوا

يطالعوننا بلغة الرعاع في باريس مثلا التي غدت ، كادت تغدو لغة قائمة بذاتها ، هذا إذا لم نذكر الصيغ النحوية والبيانية الجديدة .

ولكن مهما يكن من أمر ، فإن هذه اللفظة قد وصلتنا عبر قرون ، تغالي في البعد ، أو تقترب أحياناً حتى تغدو المسافة عقداً أو بعضاً من عقد ، ولكنها مع ذلك سوف تسافر بعيداً في الزمن حتى تغدو قديمة في ميزان الزمن . هذه اللفظة ربما كان امرؤ القيس قد استخدمها ، كما استخدمها المتنبي وشوقي ، وشعرور مغمور أو مغرور في قاصي الزمن ودانيه . وليس الأمر كذلك فحسب ، بل أخذ الأمر في الشعر يتعدى كل ذلك ، فاللفظة التي تؤلف القافية قد أصبحت لها شخصيتها الجديدة وقيمتها الجديدة ، كما أصبح لها بروزها الذي تشير إليه الأسماع ، وتشير إليه القصيدة ، وتتعلق به المعاني والموسيقا ، ويكاد يكتسب نوعاً من القدسية ، نوعاً من الدغماطية التي ما برح الانسان المتحرر أو الطامح إلى التحرر يحاول أن يحاربها ، أن يتخلص من بطشها ، كذلك البطش الذي كانت - أو ما زالت - تمارسه أنصاب الجاهلية الجهلاء .

ولكن الأنصاب قد تكون أيضاً تماثيل ، وتماثيل رائعة ، وقد تكون نضعها في المكان الأجمل والأحب لأننا مولعون بالحسن نتبعه كذلك الفتى القرشي الذي مافتئ يهذي حتى قال الشعر ، حظنا منه لذة النظر ، ولكن لذة المذاق أيضاً ، لأن القافية التي تديرها علينا يد الصناع الملهم الماهر إنما تثلمنا ، وتجري أمامنا جداول ،من البهجة والمتعة الفنيتين ، وهما بهجة ومتعة غير غريبتين عن الجدوى .

تلك اللفظة التي وجدت لها مكاناً بجانب أختها اللفظة فألفتا بنياناً متماسكاً منسجماً ، ثم جعلتا منه مكاناً صالحاً لسكنى الفكر والخيال ، تلك اللفظة وأخواتها هي اللغة . ولكن اللغة - كما قلنا - لاترتاح بشكل أبدي إلى جو معين ، ولربما أدركها البلى ، كالكائنات الحية ، أو باعتبارها كائنات حية ، فحاولت أن تتجدد بتغيير الشكل الذي يضفي ، أو يريد أن يضفي بدوره ، تجديداً على المضمون ، وأحياناً - ضمن مفهوم هذا الطموح - تحاول أن توجد لها مرادفاً أو أكثر ، فإذا ضقنا بها ذرعاً سفرت لنا عن وجه جديد ، يكاد يحمل نفس الجمال ، ونفس الدلالة اللذين كنا نؤانسهما فيها عندما كانت ما تزال تجذب ، وتغري ، وعندما كان الناس ما يزالون فرحين بأنهم اكتشفوا جمالها ودلالتها . وهذا لايعني أنه لايمكن لنا تجديد اللفظة بوضعها في جو جديد من تعبير ومضمون . وكالمترادفات صنعت الأضداد ، وهي أضداد تارة لأن اللفظة يقابلها نقيض ، وطوراً لأن اللفظة نفسها تحمل في ذاتها الموجب والسالب .

مثلما تخلع اللفظة على اللغة جمالا وحيوية ، فإن اللغة - في تركيبها المتقدم المتكامل - تخلع جمالا وحيوية على اللفظة ، وتلك مهمة يتعهدها الكاتب أو المتحدث ويوفق بمقدار ما هو موهوب وبمقدار ما هو مثقف وبمقدار ما هو ذو تجربة فنية وحياتية ، وقد كره البيانيون كلمة « ضيزى » حتى جاءت في القرآن الكريم . ولم يحبوها لذلك فقط بل لأنها جاءت في سياق مضموني وشكلي جعل منها أفضل لفظة مناسبة .

هذه العلاقة الجدلية بين اللفظة واللغة تبرز بأجل صورها وأجلاها بين اللغة والشعر ، فالشعر لا يتعامل إلا مع صنف من أصناف اللغة يريد أن يكون متميزاً ، لأنه يريد أن تكون له شخصيته المتميزة ، وهذا التميز ليس من نوع الامتيازات التي تطالب بإلغائها بل هو من مقومات الشخصية التي بدونها يزول كيانه . ثم ان الكلام ما دام مقسوماً إلى شعر ونثر فسوف يظل هناك طموح إلى مثل هذا التميز ، بل ان النثر نفسه لابد أن يطمح - باستمرارية - إلى التغيير والتجدد ، أي إلى التميز ، بشكل من الأشكال ، هذا إذا لم ينجح القائلون بما يسمى قصيدة النثر (أو النثر القصيدي) فيختالون فناً نشدته البشرية منذ طفولتها ، ولعلها تريد أن ترافقه أو يرافقها حتى شيخوختها ، وجعلته بين فنونها التي تريدها جاذباً للروح والفكر .

إننا لو أخذنا قصيدة جاهلية من البحر الكامل مثلا ، وأخذنا قصيدة عباسية وثالثة من عصر النهضة ورابعة من عصرنا الناهض ، وكلها تجري على نفس القافية والروي لرأينا أمراً عجباً من شأن اللغة ، ومن هذه العلاقة العجيبة التي تقيمها مع الشعر . وسأعمد في أبحاث لاحقة إلى تفصيل ذلك ، وإلى الإشارة : كيف ان القافية الواحدة ترتدي أزياء عديدة حسب الموكب الذي يحيط بها أو يمشي بها أو إليها . وكيف أن هناك قوافي تتخذ معاني جديدة ، وكيف ان قوافي قديمة أصبحت تستخدم في القصائدالجديدة بينما كاد يخلو منها الشعر القديم الذي هو بها أولى . وكيف أن هناك قوافي لم يستخدمها الشعر القديم في حين استخدمها الشعر المعاصر في طريقتيه العمودية والتفعلية ، بله النثرية.

ولو قرأنا تلك القصائد - أية كانت - لتبدى لنا انطباع أولي - وهو انطباع علمي أيضاً - بأن هذه القصائد حملت التجديد والتقليد معاً ، وقد حملته لأنه لايمكن أن يكون الأمر إلا كذلك . فلو قدر لنا أن نكون مجرد مجددين لحدث انفصال بين لغتنا وشعرنا ، لغدونا غرباء عن واقعنا . وقد يسرع هنا من يعدون أنفسهم غرباء عن واقعهم فيرون في هذا دعماً لدعاواهم بالتجديد . أجل ، التجديد غربة عن واقع مألوف ، ولكنه غربة فنية ، وبهذا فليست كل غربة عن الواقع المألوف تجديداً ، لأنها قد تكون إغراقاً في التفاهة ، أو إغراقاً في الشذوذ النغل ، أو إغراقاً في اللاجدوى الروحية والفكرية .

التجديد لايمكن أن يكون إلا انطلاقاً من الواقع ، أي بمعنى من المعاني ، ارتكازاً إلى التراث ، إلى ما ترسخت صورته في كياننا الأدبي والجمالي . وطبيعي أنه لا يصح أن نستتيم إلى هذا الواقع ، أن نجعله واقعنا كلية ، إنما لابد من أن نبدع واقعنا ، غير أنه بدوره غير منفصل عن واقع سابق أو واقع قائم ، وغير منفصل عن واقع لاحق . وكذلك فإن تجديدنا غير منفصل عن تجديد سابق أو تجديد قائم أو تجديد لاحق . أي أن الأجيال المجددة القادمة لن يكون بوسعها أن تنكرنا ، كما ليس بوسعنا أن ننكر الأجيال السابقة . بهذا المفهوم يقوم أدب أمة ما ، وبهذا المفهوم يقوم التجديد الصحيح ، وعندي أن أدباء وشعراء كثيرين اهتدوا إلى هذه الحقيقة تطبيقاً ، وإن لم يتوصلوا إليها نظرياً ، لقد جسدوها في عطاءاتهم الفنية ، ولكنهم لم يحسنوا الاستنتاج من خلالها ، لذلك كانت تبدر منهم صيحات متمردة ثائرة تبدو وكأنها متناقضة مع ما يكتبون ، أو يخيل إلى بعض نقادنا في القديم والحديث أن هناك ثورة وتمرداً أحياناً لدى بعض شعرائنا ، وأن هناك في الوقت ذاته تناقضاً يبرز ما بين الدعوى والتطبيق . إن أبا نواس عندما قال :

عاج الشقي على ربع يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد

كان يخضع لعامل التجديد الذي تمليه عليه البيئة ، والثقافة المعاصرة . ولم يكن باستطاعته إلا أن ينطلق من واقع في كي يصل إلى التجديد ، وهكذا استطاع أن يعطي شيئاً جديداً متميزاً ، في حين لم يستطع أبو العتاهية أن يعطي ما يعادل ذلك ، رغم دعاواه العريضة غير العلمية بأنه أكبر من العروض .

وعندما هتف المتنبي :

وانما الناس بالملوك وما تصلح عرب ملوكها عجم

ما كان يساورنا الشك في أن هذا البيت كان جريئاً ، مستنيراً ، وطنياً ، في زمنه ، أي تقدمياً ، أي مجدداً ، وكان شيئاً يعبر عن روح عصره ، ولكنه غدا لايعبر تماماً عن روح عصرنا ، وإن كنا نستشهد به ، أو أننا استشهدنا به ، فإذا ما ارتكزنا إلى هذا البيت ، في قصيدة تستحضر حياة المتنبي وأفكاره وأعماله كي نفيد منها بشكل أكثر عصرية ، توفر لنا البيت التالي :

وشجاك أن أجانباً حكامنا أوما شجاك الخادمون أجانبا

ولو تلونا هذا البيت على مختلف الطبقات والأفراد في أي بلد من البلدان العربية ، بل حتى لو ترجمناه ، للمسنا فوراً أثره في النفوس ، وهو أثر معنوي وشكلي . لقد رأينا كلمة الملوك

تصبح أعم إذ تغدو « الحكام » فليس الملوك وحدهم هم المتهمين ، ورأينا كلمة « أجانب » تأخذ مكان كلمة « عجم » التي مضى زمنها كذات دلالة معينة . ورأينا أن دائرة المعنى التي رسمها البيت الجديد أشمل وأقدر على التعبير عن مجريات الأمور في عصرنا . وهذا بديهي ، ولكن لابد من الإشارة إليه لأنها مفيدة ، ولأن التذكير ينفع . وهكذا ، فإن بيتاً جديداً في عصرنا ، يرتكز إلى بيت جديد في عصر سابق ، يعطينا الدلالة على هذه العلاقة بين جديد جديد زمنياً وبين جديد قديم زمنياً ، ويعطينا الدليل على أنه لاهذا ولا ذاك كانا شيئاً من التقليد ، أو ما يقال له التقليد ، ولن يكون في إمكان النقد العلمي أن يفوه بشيء من هذا لا الآن ولا بعد سلسلة من السنين طولها سبعون ذراعاً .

وليس هذا فقط بل ان كثيراً من الصور الفنية والتعابير الفنية -- علاوة على المضمون -- لم يكن عصر في سابق يستطيع أن يتصورها ، ولكن لاينال من هذه الصور والتعابير أنها جاءت على شكل قديم ، وهو قديم لأن المتنبي مثلاً كتب فيه . إن من حق أي شاعر عربي في أي عصر عربي أن يكتب على الوزن الكامل ؛ ليس من حق أحد أن يمنعه أو أن ينتقده لذلك ، وإذا فعل فهو الظالم ، لأن البحر الكامل شيء من الشاعر العربي في أي زمان ومكان ؛ كما لغته شيء منه . أو هو لايكون نفسه دون هذه اللغة . وأنا لا أتصور أن المتنبي كان يمكن له أن يكتب في هذا الوزن العربي ، ثم أحرم أنا أو غيري من هذا الحق . ولكن هل كان للمتنبي أن يدعي حقاً في وزن أو طريقة أكتب فيها الآن . أقول : إنه ، دون شك ، يملك هذا الحق ، ولكن ربما لم يستطع أن يجد هذا الطموح ، ليس لأننا أبعد غارة منه على التجديد ، ولكن لأن كل ما كان يحيط به ، أو يعتمل في داخله ، لم يكن يستطيع أن يوصله إلا إلى ما أوصله . إذن لماذا أعود أنا إلى الوراء ، وأموسق شعري على طريقة كان يستخدمها المتنبي . ببساطة ، لأن طريقة المتنبي هي طريقتي أنا أيضاً ، وأنا أرتكز إليها ، ولا أدعي أن علي أن لا آخذ عنها ، ولكن علي أن لا آخذ عن روح لغتي وموسيقاها . آخذ عنها لأني أدخل عناصر تجديد الربع الأخير من القرن العشرين ولا آخذ عنها لأنها هي المنطلق ، بل لأنها هي أنا في حالة تطور وتحول وتجدد .

ولابد لي من أن أشير هنا إلى القوافي ، فلو أخذنا مثلاً أربع قصائد من عصور مختلفة ، ولكنها متفقة وزناً وقافية ، لرأيناها تأتلف ببعض القوافي ، وتختلف بالبعض الآخر ، إذ طرأ بعض الأغناء لها ، بل إن في القوافي المؤتلفة أجواء جديدة بمقدار ما يتمكن الشاعر من بعث الحياة الجديدة فيها ضمن مناخ فني فكري خاص به ، وفي القوافي تتمثل خلاصة وجماع هذه العلاقة الجدلية الخالدة الرائعة بين اللغة والشعر .

° ° °

د. حسام الخطيب

هموم اللغة العربية في عصرنا

١ – تمهيد :

أصبحت قديمة جداً ومتخلفة ومرفوضة تلك النظرة التي تعتبر اللغة مجرد أداة للقول أو كساء الفكرة أو وسيلة للتعبير أو ضرباً من ضروب الزينة الاجتماعية أو التباهي الثقافي والتظاهر الشخصي . ولقد كشفت الأبحاث الحديثة أن اللغة ليست قشرة خارجية يمكن تبديلها و تغييرها أو تطويرها حسب الأهواء أو الاحتياجات أو فصول السنة بل هي أداة تلقي المعرفة وأداة التفكير ورمزه وتجسيده ، إنها الفكر نفسه في حالة العمل ، فليس هناك إذاً فكر مجرد بغير رموز لغوية ، وهكذا بقدر ما تكون اللغة دقيقة وحية ومبرأة من الفوضى يكون الفكر دقيقاً وحياً ومبرأ من الفوضى . بل إن علماء اللغة المحدثين اكتشفوا علاقة كبرى بين اللغة وبين الموقف السيكلوجي حتى أنه لم يعد من وجود لعلم لغة منفصل عن علم النفس . وتعمل اليوم مجموعات علماء اللغة بتعاون كامل مع مجموعات علماء النفس . فإذا أضفنا إلى ذلك وجود البعد الاجتماعي للغة الذي لم يكن في يوم من الأيام موضوع مناقشة أو نزاع تبين لنا أن المشكلة اللغوية هي في صميمها مشكلة فكرية ومشكلة نفسية ومشكلة اجتماعية . وليست على أي حال مجرد مشكلة تعبيرية على نحو ما يميل كثير من الناس إلى اعتبارها .

٢ – الاطار العام لواقع اللغة العربية :

وهذا التحديد ينطبق بالطبع على أية لغة في عالمنا المعاصر ، سواء من بين عشرات اللغات الحية وشبه الحية أو من بين مئات اللغات المعزولة أو المتجمدة أو المهملة أو الناشئة . ولكن بالنسبة للغة العربية ، وربما بعض اللغات الأخرى المماثلة لها ، تتخذ المشكلة أبعاداً أشد تعقيداً أو تضارباً . وتأتي هذه الأبعاد بالطبع امتداداً لأبعاد التجربة القومية والحضارية التي تخوضها الأمة العربية ، وباعتبارنا أمة مجزأة متخلفة باحثة عن هوية حضارية معاصرة لا بد للغتنا من أن تعاني التجربة ذاتها ، وبذلك تزيد همومها على هموم لغات أخرى كثيرة في العالم نال أصحابها حدوداً مقبولة من التماسك القومي والتقدم الحضاري والمكانة الثقافية العالمية ، كالانكليز والسوفيات والصينيين والفرنسيين والأميركيين ، وهكذا ... إن المسألتين القومية والحضارية وما يتفرع عنهما من مسائل ترتبان على اللغة العربية تبعات خاصة متميزة من أبرز أبعادها :

البعد القومي أو الوحدوي ، والبعد الاجتماعي ، والبعد الثقافي .

فالبعد القومي مثلا يحتم على أي اتجاه لغوي في أي قطر عربي أن يكون متجاوباً ومتجانساً مع الاتجاهات المناظرة لدى الأقطار العربية الأخرى . إن حالة التجزئة التي تعيشها أمتنا العربية لا تسمح لأي قطر عربي أن يتخذ خطه الخاص لخلاص من تجربة المعاناة اللغوية وإنما تحتّم عليه أن يتفاعل مع غيره من الأقطار العربية وصولا إلى الحصيلة المشتركة . وإنه لقيد لا يستهان به ما دامت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الأقطار العربية متفاوتة بالشكل الذي نعرفه .

ولكن يا حبذا من قيد هو . وان المرء لا يذكر هذا القيد متأففاً أو متكراً وإنما يذكره معترفاً بالواقع من جهة ومذكراً من جهة أخرى بأن أي حد معقول من العمل المشترك بين الأقطار العربية في سبيل لغتنا القومية كفيل بأن يغني التجربة الخاصة لبعض هذه الأقطار وأن يحول هذا القيد من عامل أعاقة إلى نقطة انطلاق لتوحيد العمل اللغوي القومي ووضع اللغة العربية – كما ينبغي أن تكون – في خدمة هدف الوحدة العربية الذي تنشده أجيالنا وتسعى إليه .

والبعد الاجتماعي يشكل أمام لغتنا قيداً آخر . إن الوظيفة الاجتماعية للغة هي أبرز جوانبها على الإطلاق . واللغة وسيلة تفاهم اجتماعي من الكبير إلى الصغير ومن المثقف إلى الأمي ومن

ساكن الحاضرة إلى ساكن البادية . وههنا تبرز صعوبة كبيرة أمام اللغة العربية ما دامت مطالبة بأن تخدم الحاجات اليومية والدنيوية وكذلك الرفيعة والبديعة لشعب عربي متباين التركيب الاجتماعي تستشري فيه الأمية ويسود في كثير من بقاعه الاستعلاء الطبقي والفصل الاجتماعي وتتفاوت درجة التمدن بين أجزائه تفاوتاً عظيماً حتى يمكن قياس المسافة الزمنية أحياناً بين مجتمع البادية ومجتمع الحاضرة ببضع مئات من السنين*. إن اللغة العربية الحديثة مطالبة بأن تفي في وقت واحد بحاجات البدو الرحل – وما أكثرهم في البلاد العربية – وحاجات المجتمع المتغرب المملوء حيوية وحركة في العواصم وعرائس السواحل الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط . وإنها لمهمة عسيرة ولكنها ممكنة وغير مستحيلة .

والبعد الثقافي يستقي بالطبع تعقيداته من البعد الاجتماعي وكذلك من البعد التاريخي . فبالإضافة إلى التباين والتمايز والفصل في المجتمع العربي هناك أيضاً مشكلة الموقف الثقافي المنشود في أمة تشد صلتها الحاضرة بماضيها الثقافي وتعتبر من أكثر الأمم اعتزازاً واعتداداً بتاريخها وتراثها وكذلك من أكثر الامم تفتحاً وتشوقاً للاندماج والإسهام في حضارة العالم المعاصر .

إن اللغة العربية – بسبب هذا الواقع – تبدو اليوم من أكثر اللغات حيرة بين الولاء لماضيها وماضي أصحابها الثقافي من جهة وبين الإلتزام بمتطلبات الحضارة الحديثة . وإنه لمن قبيل المكابرة والتجاوز أن تطمئن أنفسنا بأن هناك لغات تصلح – في وضعها الثابت – لكل مكان وزمان ، وان تمسكنا بهذه المقولة لا يعني سوى إصرار على تعذيب النفس والضمير . إن المطلوب هو السعي إلى توازن لغوي خلاق بين الولاء الماضي العريق والالتزام بالحاضر المبشر بالامكانات الزاهية . ولكن مشكلة المعاصرة والتقليد ليست هي المشكلة الوحيدة التي تواجه اللغة العربية على الصعيد الثقافي . فهناك مشكلة التعددية الثقافية في البلاد العربية ، وهي المشكلة التي نشأت عن خضوع الأقطار العربية لفترات الظل الاستعماري في أزمنة متفاوتة وتحت وطأة أنظمة متباينة . إن الوطن العربي حديث الاستقلال نسبياً ، فسورية مثلاً نالت استقلالها الكامل وحققت جلاء الجيوش الأجنبية قبل معركة فلسطين بسنة واحدة فقط عام (١٩٤٧) . هذا إذا لم نذكر الدول العربية الأخرى الأحدث عهداً بالاستقلال كالجزائر وموريتانيا واليمن الجنوبية . ودون الدخول في التفصيلات يمكن القول أن البذور الثقافية التي أنشأها الإنكليز والفرنسيون والإيطاليون والإسبان وربما العثمانيون ما زالت محتفظة بالكثير الكثير من ألوانها وشياتها في مناطق عربية متعددة ، وان الصبغة العامة للثقافة في مصر أو العراق مثلاً تختلف بوضوح عما هو قائم في الجزائر أو تونس . واللغة العربية مطالبة بأن

ترضي الأذواق والمشارب المختلفة لأنها إن لم ترض وتتفاعل تظل جسماً خارجياً غير قادر على الخلق والتوليد والإبداع .

نحن لم ننشىء بعد ثقافتنا الخاصة حتى تكون لغتنا بالضرورة لسان هذه الثقافة . ومشكلة اللغة العربية أنها هي التي تحمل عبء إنشاء الثقافة المشتركة للوطن العربي ، وإنها لمهمة مزدوجة حقاً . فعلى اللغة العربية أن تنشئ نفسها ، أن تبني نفسها من الداخل ، وكذلك عليها أن تكون بوتقة التفاعل الثقافي المنشود في الوطن العربي (١) .

٣ — ملامح المشكلة اللغوية :

هل هناك مشكلة لغوية في البلاد العربية ؟

في رأيي أن المشكلة موجودة وقائمة وإن كان هناك أناس يرفضون رؤيتها إما لأن ظروف تحركهم لا تتيح لهم الاتصال بهذه المشكلة وإما لأن تعلقهم باللغة العربية — وأشهد أنهم على حق — يميل بهم دائماً إلى استبعاد أية شبهة أو علامة استفهام من شأنها أن تكدر صفاء هذا التعلق . إنهم كالمحب يصر على أن يرى في محبوبه النموذج الأول والكمال المطلق . وفي هؤلاء الناس أساتذة كبار وعلماء أجلاء ومثقفون متمكنون ووطنيون مخلصون ، ومنهم المختصون باللغة أو من في حكمهم ، ومنهم مجرد الهواة المهتمين باللغة ضمن حدود (٢) .

— —(١) ويقولون ان المشكلة بسيطة ، ما علينا سوى أن نتشدد في أسئلة امتحان الثانوية في مقرر اللغة العربية وينتهي الأمر . سامحكم الله أيها المربون .

(٢) أذكر أنني حضرت في مطلع عام ١٩٧٥ الندوة الفكرية التي أقامتها لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية العربية (القاهرة ٥ — ٧ شباط ١٩٧٥) وقد طالبت باعتبار إيجاد حل للمشكلة اللغوية من صميم الاستراتيجية التربوية المطلوبة ، ولاحظت أن المؤتمرين وهم نخبة المفكرين والتربويين في البلاد العربية لم يصدروا في مناقشاتهم عن تربية لغوية متناسقة ، واستعملوا مفردات ومصطلحات متباينة وفيهم من استخدم مفردات أجنبية لأبسط الكلمات العربية كقول أحدهم مثلا : عندنا في الـDepartment of arabic . وقد علق على كلامي من أحبه وأجله منكراً أن تكون هناك مشكلة لغوية في المناقشات التي دارت ومستغرباً استنتاجاتي . وإذا كان من تفسير لهذا الموقف من تربوي كبير فليس إلا الحب والنبل اللذين تحاط بهما لغتنا العظيمة فيصرفاننا عن رؤية ما ينبغي أن يرى .

إن المشكلة اللغوية موجودة وقائمة ، ولكنها – كما ينبغي أن نصر دائماً – قابلة للحل وغير معضلة ولا يمكن أن يستنتج من الاعتراف بوجودها أن الحل هو التخلي عن اللغة العربية أو إبدال العامية أو الأجنبية بها . ويخيل إلي أن مثل هذه الخواطر المسمومة قد تجاوزها التاريخ وأصبحت اللغة العربية اليوم من التمكن والانتشار بحيث تجاوزت مرحلة خطر الوجود وأثبتت قدرتها على الصمود . وقد كان أساتذتنا في الماضي يرفضون الاعتراف بوجود المشكلة اللغوية لأنهم كانوا يعيشون في مرحلة استعمارية تعتبر فيها اللغة العربية من أهم دعائم الصمود وتتهدد هذه اللغة عوامل اندثار خطيرة . ولذلك كان التمسك الصلب والعنيد باللغة كما هي مسوغاً وضرورياً ووظيفياً . أما اليوم فيمكن القول أن الخطر قد زال أو قارب وأصبح التمسك باللغة يعني الحرص على فعاليتها واستمرارها وتطورها ووضعها في خدمة الناس والحياة .

ولقد أسيء كثيراً في الماضي وفي الحاضر استغلال أية نزعة باتجاه الإصلاح اللغوي ، وعملت جهات كثيرة معظمها ذو نزعة استعمارية إلى استغلال كل منادلة بالإصلاح من أجل إثارة الشكوك باللغة العربية والدعوة إلى إحلال لهجات محلية أو لغة أجنبية أو نصف أجنبية محلها . على أن هذه المحاولات كانت تتكشف باستمرار وقد أصبحت اليوم معراة بحيث لا يخشى خطرها اللهم إلا في حالة واحدة هي مواكبتها لعمل سياسي (١) هدام ، وعند ذلك يكون الرد سياسياً أكثر مما يكون لغوياً .

وإذن نحن قد تجاوزنا اليوم مرحلة المحافظة اللغوية إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الإصلاح اللغوي كما أننا تجاوزنا في الوقت نفسه مرحلة النخبة المتعلمة إلى مرحلة الجمهور المتعلم ، ولقد حفظ لنا أساتذتنا منذ أول هذا القرن لغة النخبة نقية صافية وقد آن الأوان أن نضع هذه اللغة بين أيدي الجمهور المتعطش لها ، على أن نقدمها له بسيرة مستساغة حتى تستطيع فعلا أن تروي ظمأه وحتى لا تتكشف له عن سراب .

إن أول ظواهر ما يمكن أن يسمى بالمشكلة اللغوية عدم وضوح الحدود الدقيقة للعربية الفصحى الحديثة . وان المرء ليتساءل : هل المقصود بالفصحى اليوم لغة الجرائد والإذاعة والزعماء السياسيين ؟ وما أبعدها عن النموذج اللغوي الذي يتطلع إليه المحافظون .

---

(١) أعني بذلك بعض الدعوات إلى تقسيم هذا البلد العربي أو ذاك حسب معايير طائفية أو إقليمية ، ومن الطبيعي أن تصحب هذه الدعوات محاولات التملص من اللغة العربية باعتبارها ركنا رئيسياً من أركان الوجود القومي للأمة العربية .

هل المقصود بالفصحى اليوم لغة أئمة المساجد وأساتذة أقسام اللغة العربية في الجامعات ومحققي كتب التراث ؟ وما أبعدها عن النموذج العملي الذي يدعو إليه المفكرون والعلماء والمهندسون من يرغبون في استخدام الفصحى .

هل المقصود بالفصحى اليوم لغة الترجمات المتداولة في الأسواق التي يمكن اعتبارها الزاد اليومي لشبابنا الراغبين في الاطلاع على العلم الأجنبي والثقافة الأجنبية والتحليلات السياسية عند الاجانب .

ومن المرجع في كل هذا ؟ (٢) أهم العلماء الأفاضل في مجامع اللغة العربية ؟ أم الباحثون الجادون في مكتب تنسيق التعريب ؟ أم مترجمو كتب جان بول سارتر وألبير كامي وكولن ولسون ؟

وبالطبع لا ينطوي هذا التساؤل على إنكار وجود اللغة العربية الحديثة (٣) ولكن السؤال هو أية لغة ؟ وفي وهمي أننا كنا أوفر حظاً حتى منتصف هذا القرن إذ كانت لغة الأديبين العظيمين طه حسين وعباس محمود العقاد هي المقياس المتعارف عليه . ولكننا اليوم نعيش مرحلة تكاد تفقد مقاييسها . أي من علماء اللغة وأساتذتها يرضى اليوم أن تكون لغة محمود درويش أو نزار القباني أو نجيب محفوظ أو يوسف ادريس هي المقياس .

ولا يستطيع المرء تجاهل وجود فروق طبيعية بين لغة السياسة ولغة الثقافة ولغة الحياة اليومية عند أكثر الشعوب ، ولكن المشكلة عندنا هي مقياس الصحة اللغوية ولا سيما في مجال التركيب والصرف واستخدام المفردات . ولم أذكر النحو لأن مقاييس النحو شديدة الوضوح في العربية ومع ذلك فما أكثر ما تكون عرضة للنقاش .

---

(٢) في سورية اليوم تجربة لغوية فريدة هي تجربة المسرح القومي الذي يلتزم باستخدام لغةعربيةسليمةوجميلةوغير متقعرة . وأذكر أنني حاولت اطلاع أحد إخواني من أساتذة قسم اللغة العربية بجامعة دمشق على هذه التجربة ، وهو من أبرز علماء اللغة العربية في عصرنا . وبعد أن شهدنا مسرحية (أوديب) معاً بعربية فصيحة لم تتخللها أية كلمة عامية حسبت أنه سيثني على التجربة ، ولكني فوجئت إذ سمعته ينتقد الأخطاء الكثيرة التي ارتكبتها الفرقة على المسرح . ولست أذكر الآن أمثلة دقيقة لهذه الأخطاء ولكنها في الأغلب من قبيل الخطأ الشائع كاستعمال فشل بدلا من أخفق .

(٣) وكذلك وجود (اللغات الخاصة) وفقاً للقطاعات الاجتماعية ، والملاحظ أن الاضطراب نفسه موجود على مستوى اللغات الخاصة أيضاً .

٤ — بعض جوانب المشكلة اللغوية :

ولو أننا أخذنا الوجوه الثلاثة لأية لغة واستعرضناها وقارنا بينها فيما يتعلق بواقع اللغة العربية لرأينا عجباً عجاباً . وأقصد بهذه الوجوه : الوجه العملي والوجه العلمي والوجه التربوي ، وفي هذه الوجوه الثلاثة تناضل اللغة العربية ضد ازدواجية منهكة وعقبات تعوقها عن الحركة والتطور الطبيعي ولنستعرض هذه الوجوه واحداً إثر الآخر .

آ — الوجه العملي :

على الرغم من أن اللغة العربية قطعت منذ مطلع هذا القرن حتى اليوم شوطاً مهماً في التداول باتجاه أن تكون اللغة العملية للحياة اليومية فانه من الصعب القول بأن العربية الفصحى تعتبر لغة الحياة العملية . وبالطبع لا أقصد لغة الحديث اليومية فذلك شيء لا يمكن التوصل إليه ولو جزئياً إلا من خلال رفع مستوى التعليم والثقافة بين الجماهير كماً وكيفاً . لكن المقصود هنا أن تكون العربية لغة التعامل اليومي الاقتصادي والسياسي والتعاقدي وههنا تكمن ازدواجية عجيبة من نوعها . نحن نفكر تجاريا ونتعاقد قانونياً ونحسب مالياً باللغة العامية تماماً ، ولكن حين يحتاج الأمر إلى توثيق خطي فنحن نترجم ما اتفق عليه ، وكثيرا ما يكون المترجمون غير المتعاملين لأن المتعاملين في الأغلب لا يستطيعون التعبير بالعربية الفصحى فضلا عن الكتابة بها ، ومن هنا يمكن تفسير غلبة التيار السماعي في جميع شؤون حياتنا اليومية . إن هذه الظاهرة — ظاهرة التيار السماعي — غريبة جداً بالفعل . ذلك أن معظم الناس في بلادنا — إن لم نقل كلهم — لا يؤمنون بما هو مكتوب إطلاقاً و (شقشقة الورق) التي تؤلف عقداً أو إعلاناً أو إعلاماً أو حتى نتيجة في جامعة أو معهد ليست إلا ورقة احتياطية من أجل (حالات الموت والحياة) . أما الأصل فهو التعاقد السماعي أو الشفهي وهو يجري بالعامية طبعاً .

ومن الحالات المألوفة جداً والمتكررة في كل ساعة من ساعات النهار بالنسبة لأي موظف مارس التعامل مع الناس أن يقصده المراجعون على اختلاف مستوياتهم الثقافية ليسألوه عن موعد مسابقة التعيين أو افتتاح اكتتاب لشراء سيارات أو شروط القيد والقبول في الجامعة مع أن هذه النواحي تكون قد عرضت تفصيلا في إعلانات أذيعت على المواطنين وألصقت على لوحات الإعلان وقرأها كل من يحسن القراءة . إن معظم الناس لا يصدقون ما هو مكتوب ويفضلون ما هو مسموع ، وبالطبع لهذه الظاهرة أسباب ثقافية واجتماعية ولا يمكن للإنسان

أن يتجاهل السبب اللغوي وهو أن التعاقد السماعي يتم باللغة العامية أي المفهومة والمتداولة بينما يتم التعاقد الكتابي باللغة الفصحى أي اللغة المحكمة والمعتبرة ولكن غير المستوعبة تماماً . ومرة أخرى ليس المقصود بذكر هذه الظاهرة الدعوة إلى العامية ولكن الدعوة إلى إيجاد وسائل وأساليب تمكننا من الاطمئنان فعلا إلى أن اللغة الفصحى هي لغتنا التي نفكر ونتعامل بها لا اللغة التي نحترمها ونترجم إليها .

وفي حياتنا العملية أكثر من مظهر من مظاهر الازدواج الرئيسي في استعمال العربية الفصحى وليس هذا المجال مجال استقصائه . ولكن لنفكر قليلا في اللغة التي نستعملها في مداولاتنا العملية . إن هذه اللغة بحد ذاتها ظاهرة معقدة يمكن أن تتخذ وحدها دليلا على ضرورة الإصلاح الذي يدعو إليه هذا البحث .

١ – إنها أولا لغة متفاوتة بين البلاد العربية وتحمل خطر تفسيرات متعددة مما لا يصح أن يوجد في لغة المداولات المالية والتجارية . وحتى تلك المعاملات التعاقدية التي تنبثق من أصول عربية قديمة تختلف من بلد عربي إلى آخر في مصطلحها وتركيبها ، ومثلا تكاد الوكالة التي يصدرها الكاتب بالعدل في بلد مثل (دبي) تكون غير مفهومة وربما غير مقبولة في بلد مثل سورية . وهذا إذا لم نضرب الأمثلة التباين بين لغة المشرق العربي ولغة المغرب العربي – وهي أمثلة صارخة – وإنني أتجنب عمداً إيراد مثل هذه الأمثلة لئلا تختلط مشكلة التعريب في المغرب العربي بمشكلة اللغة العربية الحديثة ، ذلك أن التعريب – وإن كان بالطبع وثيق الصلة بالمشكلة اللغوية – له وجه في التحليل والمعالجة مختلف نسبياً عما نحن بصدده .

٢ – وهي ثانيا لغة غير سليمة بدرجة كافية . ويعتورها من الخطأ اللغوي ما يمكن أن يغير من مضمونها ويقلب الأمور رأساً على عقب لولا أن الناس يأخذونها بمعانيها المتعارفة وبقرائنها وفي بعض الاحيان يستنتجون المعنى استنتاجاً . وان كل من يرتاب في ذلك مدعو لأن يأخذ أية وثيقة في قطر عربي وأن يحاول تفسيرها بمدلولاتها اللغوية ليجد أن الكلام قد يقود إلى غير المقصود . ولعل أبسط مثال لذلك هو الخطأ والاضطراب في كتابة الاعداد باللغة العربية ، وأنا أزعم أنني نادرا ما وقعت على نص غير أدبي كتبت أعداده بلغة عربية صحيحة ، وليست لدي خبرة بالمحاكم وشؤونها ولكني أسمع دائماً أطراف حديث عن استغلال بعض المحامين اللوذعيين لهذه الناحية ونجاحهم في التلاعب بتفسير النصوص لصالحهم .

٣ – تعاني لغة العمل الاقتصادي والصناعي والتبادل اليومي بوجه عام من قلق شديد في استخدام المفردات والمصطلحات وكذلك في التركيب على الرغم من أنها أحوج ما تكون إلى الدقة والضبط . وفي الأغلب تكون هذه اللغة ترجمة للغات الاجنبية محتفظة بطوابع الترجمة . على أن هذه القاعدة ليست عامة ، ويتفاوت القلق في لغة التداول العملي من بلد عربي إلى آخر وفقاً لتجربة التعريب فيه(١) وهناك بلدان عربية أصابت نجاحاً واضحاً في ضبط لغة التداول والتعاقد في حين أن هناك بلداناً أخرى مازالت تعتمد اللغة الاجنبية جزئياً أو كلياً . وهذا الكلام ينطبق على مستويات التعامل الحكومي والرسمي أما الشركات والمؤسسات الخاصة فلولا حاجتها إلى التعامل مع الحكومات التي تعتبر العربية لغة التعامل الرسمي لما أحجمت عن استخدام اللغة الأجنبية في معاملاتها ، وهو خطر موجودوقائم فيبلدان عربية كثيرة وفي مجالات كثيرة .

ب – الوجه العلمي :

من أبرز طموحات (٢) اللغة العربية في هذا العصر أن تكون لغة العلم والحضارة مثلما كانت خلال العصور العربية الزاهية . وقد بدأت العربية تجربتها الحديثة من الصفر تقريباً ، وحين أهلت النهضة في القرن التاسع عشر لم تكن الكتابة العلمية العربية شيئاً مذكوراً . ولكن سرعان ما أعادت العربية صلتها بماضيها المقطوع وانبرى نفر من كبار العلماء ينبشون عن التراث اللغوي العلمي ويحيونه ويضعونه موضع الاستعمال .

وتطورت التجربة اليوم ونمت وأخذت أبعاداً جديدة ولكنها ما زالت تعاني من صعوبات جمة وازدواجية مرهقة لابد من أن يأخذها بعين الاعتبار أي إصلاح لغوي .

(١) تعتبر التجربة السورية في هذا المجال نموذجاً يحتذى به،سواء من حيث ضبط المفردات أو من حيث سلامة التركيب اللغوي .

(٢) يخطىء اللغويون المتشددون جمع المصدر ، ولكن الضرورات العلمية للتعبير تدفع ممارسي الكتابة إلى تجاوز بعض الأوامر والنواهي التي يصدرها اللغويون . وهناك (استعمالات) أخرى في البحث الحالي من هذا النوع . والقاعدة العامة هي أن اللغوي يكون أكثر تشدداً كلما ابتعد من ممارسة الكتابة وأميل إلى المرونة والتسامح كلما عانى عملية الكتابة والتعبير .

آ – فهناك أولا تفاوت غريب جداً في المدى الذي بلغته التجربة في كل قطر من الأقطار العربية حتى أنه ليصعب إيجاد تصنيف لمستويات هذا المدى ، فهو يكاد يكون متدرجاً من عشرين بالمئة إلى خمسة وتسعين بالمئة إن لم نقل تسعة وتسعين .

فمثلا استطاع بلد عربي مثل سورية أن يحقق نسبة تقارب مئة في المئة في مجال استخدام العربية لغة للعلم حتى أصبحت جميع العلوم بلا استثناء تدرس في جامعات القطر العربي السوري ومعاهده باللغة العربية (١) .

---

(١) « لو أخذنا مثالا على ذلك تجربة الطب ، وهي من أصعب التجارب ، لوجدنا أن هناك شعوراً عاماً بنجاح هذه التجربة في سورية وافتخاراً بهذه التجربة الرائدة ، وفيما يلي مقتطفات من تقرير قدمته وزارة التعليم العالي في سورية إلى السيد وزير الدولة في اتحاد الجمهوريات العربية رئيس مجلس شؤون الثقافة والتعليم ، وذلك تحت رقم ٢٥٠٣/ت وتاريخ ٢٥/٤/١٩٧٥ حول تعريب الطب .

«نقدم مثالا حياً على طواعية اللغة العربية وقدرتها على الإحاطة وإساغة العلوم في الوقت الحاضر ، وإنها ليست عاجزة عن أن تكون لغة العلم والابتكارات ، لغة الطب والمخترعات. وهذا المثال يتجلى واضحاً في التجربة الرائدة التي حملت لواءها جامعة دمشق ، منذ ما كانت الجامعة السورية ، ولم يكن فيها آنذاك غير معهدين أحدهما للطب والثاني للحقوق . فقد قام في المعهد الطبي العربي ، منذ تأسيسه عام ١٩١٩ أساتذة نبشوا الكنوز اللغوية التي ألفت بها كتب الطب القديمة ، كقانون ابن سينا – وكامل الصناعة ، ومفردات ابن البيطار ، وتذكرة ابن داود وغيرها من الكتب العلمية أو اللغوية ، ووجدوا فيها ضالتهم لاختيار المصطلحات العلمية ، ومع ان معظم الاساتذة الذين اختيروا التدريس في هذا المعهد (الذي أصبح كلية فيما بعد) كانوا ممن تلقوا العلم في المعاهد التركية أو الفرنسية فقد شمروا عن ساعد الجد والعمل ونفذوا إلى صميم المعاجم المختلفة ووضعوا كثيراً من المصطلحات العلمية التي لم تكن موجودة . . . . . . »

« والآن وقد مضى على تأسيس كلية الطب أكثر من خمسين عاماً ، نجد ان أساتذة هذه الكلية ، قد وجدوا بين أيديهم ذخيرة لغوية ثمينة ، أغنوا بها خزانة الكتب الطبية العربية ، بما لا يقل عن ثمانين مجلداً في فروع الطب المختلفة ، وقد تخرج من كلية الطب ، عدد كبير من الأطباء ينتشرون في مدن الجمهورية السورية وفي كثير من البلاد العربية وهم يتحدثون عن الأمراض وأعراضها والأدوية المختلفة وفوائدها بلغة عربية مفهومة =

وبالمقابل هناك أقطار أخرى في المشرق العربي ، وأحسب أن السودان واحد منها ، تدرس معظم العلوم باللغة الأجنبية .

وهناك أقطار أخرى تدرس نصف العلوم باللغة الأجنبية ونصفها بالعربية ناهيك عن جامعات المغرب العربي التي ما زالت في مستهل التجربة . وينجم عن هذا الوضع ازدواجية مرهقة للطالب والمعلم والباحث ، ولعل أخطر ما يتمخض عنها هو عدم نمو المناخ العلمي العربي المشترك الذي يمكن الطاقات العربية من أن تتفاعل وتتعاضد لتقدم إسهاماً عربياً معقولا في دنيا العلم الحديث .

ب – وهناك شبه ازدواجية بين ممارسة التعليم العلمي باللغة العربية وأحياناً الكتابة العلمية الميسرة وبين ممارسة التفكير العلمي والبحث العلمي التي تتم غالباً باللغة الأجنبية . ذلك أن معظم العلماء العرب يتلقون تحصيلهم العالي في بلدان أجنبية وهناك يتمرسون بطرق البحث العلمي ويتصلون بأحدث النظريات العلمية التي تأخذ عادة وقتاً طويلا حتى تعرف في البلاد العربية باللغة العربية ، وفي بعض الاختصاصات الضيقة لا تكاد تجد طريقها إلى اللغة العربية وهذا يعني أنهم يستمرون ربما طوال عمرهم في تلقي المعارف العلمية باللغة الأجنبية وكذلك في كتابة الأبحاث العلمية الأصيلة بلغة أجنبية ، بينما يدرسون ويسهمون في الحياة العلمية المحلية باللغة

= وغنية بالمصطلحات التي علموها، وذلك إلى جانب معرفتهم لغة أو لغتين من اللغات الأجنبية. ومما ساعد كثيراً على ذلك ، وجود بعض المعاجم القديمة كمعجم شرف باللغة الانكليزية والعربية – ومعجم (كليرفيل) المتعدد اللغات ، ومعجم المصطلحات الطبية للاساتذة خاطر ، خياط وكواكبي ، كما ساعد أيضاً ما وضعته من الكلمات والمصطلحات ، مجامع اللغة العربية ، في القاهرة ودمشق وبغداد ، وأخيراً ما قام به مكتب تنسيق التعريب في المغرب باشراف العلامة اللغوي الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، وهناك معجم أخير قيم وضعه الاستاذ أحمد حمدي الخياط والمرحوم الاستاذ مرشد خاطر وهو لا يزال قيد الطبع ويشرف عليه ويتمه الدكتور هيثم الخياط ، ويضم هذا المعجم بين صفحاته كل ما يخطر على البال من كلمات ومصطلحات طبية أو علمية عامة » .

وقد صدر الجزء الأول من المعجم الذي يشير اليه التقرير عن وزارة التعليم العالي في العام ١٩٧٥ .

العربية جزئياً أو كلياً . وان الغالبية الكبرى من علمائنا تلجأ - كما هو معروف - (لا التعبير الأجنبي إلا المصطلح فحسب) كلما تعمق البحث ودق الاختصاص . إن هذه الازدواجية بالطبع موجودة لدى العلماء في بلدان كثيرة متخلفة وتصف متخلفة ولكنها - بسبب الظروف المختلفة للغة العربية - تتخذ في أقطار عربية كثيرة طابعاً حاديعوق عملية تطور لغة عربية علمية مرنة ودقيقة ووافية بالغرض.

جـ - وهناك أيضاً مسألة المصطلحات العلمية حيث تشتد الحاجة يومياً إلى صياغة مصطلحات مناسبة ولا سيما مع توسع الاستعمالات العلمية للغة العربية . ومن الواضح أن اللغة العربية تتجه اتجاهاً سليماً في هذا الصدد ، إذ أنها تتقبل عادة المصطلحات العلمية المألوفة عالمياً كالفيتامين والهرمون والأليرجيا والغنغرينا وتستنبط أو تحيي كلمات مناسبة للمصطلحات الأقل شيوعاً . وبفضل جهود مجامع القاهرة ودمشق وبغداد ومكتب تنسيق التعريب وجامعة دمشق وجامعات عربية مختلفة يمكن القول ان ذخيرتنا العربية من المصطلحات جيدة . ولكن مع ذلك ما يزال هناك خلاف كبير حول عدد من المصطلحات الأساسية ، كما أن هناك مصطلحات كيفية تتداول لفترة من الزمن ثم تحاول المؤسسات المسؤولة إحلال مصطلحات أدق محلها مما يثير إشكالات متعددة . وأن مسألة المصطلحات ليست أعقد جانب من جوانب المسألة اللغوية وإذا توافر مزيد من الجهود الجادة في هذا السبيل فإن من الممكن التوصل إلى الحلين الأساسيين لمسألة المصطلحات وهما :

١ - توحيد المصطلحات بين الأقطار العربية حتى نوفر على الناشئة بوجه خاص البلبلة التي تنجم عن تضارب المصطلحات .

٢ - استباق المصطلحات الكيفية والتعسفية وذلك بمبادرة المؤسسات المسؤولة إلى تغطية الاحتياجات المستمرة إلى مصطلحات جديدة مع إعطاء الأفضلية للنواحي العلمية الأكثر شيوعاً .

جـ - الوجه التربوي :

وهنا لب المسألة وجوهرها . وهنا التقصير الكبير والبلبلة المنهكة . ان أية لغة في العالم - مهما تبلغ درجة صعوبتها وتعقيدها - ممكنة التعلم والاتقان حين توجد الطريقة

التربوية الناجعة لتعلمها واكتسابها . ان اللغة العربية غير مخدومة تربوياً وطرائق تعليمها متخلفة وغير علمية وهي في هذا المجال من أتعس لغات العالم وأقلها حظاً . وان الانسان لايحتاج لروائز تربوية ولا احصاءات يستنتج ان سوية تعليم اللغة العربية في انحدار مستمر . وان الجامعات ودور المعلمين في جميع الأقطار العربية تفرز سنوياً اعداداً ضخمة ممن يفترض أنهم مختصون بتعليم اللغة العربية ، ومع ذلك تزداد نسبة (الأمية اللغوية) عند هؤلاء سنة بعد سنة ، ويستطيع أساتذة اللغة العربية في الجامعات أن يحدثونا طويلا عن أوراق امتحانات السنة النهائية المشحونة بالأخطاء وهلهلة التركيب ، ويستطيع هؤلاء الأساتذة أيضاً أن يحدثونا عن الأخطاء التربوية واللغوية التي يرتكبها معلمو أبنائهم وبناتهم في المدارس الابتدائية والثانوية . وان المسألة لا تنحصر الآن بالنواحي اللغوية الشائكة كالندبة والاختصاص والنداء . بل ان نواحي مثل عدم تنوين الممنوع من الصرف ونصب اسم ان المؤخر ورفع اسم كان المؤخر هذه النواحي ومثيلاتها تشكل اليوم بنداً ثابتاً في قائمة الأغلاط اللغوية التي يرتكبها عدد من أساتذة اللغة العربية . ولو أن الأمر مقتصر على هذه الناحية لهان تنبيأً . فهناك مسألة التراكيب والقدرة على التعبير والكتابة وكذلك القدرة على الالقاء أو المناقشة باللغة العربية .

ان هذه (المزايا) التي تتوافر لدى أي معلم في أي بلد من بلدان العالم لاتكاد تتوافر الا في القليل من الناس في بلادنا .

وحتى الآن جرى الحديث حصراً حول المختصين باللغة العربية ، أما المتخرجون الآخرون في فروع المعرفة المختلفة من الثانويات والجامعات فمن الواضح لكل من له اتصال بهذا الموضوع أنهم قد حسموا المسألة منذ سنوات بأن اعتبروا اللغة العربية لغة أجنبية لايفترض فيهم اتقانها بل معرفتها حديثاً أو كتابة أو القاء . ولولا المصححون اللغويون في دور الاذاعة والتلفزيون والصحافة لرأينا وسمعنا من اللغة ما يصعب أن ننسبه إلى العربية . وان المرء يرجو مخلصاً أن يكون هذا الحكم من قبيل المبالغة ولكن يخشى أن يكون الواقع أشد مرارة مما ذكر (١) .

---

(١) من أعجب ما حدث مع صاحب هذه السطور أنه كان يدرس العربية في إحدى الجامعات الأوربية ، واكتشف بنتيجة التجربة أن كثيراً من الأخطاء التي يقع فيها الطلبة الأوربيون ناجم عن اتصالهم بالطلبة العرب واعتقادهم أنهم يجب أن يستقوا منهم ويستفيدوا . وبدلا مما ينبغي فعله دائماً وهو توجيه الطلبة إلى الاتصال بأبناء اللغة التي يراد تعلمها ، جرى توجيه الطلبة الأجانب إلى تجنب الطلبة العرب لئلا يقعوا في البلبلة .

وبالطبع ليس القصور ناجماً فقط عن عدم تطوير أساليب ناجعة لتعليم العربية ، فهو مرتبط بتدني الناتج التربوي في المدارس والجامعات العربية ، كما أنه في جزء منه يعود إلى كون اللغة العربية غير مخدومة لغوياً مما سوف يجرى بحثه فيما بعد .

وخلاصة القول هنا أن أساليب تعليم اللغة العربية القائمة حالياً وكذلك الظروف التربوية والاجتماعية لتطبيقها تكاد تؤدي إلى وضع العربية في موضع (لغة أجنبية) يدرسها الطالب ليحصل على علامة النجاح فيها لا ليكتسبها كسلاح يمارسه في معركة الحياة .

٥ ـ العربية غير مخدومة لغويا أيضاً :

نحن نتحدث دائماً عن لغتنا العربية الجميلة ، وبملء أشداقنا نتغنى بأمجادها وفضائلها ، فهي أم اللغات وزينتها ، وأغناها بالمفردات وأقدرها على التوالد عن طريق الاشتقاق وأحلاها جرساً وأجلاها بياناً وأقربها إلى الأصل والطبيعة وأنظرها شباباً مع ذلك . وهي اللغة المقدسة التي نقرأ بها آيات الله البينات ولغة العبادات والصلوات وهي لغة أهل الجنة أيضاً .

وهي لغتنا القومية وعامل وحدتنا وعروبتنا ووزينة ثقافتنا الأصيلة وحامية تراثنا وحضارتنا وواسطة اتصال ماضينا بحاضرنا ، ولغة شعرنا ونثرنا وهجائنا ومدحنا وغزلنا أيضاً ، وغير ذلك وغير ذلك . وكل أولئك حق وأ كثر . ولكن بالمقابل ماذا عملنا حتى الآن لحفظ هذه اللغة ولصيانتها ولتطويرها ولتمكينها من مجابهة ظروف الحياة المستجدة ولدعمها لتقوى على الصمود أمام منافسة اللغات الحية في هذا العالم الذي لايرحم .

لقد رأينا سابقاً إلى أي مدى نحن مقصرون في خدمتها تربوياً . والآن نقول ان التقصير الأشد فداحة هو العجز عن خدمتها لغوياً (تقنياً) . ان أبناءنا لايقبلون على اللغة العربية نعم ، ولكن ليس لأنهم جاحدون وطائشون . انهم كأترابهم من أجيال العالم المعاصر « يتعلمون بشكل أفضل ما يحبونه أكثر » وعلينا أن نجعل اللغة العربية محببة لهم عن طريق خدمتها تربوياً ولغوياً .

وهنا نكون قد وصلنا إلى الناحية الحساسة . اذ ما المقصود بتطوير اللغة وخدمتها ؟ أليس هناك خطر من أن تلتقي هذه التساؤلات مع الدعوات الحاقدة على اللغة العربية ؟ كما أوضحت في مستهل هذا البحث أرى أن المرحلة التي نعيشها الآن ليست مرحلة المحافظة على اللغة العربية لمجرد بقائها في وجه القوى التي تريد الاطاحة بها . لقد تجاوزنا هذه المرحلة بنجاح

والمرحلة اليوم مرحلة المحافظة على اللغة العربية عن طريق خدمتها وتطويرها واصلاحها ولست أتجاهل وجود اتجاهين واضحين في هذا المجال ، وان لكل من هذين الاتجاهين حججه السليمة ، وباختصار يرفض الاتجاه الأول أي تعديل أو تبديل أو تحوير أو تطوير بشأن اللغة التي وصلتنا عن الأوائل ويعتقد أنصار هذا الاتجاه أن العيب فينا نحن لافي لغتنا ومتى أصلحنا نفوسنا صلحت لغتنا ، وأن أي مساس جانبي باللغة العربية في وضعها الحالي يؤدي حتما إلى الاجهاز عليها في المستقبل مهما اختلفت الأعذار والذرائع الاصلاحية التي قد تقدم بين يدي هذا الغرض .

والاتجاه الثاني ، وهو اتجاه الأغلبية الصامتة ، فيما أتوهم لايمانع في ادخال إصلاحات لغوية وتطوير العربية باتجاه السهولة والمرونة أسوة باللغات الحية في العالم .

ولكن أنصار هذا الاتجاه يختلفون فيما بينهم كثيراً في الحدود التي يذهبون إليها ،فبعضهم يرى الاكتفاء بالاصلاحات البسيطة وبعضهم يرى الذهاب إلى درجة ادخال تعديلات على القواعد العربية من مثل ايجاد طريقة أسهل لكتابة الاعداد وتوحيد بعض جموع التكسير وايجاد حل لمشكلة الممنوع من الصرف الذي لم يعد أي طالب من طلابنا يتقن منعه الا من رحم ربك وقليل ماهم .

ومع الأخذ بعين الاعتبار حجج كل من الاتجاهين دعونا نتجنب الخلافات الشائكة ، وانها لشائكة هنا لأن اصحاب كل اتجاه ينظرون إلى الاتجاه الآخر بريبة ولا يعدمون عشرات الاتهامات ليلصقوها بالطرف المقابل ومن أخفها التحجر العقلي والجمود من وجهة والمروق الديني والخيانة القومية من جهة أخرى .

إذن لنتجنب هذا الخلاف الشائك – وبصعوبة ما نفعل ذلك – ولنرفع صوتنا بشعار واحد هو : لنخدم اللغة العربية ، وخدمة مشروعة أيضاً . لنخدمها كما تخدم سائر اللغات . أن لغتنا تعيش بلا صيانة مع الأسف وأكبر دليل على ذلك :

١ – ليس هناك معجم عصري للغة العربية من مختصر أو متوسط أو مطول ، مما يمكن أن يعتبر مرجعاً معترفاً عليه ومقبولا من الجميع كما هو شأن (لاروس) فرنسا أو (أوكسفورد) انكلترا . وكيف يتعلم طلاب العربية وهواتها ومختصوها إذن . ان مراجعة القاموس المحيط مثلا يحتاج إلى معرفة جيدة بالساحة اللغوية بل بالغوص على الآلىء . ومنذا يستطيع أن يوفر الوقت لذلك من أبنائنا .

٢ – ليس هناك معجم تاريخي يستطيع أن يساعد طالب اللغة ومتذوق النصوص والدارس على معرفة عمر المفردات العربية وكيفية استعمالها في القديم والحديث والتطورات التي طرأت على معانيها أو ايحاءاتها بحيث يتجنب الشادن اسقاط مفهومات حديثة على مفردات مستعملة في نصوص قديمة أو العكس .

٣ – ليست هناك دراسات صوتية مرضية حتى الآن ، ونحن في هذا المجال نكاد نكون في آخر قائمة الأمم .

٤ – ليست هناك دراسات كافية حول شيوع المفردات ونسبة هذا الشيوع (مع الاعتراف بوجود محاولات مبدئية من هذا النوع في بعض الأقطار العربية) .

٥ – ليست هناك دراسات كافية حول تركيب الجملة في العربية ولا حول أساليب التعبير سوى الدراسات النحوية التقليدية . وقس على ذلك .

والغريب في الأمر ان الدراسات اللغوية في العالم تتخذ مجرى جديداً وتتقدم بسرعة مذهلة ويشارك فيها اليوم علماء اجتماع وعلماء نفس ومختصون بالصوتيات . ومع ذلك ليس في البلاد العربية – على حد علمي – سوى معهد لغوي واحد ذي طابع حديث هو معهد اللسانيات في الجزائر .

ان الفصل في الاتجاهين المذكورين سابقاً قد يحتاج لمؤتمرات تعقد ومناقشات تتالى ، ولكن هناك خدمات لغوية كالتي ذكرت سابقاً لاتحتاج إلى خصومة . وأنا أبعد ما أكون عن انكار الجهود الكريمة التي تبذلها مؤسسات عريقة مثل مجامع دمشق والقاهرة وبغداد ومؤسسات حديثة مثل مكتب تنسيق التعريب . ولكن خدمة اللغة العربية تحتاج لمعاهد بحث علمي أكثر تخصصاً وأفضل تجهيزاً ، وإذا لم تدخل الأجهزة العلمية الحديثة في دراستنا اللغوية نكون كمن يطلب من جيوشنا أن تصمد أمام الأعداء بالفأس والحجر .

٦ – لماذا لا نبدأ بأهون السبل ؟

وبالاضافة إلى ذلك هناك أشياء أخرى ليست في صميم اللغة نفسها ويمكننا أن نتداول بشأنها لعلنا نستطيع أن نخرج بحل (تقني) لها ، وما أكثر الحلول المتوافرة في عصرنا وأهمها مسألتا :

الكتابة والاملاء

لقد آن الأوان لان نعترف بأن العربية في شكل كتابتها الحالي تحتاج إلى جهد خاص واعداد خاص في الكتابة . ان على قارىء أي نص غير مشكول ان يفهم النص قبل أن يقرأه والا كيف يرفع الفاعل وينصب المفعول . لقد فقدنا السليقة اليوم والذنب ليس ذنبنا ، وأصبح من الصعب حتى على المختصين أن يقرؤوا على ملأ من الناس نصاً طويلا دون سابق تحضير وبالسرعة الطبيعية التي يقرأ بها الناس في رحاب المعمورة . وندر من الناس من لايخطىء أثناء القراءة وأندر منهم من يستطيع ارتجال الكلام بلغة عربية صحيحة مع أن مثل هذه الممارسات تعتبر أموراً عادية عند مختلف الأمم . وهناك بلدان قليلة في العالم تعطي مسألة اتقان القراءة واجادة الحديث باللغة السليمة وحسن الالقاء من الأهمية ومن الجهد ما نعطيه نحن . وكم من غبي في بلادنا استطاع أن يلفت إليه الأنظار وينال الاعجاب لمجرد وجود مواهب لغوية خاصة عنده . ان هذه المواهب لاتقوم بنفسها في البلدان المتقدمة وهي مجرد وسيلة مستحبة للكشف عن التفكير السليم الذي هو الأصل .

اذن لنحاول ان نعيد النظر في طريقة الكتابة ، دون أن نتخلى عن حروفنا الأصلية ، حتى نستنبط طريقة تتيح للانسان أن يقرأ لكي يفهم وتزيل الالتباسات والاحتمالات المتعددة لقراءة الجملة الواحدة بل الكلمة الواحدة(١). ان هذا الأمر لايحتاج إلى مسابقة في الجرائدلوضع تصاميم متسرعة ولكنه يحتاج إلى مركز بحث علمي تجريبي تسهم فيه مختلف الأقطار العربية وليكن في رحاب احدى جامعاتنا المقتدرة . وليس لدي شكل معين اقترحه ولكن يتمنى المرء أن لاتبتعد أية طريقة مقترحة ابتعاداً قوياً عن كتابتنا الحاضرة وذلك تجنبا للبلبلة ، وما أظن ذلك الا ممكناً .

أما فيما يتعلق بالاملاء فالمسألة قد تكون أسهل وأقل خطراً من نواحي الاصلاح الأخرى . على الرغم من أن الممارسة الواقعية تشير إلى أن اغلاط الاملاء أصبحت هي الأصل والصحة هي الفرع . ان الحاق الألف بواو (ترجو ويدعو ومعلمو) وقصر ألف (دعا وسما) ، ووضع

(١) إن الخوف من اللبس الذي يحصل أثناء قراءة النص غير المشكول يجبر الكتاب على تجنب كثير من الكلمات والصيغ والاستعاضة عنها بكلمات قد تكون أقل إبانة ولكنها أيسر للقراءة . ويمكن أن تكون هذه الظاهرة موضع دراسة لغوية دقيقة . ويخيل إلي مثلا أن صيغة الفعل المبني للمجهول تتراجع بالتدريج نتيجة لما قد ينجم عن استعمالها من لبس .

الألف بعد الهاء في (هؤلاء وههنا) أصبحت من الأخطاء الشائعة التي يفاجأ الانسان إذا لم يجدها في أوراق امتحانات طلاب اللغة العربية أو في رسائل الأصدقاء أو في طلبات الاستخدام . ومن المعروف أن هناك محاولات سبقت في هذا المجال ولم يكتب لها النجاح لأن الجو لم يكن مهيئاً ولأنها اعتبرت حصان طروادة للغزو اللغوي الشعوبي .

ولكن اليوم يصعب أن نغض النظر عن المطالبة بمثل هذه القضايا التي لاتمس جوهر اللغة . ولقد انتشر التعليم في بلادنا بين الجماهير ولم يعد مقصوراً على النخبة ، ولذلك ليس من المفروض في سائق السيارة ان يكتب كلمة دعا بالألف ليتذكر أصلها الواوي أو يسقط الألف (بكسر اللام لا تسكينها) من مئة لأن ظروف القدامى شاءت ذلك .

اني هنا أذكر أمثلة فقط ، وعلى الاختصاصيين كمجموعات لا كأفراد يقوم عبء دراسة الطرق الأجدى والأنفع . ومن الواضح أن هذا العرض لايحمل فتحاً مبيناً ولا يبشر بجديد ، فكل ما ذكر أصبح معروفاً تلوكه الألسن، ولكن الذي تنادي به هذه الكلمة هو مباشرة الإصلاح من السبل الأقرب والأكثر قبولاً ، وترك هذا الإصلاح لأهله من المختصين ، على أن يعقد لهم الأمر بإجماع الكلمة العربية أو ما شابه إجماعها وعلى أن يكون الجهد مشتركاً ومنظماً وهادفاً إلى النتائج العملية (١) .

ان هذه النهضة العظيمة التي يباشرها المواطن العربي بكل قوته ، وان جو التعاون في مجالات الثقافة والعلم والإدارة والاقتصاد ، وإن الغيرة الواضحة على اللغة العربية التي يلمسها المرء في كل مكان . كل أولئك يشير إلى أن الوقت مناسب لبدء الحملة الإصلاحية المنشودة .

وإذا نحن لم نفعل شيئاً خلال هذه الفترة فإن العربية ستستمر في الانحدار وقد تصل إلى نقطة يكون الاصلاح عندها متخلفاً عن أوانه .

★ ★ ★

(١) لا ننكر في مجال طرق تدريس اللغة العربية الجهود التي بدأت تبذلها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – انظر مثلا النشرة التي أصدرتها المنظمة بعنوان :

« اجتماع خبراء متخصصين في اللغة العربية » عمان ، ٢ – ٧ تشرين الثاني ١٩٧٤ » .

محمود منقذ الهاشمي

تحديث اللغة العربية

لعل الخطر الأول الذي يواجه الباحث في تحديث اللغة العربية هو ما يخلعه بعضهم على اللغة من القداسة ، حتى ليبدو أنهم يصدرون في نظراتهم إليها من الاعتقاد البدائي في أنها إلهية المنشأ ، ذلك الاعتقاد الذي عاش عند كثير من البدائيين في كثير من الأمم . ولم يقتصر الأمر على الشعوب القديمة ، بل لقد وجدنا عند بعض العلماء السويديين في القرن السابع عشر من قال إن الله يتكلم السويدية في جنات عدن بينما يتكلم آدم اللغة الدانيماركية والأفعى تنطق بالفرنسية(١) .

فإذا تجاوزنا هذا التصور البدائي للغة ، وقفنا على ما للغة في الحقيقة من هيبة وجلال . فهي من التراث ، وهي حافظة للتراث ؛ إنها عنصر من عناصر قوميتنا ، وهي مستودع لما في قوميتنا من عناصر أخرى

(١) Pei , Mario : The Story of Language, Mentor Books, N.Y. 1960, P. 15

كالتاريخ والعقائد والآلام والصبوات التي عبر عنها تراثنا في عصور مختلفة . على أن مايجدر بنا أن ننوه به هو ضرورة الفصل بين ماهو مطلق في التراث وما هـــو نسبي ، ما هو أزلي ثابت على الزمان ، وما هو نسبي متغير باستمرار .

واللغة نسبية ، أوجدتها الحاجات الإنسانية والعلاقات الاجتماعية ، وتتجدد وتتغير متناسبة مع تجدد الحاجات والعلاقات وتغيرها . إنها بالمصطلح الداروني « تتطور » ، مع مراعاة أن تطورها هو جزء من التطور الاجتماعي حيث ان تطور اللغة العربية لا يقاس بتطابقها مع لغة متطورة غيرها ، لأن لكل لغة حياتها وتاريخها الخاص الذي نشأ نتيجة للتطورات الداخلية التي حدثت في تلك اللغة وحدها وكذلك نتيجة للتأثيرات الغريبة الطارئة التي تعرضت لها من الخارج .

ليس في اللغة العربية ، ولا في غيرها ، ما هو ثابت ساكن ، وكل ما فيها يخضع في النهاية لمبدأ « البقاء للاصلح » . وليس للغة سكون إلا بسكون الحياة . إلا أنني لا أدري كيف يحلو لبعضهم أن يتحدث عن الثبات في اللغة العربية ، كالثبات على الحركات الثلاث وهي الكسرة والضمة والفتحة ، وربطها بماثبت من عبادة الآلهة الثلاثة اللات والعزى ومناة ، وتعليقها بالزمر الثلاث وهي الإنس والجن والملائكة ، كما فعل ريمون طحان في مقالته « الثوابت في اللغة والفكر »(١) .

وفي نهاية مقالته يبين لنا غايته وهي « كشف صفات وسمات ثابتة ثبوت الدهر » . ومن المؤكد أن المرء لن يخرج من مقالة الطحان بتعليل

---

(١) مجلة « مواقف » — العدد ١٥ — أيار ، حزيران ١٩٧١ .

لذلك الثبات الأزلي الذي يدعيه لفكرنا ولغتنا ، إلا بسر التثليث الذي لا يعرف كنهه إلا الله . ففي اللغة العربية ثلاث مدات فقط هي الألف والواو والياء ، والساميون ومن جاء بعدهم من العرب قد تصوروا « الإله من خلال ثالوث فلكي يتألف من آب وأم وابن فالإله الآب هو القمر والأم هي الشمس والابن هو النجم الثاقب » . فهذه هي إذن ثوابت الفكر العربي ثبوت الدهر . لم ير العربي القمر جرماً في الفضاء تطؤه قدم الإنسان ، ولم يدرس المجموعات الشمسية وحياة النجوم ! فإذا كان اجتماع بضع أمثلة ثلاثية ، جعله يجنح إلى هذا التعليل الساذج ، فماذا يقول لوقرأ أمثلة أكثر على الإفراد والتثنية والتسبيع ؟ إن الدكتور عمر الدقاق قد قدم لنا في مقالته « منزلة العدد « ٧ » في الفكر العربي »(١) أمثلة عديدة جداً على السباعيات في تاريخنا الفكري القديم ، ولكنه لم ينته من ذلك إلى ثبات فكر وجمود لغة ، لأنه يبحث في التاريخ لا في الغيب والمستقبل .

هيهات أن تسكن اللغة أو يثبت الفكر إلا بسكون الحياة . وحتى المدات لم تعد ثلاثاً فقط في اللغة العربية الحديثة ، ففي كثير من الكلمات المعربة نقرأ الواو كما نقرأ الحرف « O » في اللغات الأوربية ، ك « الجيولوجيا » و « الأنثروبولوجيا » و « الماسونية » و « الرومانتيكية » و « الكوميدية » وغير هذه من الكلمات التي تستعملها اللغة العربية اليوم. كما من يصغي إلى كسرة الهاء في مثل « ذاهب » يجد أنها في حال سكون الباء غيرها في حال تحريكها ، فالكسرتان غير متماثلتين سماعياً ، وكذلك الأمر في كثير من الكلمات .

---

(١) مجلة « عاديات حلب » – الكتاب الأول ١٩٧٥ .

ومما نراه في تجدد اللغة العربية ما شاع في الكتابة الحديثة من استعمال الأسمـاء صفـات دون مراعـاة التأنيث أو الافراد والتثنية والجمع في بعض الأحيـان ، وهو أمر لم تألفه العربية من قبل ، فمن ذلك : « الشعب الثورة » و « الأمة الأمل » و « اللغات الجسر » وغير ذلك من التراكيب التي نجد الكاتب فيها يقرر تعادل الشيئين ، أو اتحاد طبيعتهما ، بحيث يحتل كل منهما محل الآخر في خيال الكاتب وجملته . وهذه العملية هي نفسها مبدأ خلق الأساطير .

ومما نراه كذلك هو الاستغناء عن حروف العطف في كثير من الأحيان التي لم يكن الشاعر القديم يستغني عنها ، والذي شاع في الشعر الحديث ، واستساغته الأذن العربية واستعذبته كما نجد في قول الشاعر خليل حاوي :

تحدو تدور ، تروغ زوبعة طروب (١) .

أو قوله :

كذبتُ ، كذبتُ
جروني إلى الساحات ، عروني
اسلخوا عني شعار الجامعه (٢)

ولعل من أبرز مايظهر على اللغة العربية الحديثة هو فناء كلمات كثيرة وعدم استعمالها اليوم ؛ واستحداث كلمات جديدة عديدة . فمجمع اللغة العربية في القاهرة ، قد ترجم وعرّب وحده إلى الآن

(١) « الناي والريح » – بيروت ١٩٦١ – ص ٣١ .
(٢) نفسه ص ٢٥ .

مايزيد على عشرين ألف مصطلح (١) . وهناك نشاطات المجامع العربية الأخرى ، والهيئات العلمية المختلفة ، والأفراد .

ويشير أحمد شفيق الخطيب إلى أن القاعدة المنطقية في الترجمة والتعريب هي أن ماهو أصيل في اللغة المنقولة « يترجم » ، أما الألفاظ العالمية التسمية والمشتقة من اليونانية أو اللاتينية ، أو الموضوعة تخليداً لذكرى عالم أو مخترع ، أو المركبة من أحرف متعارف عليها دولياً « فتعرب » كما هي (٢) .

فالمازوخية (٣) مثلاً ، قد وضعت تخليداً للروائي النمساوي « ليوبولدفون زاخر ــ مازوخ » Leopold von Sacher - Masoch (١٨٣٦ ــ ١٨٩٥) الذي وصف هذا الانحراف وصوره في رواياته. لا لأنه كان مصاباً به كالسادية التي كان « ساد » مريضاً بها (٤) ، وشأن هذه الكلمة أن تعرب لا أن تترجم .

والدكتور ابراهيم أنيس يرى أنه أجدر بنا « أن نترجم المصطلح الأجنبي إلى مصطلح عربي ، فإذا عزت الترجمة ، أو ظهر أن المصطلح الأجنبي قد أصبح بمثابة علم على أمر خاص ، وأن معظم اللغات في العالم المتمدين تستخدمه ، لم نتردد في اقتراضه وصبغه بالصبغة العربية ،

---

(١) راجع مقالة أحمد شفيق الخطيب : « وضع المصطلحات العلمية وتطور اللغة » ــ مجلة « اللسان العربي » ــ يناير ١٩٧٢ .

(٢) نفسه .

(٣) بعض الكتاب العرب يكتبون هذه الكلمة « المازوكية » أو « الماسوشية » وهو خطأ ناشيء عن الجهل باللفظ الألماني لهذه الكلمة الألمانية .

(٤) جاء في كتاب الفقيد الدكتور سامي الدروبي « علم النفس والأدب » ص ١١٤ : « مازوخية مازوخ » ، وهذا توهم لعله نشأ قياساً على « سادية ساد » .

على نحو ماقام به أجدادنا العرب حين اقترضوا ألفاظاً من لغات أخرى، دون أن يحسوا في هذا بغضاضة ودون أن تسيطر عليهم عقدة النقص إزاء تلك اللغات(١) .

إلا أن المدقق في أمر ترجمة المصطلحات وتعريبها يجد أن هذه العملية تتعثر في كثير من الأحيان بالفردية الحادة التي يعاني منها بعض المترجمين . فمثل هذا المترجم يجد أنه يحقق تفرده بابتداع لفظة جديدة للمصطلح ، لا باستخدام جديد له يسير به وبنا إلى أفق جديد من آفاق المعرفة . وهكذا كلما أبشرنا بتوثب حضاري جديد ، نجد أنفسنا نقع في أحبولة من جدل لفظي لاطائل وراءه .

وليت هؤلاء المترجمين يحققون فرديتهم اللفظية في إيجاد ألفاظ لمصطلحات لم يسبقهم إليها أحد ، فإنهم بفرديتهم هذه يظلون محتفظين بعضويتهم في المجتمع ومصدر فائدة له ، ولكنهم – للأسف – لا يجدون فرديتهم إلا بالخروج على الجماعة .

يقول ت . س . إليوت : « إن المجهود المتواصل وحده هو الذي يمكننا من أن نصبح أفراداً في المجتمع بدلاً من أن نكون مجرد أعضاء في جمهور منظم.ومع ذلك فإننا نظل أعضاء في هذا المجتمع المنظم حتى عندما ننجح في أن نصير أفراداً » .

إن هؤلاء المترجمين لا يكفون عن تقديم ألفاظ جديدة لمصطلحات معروفة شائعة ، وعملهم لا يسهم إلا في بلبلة القراء وحيرتهم ، حتى ليحسبون أنهم بإزاء مصطلحات مختلفة إذا هم بإزاء مصطلح واحد .

---

(١) مجلة « مجمع اللغة العربية » – يناير ١٩٦٩ .

فالقلة القليلة من المثقفين هي التي تعلم أن « العقل الباطن » و « اللاشعور » هما الشيء نفسه ، وأنهما ترجمتان لكلمة واحدة هي Unconscious ؛ وسبب هذا التعدد هو إما غلبة النزعة الفردية عند المترجمين أو عدم الاطلاع (١) . وقد أشار الدكتور اسحق رمزي إلى أن الصواب في ترجمة هذه الكلمة هو « اللاشعور » ، وقال : « ومن الخطأ استعمال عبارة « العقل الباطن » كما جرى على ذلك كتاب الجماهير في اللغة العربية » .

إلا أننا بدلاً من توحيد مصطلحاتنا ، ومن تركيز جهودنا في استخدام هذه المصطلحات لا في الجدل اللفظي ، نجدنا ما نزال نبتدع ألفاظاً جديدة لمسميات معروفة. فهل نحن بحاجة إلى أن نكرر هذه المسلمة وهي أن الكلمة بمعناها الاصطلاحي لا علاقة لها بمعناها اللغوي مهما تباعد المعنيان أو تقاربا ، وأننا نتلمس المعنى الاصطلاحي عند العلماء الذين اصطلحوا عليه ، فنبحث عن المعنى السيكولوجي عند أمثال واطسون وأيزنك وإريك فروم ، لا عند ابن منظور ! !

إن تفرقنا في المصطلح هو وجه من وجوه تفرقنا في المجالات الأخرى . واختلافنا على المصطلح الذي لا تشبهنا فيه أية أمة من أمم الأرض ، هو الذي وضعنا في تلك الحالة المعيبة في مؤتمر بودابست للأدب المقارن ، الذي انعقد في صيف هذا العام ، ووقفنا فيه لا نكاد نتفق على مصطلح واحد .

---

(١) لعل عدم الاطلاع هو من السبب الأول وليس مستقلا عنه . إذ كثيراً ما يكون مثل هذا المترجم متمركزاً حول الأنا يعتقد أنه مركز العالم ، فلا حاجة به إلى أن يطلع على جهد غيره ، وإنما المهم جهده وما يراه وحسب .

وكنت قبل نيف وستين قد أشرت إلى هذه الظاهرة في مقالتي « دراسة في نقد الرواية » حين قلت : « والخلاف بين الفترتين أن المصطلحات التي عربها العباسيون أو ترجموها كالفلسفة والمنطق وسواهما ، سادت دون خلاف بينهم ، بينما نرى العرب المحدثين لا يتفقون على اسم واحد للمسمى الواحد . فيطلق بعضهم « الرومانتيكية » وبعضهم « الرومانطيقية » وبعضهم « الرومانتية » وبعضهم « الرومانسية » وغيرهم « الإبداعية » مقابل كلمة Romanticism دون أن يتفقوا على كلمة واحدة مما ترجم أو عرب . »(١) .

وقد يتساءل المرء : إلى أي حد يمكن للغة العربية أن تغتني من التجارب الجديدة للشعراء ؟ هل يمكن أن تكتسب الكلمة معنى جديداً أو حالة لم تكن مطروقة من قبل ، قياساً على ما استحدثه الشعراء ؟

ولقد أخبرني الصديق عبد الوهاب الصابوني ، وهو من المدرسين القدامى للغة العربية في حلب ، أنه قد وقع في إحدى السنوات خلاف بينه وبين الشاعر عمر أبي ريشة حول كلمة وردت في إحدى قصائده ، قال الصابوني بخطئها وأنكر الشاعر ذلك وأصر أنه مصيب ، فاحتكما إلى قواميس اللغة العربية ، فلما تبين للصابوني أن القواميس تؤيده ، وقف من الشاعر وقفة المنتصر طالباً إليه ألا يعاند في الحقيقة ؛ ولكن الشاعر ظل مصراً على أنه لم يخطىء ، وصاح غاضباً : « ماذا؟ ألم تجدوها في قواميسكم؟ أضيفوها إذن إلى قواميسكم ، وقولوا : لقد قالها عمر »

(١) مجلة « المعرفة » آب ١٩٧٤ .

ويبدو لي من هذا الخبر أن فيما يقوله عمر أبو ريشة وجهاً من الوجوه المعقولة . فلماذا لا نكتسب استعمالاً جديداً ، إذا أرضانا ، ونضيفه إلى لغتنا ؟ إن اللغات العالمية تفعل ذلك ، وتتجدد باستمرار . فلو بحثنا في قاموس « لاروس » الفرنسي مثلاً عن كلمة Burgrave لقرأنا ما يلي :

« اسم أعطي في العصور الوسطى للمقدم العسكري في مدينة أومكان حصين في ألمانيا . . . ومنذ أن قدمت مسرحية ف . هوغو (Les Burgraves) أعطي الاسم غالباً للأشخاص المسنين، من ذوي الأفكار المتخلفة . »(١) .

هذا مثال من الأمثلة العديدة في اللغات العالمية . ولكن فيما يقوله الصابوني كذلك وجهاً من الوجوه المعقولة ، فليس للشاعر أن يفرض على اللغة ما يراه. إنه يكتب ، وللغة أن تقبل أو ترفض ، والذي يقرر ذلك إنما هو التداول من جهة ، والهيئات العلمية من جهة أخرى .

ليس للجماعة أن تتجاهل الجهد والابتكار الفرديين ، وليس للأفراد أن يضربوا صفحاً عما يمثل الجماعة من الهيئات والمؤسسات. وهنا نعود من جديد إلى مشكلة الفردية ؛ وهي ليست على ما يبدو بالمشكلة السهلة .

وفيما يشيع في اللغة العربية اليوم نجد ما هو دخيل ناب ، وما هو أصيل كأنما استحدثته فطرة صافية سليمة ، كما في كلمة « التبرير »

(١) Nouveau Larousse Universel - Paris, 1955

التي شاعت في العصر الحديث . لم يكن مستخدموها يعرفون وجه الصواب فيها ، وكثيراً ما كانوا يتراجعون عن استخدامها حين يقال لهم إنها خطأ والصواب « التسويغ » حتى جاء مجمع اللغة العربية في القاهرة فأقر استعمالها في مؤتمر الدورة الرابعة والثلاثين . جاء في قرار المجمع :

تحقيق استعمال كلمة « التبرير » :

في المعجم: « برّ حجّه : قُبل ، وتضعيفه برّره : جعله مقبولاً » ، ومن ثم ترى اللجنة إجازة ما شاع من استعمال التبرير في معنى التسويغ ، استناداً إلى قرار المجمع في قياسية تضعيف الفعل للتكثير والمبالغة (١) .

ولتداول الكلمات والاستعمالات التي استحدثتها الترجمة إلى العربية وجهان : وجه التشويه والركاكة كما في ترجمة For a year إلى « لسنة » بدلاً من « سنة » أو « مدة سنة » ، و influence on إلى « التأثير على » بدلاً من « التأثير في » ، ووجه الإغناء ، واللغة العربية الحديثة مدينة في ذلك لمترجميها المبدعين . ويلوح لي أن المترجم يقع في بعض الأحيان في المفاضلة بين شيئين ، ومن الطبيعي أن مثل هذا المترجم يعرف الشيئين حتى يفاضل بينهما . ولكننا نصادف في كثير من الأحيان من لا يعرف سوى وجه واحد ، فلا يكتب الشيء اختياراً ، وإنما فرضاً وانصياعاً .

وفي أثناء ترجمتي لبعض القصص القصيرة ، رأيت أننا — عادة —

(١) مجلة « مجمع اللغة العربية » — يناير ١٩٦٩ .

نستخدم طريقة القرن التاسع عشر في الحوار وهي وضع الخط الصغير قبل جملة الحوار بعد فعل من أفعال القول أو بدونه . وبعض من كتّابنايقلدون الكتّاب الأجانب بوضع فعل القول بعد جملة الحوار ، دون أن يكون لذلك من مبرر فني . أما الطريقة الشائعة عموماً في الحوار في العصر الحديث ، فهي استخدام الأقواس الصغيرة . وكان لا بد لي في أثناء الترجمة من الاختيار بين الطريقتين . ولاحظت بعد التأمل أنه لم يكن عبثاً جنوح العالم الحديث إلى طريقة الأقواس الصغيرة . فالأمر الوحيد الذي تحققه طريقة الخط الصغير قبل الجملة ، هو الاستغناء عن فعل القول خلال تتابع الحديث ، وهذا ما تحققه كذلك طريقة الأقواس الصغيرة ، كهذا الحوار من قصة « هراء » للكاتب الكندي موريلي كالاغان :

« دمري كل شيء ، لكنني لم أضربك »

« لقد ضربتني . آه ، ياعزيزي ، لقد ضربتني . وهذا يضع حداً لكل شيء . لن أبقى هنا . لن أبقى ليلة أخرى . إنني ذاهبة الآن . »

« هيا . افعلي ما يحلو لك » (١)

ولكن طريقة الأقواس تفعل أكثر من ذلك ، فهي تتخلص من ضيق المجال الذي تفرضه طريقة الخط الصغير . ففي طريقة الخط الصغير لا بد من متابعة السرد من أول السطر التالي لجملة الحوار ، وإلا اختلط السرد بالحوار ، ولانتقال العين إلى أول السطر فعل

(١) اقرأ ترجمتي للقصة في مجلة « المرأة العربية » — عدد أيلول/تشرين الأول ١٩٧٥

وظيفي . إنه ليس أمراً تافهاً ، وإنما هو يعني الانقطاع والتأهب ، وقد لا يقتضي السياق ذلك ، كما نجد في الطريقة التي يتم بها « مكرتيتش آرمن » حديث الفتاة الذي يتوسطه الوصف في قصة « الفتاة التي بحثت عني » :

قالت بلفظ سريع : « لماذا ياروبين ؟ » ، وهي تختطف يدي وتمسك بها وتضغط عليها كأنها طفلة . « أنت لا تتصور كم مضى من الوقت وأنا أبحث عنك ! »

إن أي جملة من نحو « ثم أردفت قائلة » ، أو الانتقال إلى أول السطر بجملة مبدوءة بخط صغير يقطع ذلك التدفق الحيوي الطفولي ، الذي يبدو فيه الحوار جزءاً من الوصف والوصف جزءاً من الحوار .

على حين نجد فعل القول والابتداء من أول السطر ضرورياً في بعض الأحيان ، لما فيه من التنبه والانقطاع ، كما في هذا الحوار من قصة « كم تبدلتن أيتها الفتيات » :

وراقبتني بشدة ، وكانت مطرقة رأسها وصامتة .

قلت : « إنني مسرور جداً لمجيئك . أنت فاتنة جداً . فاتنة جداً . . . »

« ما جعلني أجيُ أنه ما من أحد قال لي ذلك من قبل . »

ثم عادت إلى صمتها ، كأنها ندمت على ما قالت .

إن الانتقال إلى أول السطر بفعل « قلت » هو انتقال من وضع إلى وضع : هو قطع الصمت . وإجابة الفتاة من دون « فقالت » يعني

تلقائية الإجابة ، التي نراها كذلك في إجابتها نفسها . وعودة السرد بالانتقال إلى أول السطر ، يعني العودة إلى الحالة الأولى بالانتقال إلى الصمت .

وهكذا نجد أن لكل شيء فعلاً وظيفياً ، يستخدمه الكاتب حسب مقتضى الحال . وهيهات أن يستطيع الكاتب أن يعبر عما عبر عنه مورلي كالاغان في ختام قصته « هراء » إن هو أخذ الجملة التي قالتها البطلة في غمرة الوصف والسرد فوضعها من أول السطر وبدأها بخط صغير :

رفعت ناظريها إليه مضطربة ، ورغم أن الكلمات التي استخدمها لم تكن حديثة ، ولا دافئة ، ولا غريبة ، فقد بدأت تشعر بحيائه المتيقظ ، وكادت تسمع صوت تفكيره . « مابك لاتستطيع أن تستمر في إظهار حبك بينما هو قوي جداً في نفسك ؟ » لم تتحرك ماتيلد وظلت تنتظره في مكانها ، ونما الحياء فيها كذلك ، وبدا الشعور بينهما في تلك اللحظة أعمق بكثير من أية نزوة أو بهجة باغتتهما في الماضي .

إن من لايدرك هذه الأمور الدقيقة المرهفة ، فلن يدرك شيئاً من فن القصة القصيرة ، ولن يعرف الوظائف التقنية للعمل الفني معرفة متمكنة .

إن بين اللغة والفكر علاقة متبادلة . هي بمعنى من المعاني علاقة الصانع بمصنوعه . إلا أن نفراً من أتباع « المدرسة الألسنية الأنثروبولوجية » ينادون بالنسبية اللغوية المطلقة التي مؤداها أنه ليس الفكر

هو الذي يصنع اللغة وإنما اللغة هي التي تحدد الفكرة . ودليلهم على حتمية النسبية اللغوية هو العلاقة بين الاختلافات اللغوية في الثقافات المختلفة والاختلاف في النماذج الراقية للإدراك الحسي المتعضي والتجربة الادراكية .

وهذه الفكرة ماتزال في نظر العلم « فرضية تأملية » ، والحتمية العلية أمر من الناحية النظرية غير صحيح ، لأنه قد يعترض عارض مابين العلة والمعلول يمنع حدوث المعلول كما يقول برتراند رسل، إلا أننا سوف ننتظر قليلاً لنفحص باختصار الفرضية من الناحية العملية . يقول بنيامين . ل . فورف ، وهو أبرز من نادى بالنسبية اللغوية المطلقة :

وهكذا تعطينا لغتنا تقسيماً ثنائياً للطبيعة . ولكن الطبيعة نفسها ليست ثنائية . فلو قيل إن « يضرب » و « يلتفت » و « يركض » أفعال لأنها تدل على الوقتي أو حوادث قصيرة الأجل ، أي على أعمال ، فلماذا « القبضة » اسم إذن ؟ إنها حادثة وقتية كذلك . ولماذا البرق ، والشرارة ، والموجة ، والدوامة ، والنبض ، واللهب ، والعاصفة ، والمظهر ، والدورة ، والتشنج ، والضجة ، والانفعال ، أسماء . . . واللهب ، والشهاب ، ونفث الدخان في لغة « الهوبي » أفعال — حوادث وجيزة الأمد بالضرورة ولايمكن إلا أن تكون أفعالاً . والسحابة والعاصفة هما الحد الأدنى من البقاء للأسماء . فأنت ترى أن للغة الهوبي تصنيفاً للحوادث على مقتضى البقاء ، وهو شيء غريب على أنماط فكرنا . . . وفي « نوتكا » وهي لغة جزيرة « فانكوفر » ثمة نظرة أحادية إلى الطبيعة تعطينا صنفاً واحداً لكل أنواع الحوادث .

« يحدث المبيت » أو « يبيت » هو الطريقة لقول « البيت » كما تقول « يحدث اللهب » أو « يلتهب » تماماً (١) .

إن فورف يؤكد أن الناطقين باللغة الانكليزية بسبب قواعد (الأسماء والأفعال) يقسمون العالم إلى « حوادث » و « أشياء » على حين أن الهوبي تستخدم أساساً آخر (فقواعدهم تصنف الكلمات على حسب « البقاء ») وسكان جزر الفانكوفر لا يميزون بين « الشيء » و « الحادثة » . وهكذا فالقواعد هي التي تحدد فهمنا للعالم الذي يحيط بنا .

والاعتراض العملي الأول على هذه الفرضية هو أنه ليس باللغة اللسانية وحدها يفكر الإنسان ، وما كل البشر قد درسوا القواعد حتى يفكروا بمقتضاها على أن الفرضية تتبدد حين نبحث لا في الكلمة من حيث الاستخدام فقط ، وإنما من حيث الحاجة إليها كذلك . ففي قاموس الأسكيمو ثلاث كلمات تميز ثلاثة أنواع من الثلج ، ولكن اللغة العربية والانكليزية كذلك لاتملكان غير كلمة واحدة . والمتكلمون باللغة « الإياكونية » ليس لديهم سوى كلمة واحدة لكلا اللونين الأخضر والأزرق ، على حين أن لدينا كلمتين ، فكيف سنفسر ذلك ؟ هل الحاجة إلى الأسماء المميزة يعني أن المتحدثين بالانكليزية والعربية لايستطيعون أن يميزوا الصور المميزة للثلج ؟ وهل الأوصاف المميزة للثلج إنما هي الفوارق التي أكدت عليها أعضاء مجموعة لغوية وحسب ؟ إن المجتمع الذي لايكون فيه لاختلافات الثلج سوى شأن

---

(١) William Epstein and Jranklin Shontz, Psychology in Progress, N. y. 1971, Chapter 5

وظيفي ضئيل ، فمن بعيد الاحتمال أن يخترع الأسـ اء المميزة لتصنيف نماذج الثلج .

وهذه الحجة الوظيفية إنما أيدها عدد من الدراسات الثقافية للغة والتمييز اللوني (١) .

والحاجة الوظيفية إلى الإبل وأحوالها هي التي دفعت العرب في سالف الزمان إلى إيجاد الأسماء الكثيرة لها ، ولكن تلك الأسماء لم تكن قيداً على التفكير العربي . فعندما ضعفت حاجتهم إليها قل استخدامها ، ونسي العرب كثيراً منها ، واتجهوا إلى إيجاد كلمات ، واصطلاح مصطلحات جديدة ، تناسب حاجاتهم الجديدة .

★ ★ ★

(١) Ibid, Chapter 5

د. جعفر دك الباب

حول بعض القضايا المتعلقة باللغة العربية وكيفية دراستها

ظهرت في الآونة الأخيرة بعض المقالات التي تدعو إلى السعي الجاد لدراسة اللغة العربية بشكل علمي، وتؤكد أن اللغة العربية عنصر هام من عناصر القومية العربية. وتطرقت مقالات أخرى إلى دور الترجمة كوسيلة هامة في عملية تبادل التأثر والتأثير بين الأمم والحضارات، وأشارت إلى ما يعتور بعض الترجمات المعاصرة من نواقص. ثم برز اقتراح يدعو إلى أن يكون العام الحالي (١٩٧٦) عاماً دولياً للغة أو على الأقل عاماً للغة العربية.

وبودي قبل الخوض في مناقشة بعض القضايا المتعلقة بدراسة اللغة العربية أن أتوجه إلى جميع المشاركين في الكتابة حول اللغة العربية راجياً منهم التقيد بالدقة الموضوعية التي يستوجبها البحث العلمي. وأول ما تفرضه علينا الدقة الموضوعية في أي بحث: عدم تعميم ما نعرفه على مالا نعرفه جزافاً دون دليل. وكمثال على عدم الالتزام بالدقة الموضوعية أورد فقرة من مقالة نشرت في جريدة «الثورة» بعنوان «اللغة العربية أداة التوحيد العربي»(١) جاء فيها «... يشير الباحثون والدارسون في مقارنة اللغات إلى أن الاعراب أرق ما يمكن أن تصل إليه لغة ما في الوضيح والابانة وهذا ما بلغته اللغة العربية الفصحى، ولم تشاركها أي لغة قديمة أخرى إلا اليونانية واللاتينية، ولا تماثلها في اللغات الحديثة إلا الألمانية». واعتراضنا ينصب على الجزم بأنه (لاتماثلها في اللغات الحديثة إلا الألمانية) حصراً؟!والسؤال

الذي يمكن أن نتوجه به إلى كاتبة المقالة هو « وماذا عن حالات الاعراب المختلفة في اللغة الروسية مثلا ؟ » .

وثمة فقرة أخرى في نفس المقالة تقول « واللغات الإوربية الحديثة تخلو كما هو معروف من حالات الاعراب ولا يميز فيها مثلا بين الرفع والنصب والجر وانما يتم ذلك بأدوات خاصة أو بالتقديم والتأخير » . وبودنا هنا أن نسأل كاتبة المقالة لماذا استخدمت عبارة « كما هو معروف » ؟! ربما تكون الكاتبة قد قصدت أن ذلك معروف لديها فقط ! !

كما أرجو كافة المشاركين في الكتابة حول اللغة العربية الابتعاد عن استعمال تعابير أقل ما يمكن أن توصف به أنها لاذعة وغير ضرورية في معرض مناقشة علمية . وكمثال على تلك التعابير أورد فقرة من مقالة نشرت في جريدة « البعث » بعنوان « العام العربي للغة » (٢) جاء فيها « ... ان الباحثين في علوم اللغة العربية أو في الفلسفة الاسلامية لايستطيعون أن يخطوا الخطوة الأولى على طريق البحث قبل أن يسترشدوا بالمراجع الأجنبية ... ومع هذا كله نجد بعض من تملكتهم التعابير الجوفاء ينادي بأن العربية أم اللغات ... » . واعتراضنا هنا ينصب على وصف جميع من ينادون بأن العربية أم اللغات بعبارة « من تملكتهم التعابير الجوفاء » . وجوابنا أن التعابير قد تكون جوفاء إذا اقتصرت فقط على الافتراض والادعاء دون الحجة والبرهان ، ولكن من يقدم مقولة تنادي بأن العربية أم اللغات ويقوم بدراسات لغوية مقارنة لاثبات ذلك لايمكن وصفه – برأينا – بأن التعابير الجوفاء قد تملكته . ونكتفي في هذا المجال بالاشارة إلى العمل الضخم الذي قدمه الأستاذ عبد الحق فاضل في كتابه « مغامرات لغوية أو ملكة اللغات » . لقد قام المؤلف بدراسات لغوية مقارنة على غاية من الأهمية العلمية وخلص منها إلى أن « اللغة العربية وتطوراتها وتفرعاتها وهجراتها ستكون الأساس المكين لعلم فقه اللغة العالمي الذي سيعاد النظر فيه بجملته ومختلف فروعه ويعاد تخطيطه وتشييد صرحه على تصميم جديد من قوانين اللغة العربية وايحاءاتها » .

علاقة اللغة الفصحى باللهجات العامية .

من أبرز المشكلات التي تصادفنا ، ونحن نناقش بعض القضايا المتعلقة بدراسة اللغة العربية ، مشكلة العلاقة الحالية بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها العامية المختلفة . إن الناشئة العرب لايتعلمون لغتهم العربية الفصحى كما يتعلم الناشئة في الأمم الأخرى لغاتهم . فهم لا يسمعونها في البيت ، ويكادون لا يسمعونها في البيئة التي تحيط بهم ، ولا يسمعونها في

المدرسة إلا أثناء دروس اللغة العربية . وبما أن اللهجة العامية هي لغة التخاطب في البيت وخارج البيت ، فإن اللغة العربية الفصحى ، والأمر كذلك ، لا تؤدي عملياً الوظيفة الأساسية التي يفترض في أي لغة أن تؤديها ونقصد بذلك أن تستخدم اللغة وسيلة لاختلاط الناس فيما بينهم . ولكي تقوم اللغة بهذه الوظيفة يتوجب أن تكون مفهومة بسهولة لجميع أبناء الأمة التي تتكلمها . وليس الحال كذلك بالنسبة للغة العربية الفصحى . إن هذا ولا شك وضع غير طبيعي . وقد أدى الوضع الحالي الشاذ الذي توجد فيه اللغة العربية الفصحى إلى قيام البعض بالدعوة إلى التخلي عن الأحرف العربية والاستعاضة عنها بالأحرف اللاتينية في كتابة اللغة العربية وذلك على غرار ما فعله الأتراك بغية تسهيل كتابة العربية والتخلص من الصعوبات الناجمة عن كتابتها بالأحرف العربية . وقد زعم أحدهم أن الناس يقرؤون باللغات الأوربية ليفهموا ما كتب ، في حين لاينطبق ذلك على اللغة العربية إذ يتوجب على الناس أن يفهموا ما كتب بالعربية أولا ليتمكنوا من قراءته بشكل صحيح .

وحدا ذلك الوضع اللغوي المعقد العربية بأحدهم أن يقول بأن اللغة العربية الفصحى التي يتعلمها التلاميذ في المدرسة تبدو لهم وكأنها لغة أجنبية !

وإذا أضفنا إلى ذلك أن قواعد اللغة العربية بنيت على نظرية العوامل في الاعراب التي اضطرت النحاة إلى أن يقدروا ويضمروا (جوازاً أو وجوباً) ويحذفوا ، تكشف لنا أن التفكير في أمر تيسير قواعد اللغة العربية أمر ملح . ولكن كيف يتم ذلك ؟

لقد برزت دعوات متعددة حول كيفية تيسير قواعد اللغة العربية ، وجرت بعض المحاولات لتيسير قواعد العربية . فدعا البعض إلى نحو وظيفي أساسه وظيفة الكلمة في الجملة دون إجراء أي تغيير في جوهر اللغة وأوضاعها العامة ، وبذا يمكن الاستغناء عن الاعراب التقديري والمحلي . وقد أخذت بهذا الرأي لجنة وزارة المعارف المصرية المؤلفة عام ١٩٣٨ للبحث في تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة . وأقر ذلك مجمع اللغة العربية بالقاهرة . وقد صدر عن دار المعارف بمصر عام ١٩٥٨ كتاب « تحرير النحو العربي » الذي اشتمل على قواعد النحو العربي مع التيسير الذي قرره مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ومن ناحية أخرى دعا الأستاذ عبدالله العلايلي إلى تغيير منهج دراسة اللغة العربية ، أما الأستاذ أمين الخولي فقد دعا إلى دراسة التطور اللغوي للعربية .

ويتوجب برأينا أن ندرس أولا البنية اللغوية العربية وخصائصها المميزة ، لنتمكن في ضوء ذلك من الخوض في موضوع تيسير قواعد اللغة العربية واقتراح السبيل إلى ذلك .

الزمن الفلسفي والزمن اللغوي .

قرأت في مقالة نشرت في جريدة « الثورة » بعنوان « في الثورة اللغوية –نحو نسف مفاهيم الزمن اللغوي »(٣) الفقرة التالية : « ... ولكن الناظر إلى نحونا العربي لا يجد أمامه سوى زمنين فضفاضين (الماضي والمضارع) علماً أن في لغتنا مالا يحصى من الأزمنة . ان نحونا العربي لم يفعل أكثر من أنه مسخ الأزمنة في زمنين غالمين ... » . وبودي أن أبدي بعض الملاحظات على ماورد فيها .

أولا : إن القول بأنه (لايوجد في نحونا العربي سوى زمنين فضفاضين هما الماضي والمضارع) غير صحيح علمياً . وذلك لأن (الماضي) هو زمن ، في حين أن (المضارع) ليس زمناً . وإن صيغة الفعل المضارع سميت هكذا ليس من أجل الدلالة على زمن حاضر أو زمن مستقبل – كما قد يتبادر لأذهان الكثيرين ، ولقد يكون مؤلف المقالة واحداً منهم – بل لمضارعة (أي لمشابهة) تلك الصيغة للاسم من حيث الاعراب (كما ورد في « كتاب المفصل في علم العربية » للامام الزمخشري) .

ثانياً : إن القول بأن (في لغتنا مالا يحصى من الأزمنة) غير صحيح أيضاً . وذلك لأن الزمن بالمفهوم الفلسفي هو ماض وحاضر ومستقبل ، أما الزمن بالمفهوم اللغوي فلا يتعدى تلك الأزمان الأساسية الثلاثة بل يمكنه أن يقسم كل زمن منها حسب وضعيات الكلام المختلفة التي يمكن أن تصادف في الحياة وتقوم اللغة بوظيفة التعبير عنها . ومن هنا يمكن للزمن اللغوي أن يكون أكثر تفصيلا من الزمن الفلسفي ، ولكنه يبقى مع ذلك ضمن إطار ما يمكن تحديده وحصره . فالزمن الحاضر يعكس الحوادث التي تجري في نفس الوقت الذي يدلي فيه المتكلم بحديثه . أما الزمن الماضي فيمكن أن يكون بسيطاً يشير إلى حدث في الماضي بشكل عام ، أو أن يكون مركباً أي يشير إلى حدث في الزمن الماضي مع مقارنته بحدث آخر في الماضي . وكذلك الأمر بالنسبة للزمن المستقبل . وعليه يمكننا أن نحصر الأزمان التي توجد في اللغة العربية على النحو التالي :

١ – الزمن الماضي البسيط (كتب) .

٢ – الزمن الماضي المستمر بالمقارنة مع حدث آخر في الماضي (كان يكتب) .

٣ – الزمن الماضي المتصرم بالمقارنة مع حدث آخر في الماضي (كان قد كتب) .

٤ – الزمن الحاضر (يكتب) .

٥ – الزمن المستقبل البسيط (سيكتب أو سوف يكتب) .
٦ – الزمن المستقبل السابق بالمقارنة مع حدث آخر سيجري في المستقبل (سيكون قد كتب) .

ثالثاً : إن القول بأن (نحونا العربي لم يفعل أكثر من أنه مسخ الأزمنة في زمنين غائمين) هو قول غير صحيح على الاطلاق وفيه الكثير من التجني على تاريخنا وعلمائنا النحويين ومدى ما قدموه للحضارة الإنسانية من مساهمة قيمة . وبودي في هذا المجال أن أستشهد بكلمة منصفة قالها الأكاديمي كراتشكوفسكي بحق علماء النحو العربي « ان تاريخ علم اللغة العالمي دون تاريخ علم اللغة العربية هو تاريخ ناقص » . ولابد من أجل دحض ذلك الزعم (القائل بأن نحونا العربي مسخ الأزمنة في زمنين غائمين) من العودة إلى تاريخ نشأة النحو العربي لبيان الغاية من وضعه .

من المعروف أنه بعد توسع حدود الدولة العربية وازدياد اختلاط العرب بالإعاجم شاع اللحن ، وجرى على ألسنة العجم المستعربين أولا ثم على ألسنة العرب المتحضرين فيما بعد . وقد هال أولي الأمر أن يكون له خطر وأن يؤثر شيوعه على اللسان العربي وعلى الدين الاسلامي. وكان طبيعياً ، والحال كذلك ، التفكير في وضع ضوابط ومبادىء عامة يهتدي بها العرب والمستعربون في ضبط الكلام العربي . وهكذا فإن تلك الغاية (الاسراع في وضع ضوابط لقواعد العربية لتجنب تفشي اللحن) حددت أسلوب الوصول إليها (القيام بدراسة تحليلية شاملة للغة العربية يمكن نتيجة لها استنباط قواعد عامة للعربية) . لذا تم وضع علم النحو العربي بعد القيام بدراسة تحليلية للغة العربية .

وفي ضوء هذا يتبين أن ذلك الأسلوب الذي سلكه النحاة مكنهم من الوصول بنجاح إلى تلك الغاية التي وضعوها نصب أعينهم، فحافظوا بذلك على سلامة اللغة العربية ونقاوتها، وجنبوها خطر تفشي اللحن فيها . هذا وتجدر الاشارة إلى أن القيام بدراسة تحليلية شاملة للغة ما ، كتلك الدراسة الفذة التي قام بها النحاة للعربية ، هو من أعقد وأشق المهام التي تسعى إلى تحقيقها في العصر الحديث أكاديميات العلوم اللغوية ومعاهدها ومؤسساتها المتخصصة المختلفة في شتى بلدان العالم . ولذا فإن اللغة العربية تمتاز بأنها واحدة من لغات قليلة جداً في العالم أتيح لها أن تدرس دراسة تحليلية لغوية شاملة . ولعل الفضل في ذلك يرجع إلى جهود أولئك النحويين العظام الذين نذروا أنفسهم لخدمة اللغة العربية وكرسوا في سبيل ذلك حياتهم دون أن يبتغوا كسباً مادياً بل كان حسبهم ثواب الله .

وإذا عدنا ، بعد هذا التوضيح التاريخي حول ظروف نشأة النحو العربي والغاية من وضعه والأسلوب الذي سلكه النحاة للوصول إلى تلك الغاية ، إلى مناقشة ذلك الزعم (القائل بأن نحونا العربي مسخ الأزمنة في زمنين غائمين) أمكنتا تأكيد الحقيقة العلمية التالية وهي أن تحديد مفهوم الزمن اللغوي في العربية لم يكن داخلا في مهمة النحاة العرب على الاطلاق . وهذا يفسر لنا لماذا عمد النحاة حين دراستهم للفعل في العربية إلى تقسيمه إلى ماض ومضارع وأمر ، ولم يقسموه إلى ماض وحاضر ومستقبل ولم يقسموه إلى صيغة أخبار أو أمر أو تمن ، كما يفعل الأوربيون حين دراسة الفعل . إن تقسيم النحاة للفعل في العربية إلى ماض ومضارع وأمر ، لم يتم هكذا لأنهم خلطوا بين صيغ الزمن وصيغ الأخبار أو الأمر أو التمني ، كما لم يتم لأنهم (مسخوا الأزمنة في زمنين غائمين) ، بل تم ذلك التقسيم انطلاقاً من مبدأ آخر (غير مبدأ الزمن ، وغير مبدأ صيغة الأخبار أو الأمر أو التمني) هو أن صيغة الماضي تتميز بأنها مبنية على الفتح ، أما صيغة المضارع فتتميز بأنها معربة كالاسم ، في حين أن صيغة الأمر مبنية على السكون . إن هذا التقسيم يخدم الهدف الأساسي الذي سعى لتحقيقه النحاة ، ألا وهو وضع قواعد للعربية تحفظ سلامتها وتجنبها تفشي اللحن . أما وضع نظرية نحوية تحدد الزمن اللغوي للفعل أو تحدد ما إذا كانت صيغة الفعل تفيد الأخبار أو الأمر أو التمني ، فكان خارج مهمة علم النحو في تلك الظروف التاريخية التي استوجبت ظهوره وحددت غايته وأسلوبه . ويتبين من كل ذلك بطلان الزعم (القائل بأن نحونا العربي مسخ الأزمنة في زمنين غائمين) .

ولا بد لنا في الختام من الاشارة إلى أنه قد يكون من السهل توجيه النقد وتوزيع الاتهامات جزافاً لعلماء النحو العربي ، ولكن النقد البناء لاشك أصعب بكثير . وتبقى أمام العلماء اللغويين العرب المعاصرين مهمة تحديد تلك المجالات النحوية (مثل الزمن النحوي للفعل) التي لم يتطرق إليها النحاة القدماء لأنها كانت خارجة عن نطاق مهمتهم التاريخية الكبيرة التي نفذوها بنجاح عظيم ومقدرة علمية باهرة .

الخصائص المميزة للبنية اللغوية للعربية .

حين نبحث موضوع تيسير قواعد اللغة العربية لابد من أن نأخذ بعين الاعتبار قبل كل شيء الخصائص المميزة للبنية اللغوية العربية . وكل اغفال لتلك الخصائص سيؤدي بنا حتماً إلى الوقوع في أخطاء ينتج عنها بالضرورة تبني الدعوة إلى وضع قواعد جديدة للعربية مقتبسة عن قواعد اللغات الأوربية وتكون بالتالي غريبة عن النظام اللغوي للعربية ، فلا تستطيع تلك

القواعد الجديدة لذلك أن تساهم في الخروج من الوضع الحالي الشاذ الذي توجد فيه اللغة العربية الفصحى .

ومن المفارقات أن واحداً من دعاة القومية العربية هو الأستاذ ساطع الحصري قد اضطر إلى تبني مثل تلك الدعوة ، وذلك نتيجة لاغفاله الخصائص المميزة للبنية اللغوية للعربية . فبدأ الأستاذ الحصري في كتابه « آراء وأحاديث في اللغة والأدب »(٤) بانتقاد تقسيم الكلمات في العربية إلى اسم وفعل وحرف . ودعا إلى نبذ ذلك التقسيم الذي يضيق مفهوم الفعل ويوسع مفهوم الاسم حتى يدخل فيه كل ما يبقى خارجاً عن نطاق الفعل والحرف . ودعا إلى تقسيم جديد يكون – على حد تعبيره – أقرب إلى مقتضيات العقل والمنطق ويؤدي إلى تكثير أنواع الكلمات أسوة بما يفعله لغويو العالم – ويقصد بذلك اللغويين الأوربيين .

ونرى أن تقسيم الكلمات إلى فعل واسم وحرف لاغبار عليه ولا حاجة للتخلي عنه واقتباس التقسيم الأوربي للكلمات ، خاصة وأن الدراسات اللغوية المقارنة الحديثة تثبت صحة تقسيم الكلمات إلى اسم وفعل وحرف وتوصي باتباع ذلك التقسيم بالنسبة للغات التي لاتتبعه قواعدها . فقد توصل مثلاً الدكتور س . غالسان بنتيجة دراسة مقارنة قام بها للغتين المنغولية والروسية إلى ضرورة تمييز ثلاثة أقسام للكلمات في اللغتين المنغولية والروسية هي الاسم والفعل والحرف ، علماً بأن مثل ذلك التقسيم غير متبع في دراسة قواعد اللغتين المنغولية والروسية . كما أن أطروحة الدكتوراه (٥) التي دافعت عنها أمام المجلس العلمي في كلية الآداب بجامعة موسكو عام ١٩٧٣ ، والتي تدور حول مقارنة قواعد اللغتين العربية والروسية، أثبتت ضرورة تقسيم جميع الكلمات المستقلة بالفهم في اللغة الروسية إلى مجموعتين هما : مجموعة الصيغ الشخصية المصرفة للفعل (أي ما يقابل الفعل بالعربية) ومجموعة تضم بقية الكلمات المستقلة بالفهم (أي ما يقابل الاسم بالعربية) .

وبعد انتقاد الأستاذ الحصري تقسيم الكلمات في العربية أخذ يهاجم علماء اللغة العربية في عصور التدوين الأولى ويتهمهم جميعاً بارتكاب خطأ منطقي حين لم يصنفوا الجمل حسب أنواع الكلمات التي تتألف منها ، بل صنفوها حسب نوع الكلمة التي تبتدىء بها دون الالتفات إلى بقية كلماتها . ولذا فإن عبارة (نام الولد) تعتبر جملة فعلية ، في حين ان عبارة (الولد نام) تعتبر جملة اسمية ، مع أن كلتيهما تتألف من نفس الكلمتين وتؤدي إلى نفس المعنى . وأضاف الأستاذ الحصري قائلا : إن استمرار المؤلفين المعاصرين على التزام هذه « الخطة العجيبة » تم بتأثير « الالفة المخدرة » وخشية الخروج على التعاريف والتصانيف القديمة .

إن اتهام علماء اللغة العربية بارتكاب خطأ منطقي هو غير صحيح على الإطلاق وفيه الكثير من التجني على الحقائق العلمية . وان نظرة سريعة إلى تاريخ نشأة النحو العربي تبين لنا أن الغاية من وضعه كانت الإسراع في وضع ضوابط لقواعد اللغة العربية لتجنب تفشي اللحن ، ولذا تم وضع علم النحو العربي بعد القيام بدراسة تحليلية للغة العربية . وقد وجد علماء العربية بنتيجة تلك الدراسة التحليلية أنه يميز نوعان للجملة تبعاً للموضوع الأول للكلمة المستقلة بالفهم فيها (فعل أم اسم) . إن هذا التقسيم للجملة ، بحسب ابتدائها بفعل أم باسم ، لم يتم انطلاقاً من مفاهيم منطقية تحدد الجملة الفعلية بأنها تلك التي تحتوي على فعل وتحدد الجملة الإسمية بأنها لا تحتوي على فعل (كما هو متبع في دراسة الجملة في اللغات الأوربية) ، بل تم ذلك التقسيم انطلاقاً من مفهوم آخر ، نابع من الدراسة التحليلية للمادة اللغوية العربية ، هو المفهوم البنيوي للجملة . فالجملة التي تبتدىء بفعل تتكون بنيتها من تركيب أحادي بالضرورة ، نواته الأساسية هي الفعل ، وكل ما يليه من فاعل أو مفعول أو ظرف أو جار ومجرور يتبع الفعل . فالعلاقة هنا علاقة تابع ومتبوع ، لذا لا يميز في هذه الجملة مبتدأ وخبر ، لأن كلا من المبتدأ والخبر يجب أن يكون كلمة مستقلة بذاتها ولا يربط بينهما سوى الاسناد الإخباري . أما الجملة التي تبتدىء باسم فتتكون بنيتها من تركيب ثنائي بالضرورة ، يكون الاسم الأول فيه مستقلاً ، ويكون الاسم أو الفعل الذي يليه خبراً له . والعلاقة بين المبتدأ والخبر ليست علاقة تابع ومتبوع بل علاقة اسناد اخباري .

أما القول بأن المعنى واحد في الجملتين (نام الولد) و (الولد نام) فغير صحيح برأينا ، لأن جملة (نام الولد) تحوي خبراً ابتدائياً أي تنقل إلى المستمع خبراً جديداً بالنسبة له كان قبله خالي الذهن تماماً منه ، أما جملة (الولد نام) فتحوي خبراً ليس ابتدائياً ، إذ يؤكد للمستمع خبراً كان قد سمعه قبل ذلك ولكنه يشك في صحته . ومن هنا يتبين لنا أن ترتيب الكلمات في هاتين الجملتين ليس شكلياً بل يؤدي إلى اختلاف كبير في المعنى . وقد أشار العلامة ابن خلدون في مقدمته في فصل (في علوم اللسان العربي – علم البيان) إلى اختلاف المعنى في الجملة تبعاً لاختلاف ترتيب الكلمات فيها . « ... ألا ترى أن قولهم (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم . فمن قال (جاءني زيد) أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه ، ومن قال (زيد جاءني) أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند » .

وتابع الأستاذ الحصري سرد آرائه في اللغة قائلاً : « عرف علماء اللغة الفاعل بقولهم

(اسم مرفوع يتقدمه فعل) . فإذا تقدم الاسم على الفعل لا يترتب على ذلك تحول الجملة من فعلية إلى اسمية فحسب ، بل يترتب على ذلك خروج الاسم من الفاعلية أيضاً . فعندما يقال (الولد نام) لا يرون مسوغاً لاعتبار كلمة (الولد) فاعلا . وبما أن هناك فعلا يتطلب فاعلا ، فإنهم يلتجئون إلى طرق التأويل الملتوية فيقولون أن الفاعل لهذا الفعل ضمير مستتر ، وأما (الولد) فما هو إلا مرجع هذا الضمير المستتر » .

وخلص الأستاذ الحصري من ذلك إلى القول التالي : « إنني أعتقد أن الإنسان لو قصد التعقيد والتشويش لغرض من الأغراض ، لما استطاع أن يجد طريقة تصنيف وتفسير أكثر اعوجاجاً وأشد غرابة من تلك. ألم يحن بعد وقت الإقدام على التخلص من هذه المسالك الملتوية والرجوع إلى طرق المنطق والصواب ؟ » ... إن الأستاذ الحصري قد انطلق، في اتهامه لعلماء اللغة العربية بسلوك المسالك الملتوية والخروج عن طريق المنطق والصواب ، من مفاهيم منطقية مجردة دون أن يأخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة للبنية اللغوية العربية . ولذا توهم الأستاذ الحصري أنه وحده مصيب وأن جميع العلماء العرب اللغويين القدماء والمعاصرين انحرفوا عن طريق المنطق والصواب !!

وأعتقد أن الأستاذ الحصري – وهو ذلك الداعية المشهور للقومية العربية – قد انزلق إلى تلك الاتهامات لأنه ظن أن المفاهيم المنطقية تتطابق دائماً مع المفاهيم اللغوية ، كما هو الحال بالنسبة للغات الأوربية . ولكن غاب عن ذهنه أن الأمر ليس كذلك دائماً بالنسبة لجميع اللغات . فبينما يعتبر الفعل (وهو خبر منطقي أو معنوي) في اللغات الأوربية دائماً خبراً قواعدياً ، لا يعتبر الفعل دائماً خبراً قواعدياً في اللغة العربية . وبينما يعتبر الفاعل المعنوي (المنطقي) للفعل المبني للمعلوم في اللغات الأوربية دائماً فاعلا قواعدياً ، لا يعتبر الفاعل المعنوي (المنطقي) دائماً فاعلا قواعدياً في اللغة العربية . والسبب في عدم تطابق المفاهيم المنطقية واللغوية لكل من (الخبر) و (الفاعل) في العربية راجع إلى الخصائص المميزة للبنية اللغوية العربية .

أما لماذا اعتبر النحويون كلمة (الولد) في جملة (نام الولد) فاعلا ، في حين اعتبروها في جملة (الولد نام) مبتدأ ، فلم يتم اعتباطاً أو لأنهم ابتعدوا عن طريق المنطق والصواب ، بل تم انطلاقاً من خصائص الفعل في اللغة العربية . فالفعل في العربية يتميز بأنه يكون دائماً في صيغة شخصية مصرفة ، ويكون حتماً مع الفعل المبني للمعلوم فاعل يأتي بعده . ومن هنا يتبين أنه توجد علاقة تبعية بين الفعل العربي وفاعله الذي يليه . ويكون الفعل في تلك

العلاقة هو الكلمة الرئيسية من الناحية القواعدية (أي عاملا) ، في حين يكون الفاعل الذي يلي الفعل كلمة تابعة للفعل من الناحية القواعدية (أي معمولا) . لذا فالجملة المكونة من الفعل والفاعل الذي يليه (نام الولد) هي جملة أحادية التركيب (أي لا يميز فيها مبتدأ وخبر) ولكنها في نفس الوقت تتألف من جزأين : فعل وفاعل ، أما جملة (الولد نام) التي يحتل الفعل فيها الموضع الثاني بعد الإسم الذي أسند الفعل إليه من حيث المعنى ، فهي جملة ثنائية التركيب (أي تتألف من جزأين هما المبتدأ والخبر) يكون الاسم فيها مبتدأ ، لأن الاسم في أول الجملة هو كلمة مستقلة وغير تابعة للفعل الذي يأتي بعدها .

ومن الطبيعي أن يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : لماذا يتمتع الفعل في العربية بتلك الخاصة المميزة ؟ لا بد للجواب عن هذا السؤال من دراسة تاريخ اللغة العربية والاستعانة أثناء ذلك بعلم اللغة المقارن التاريخي .

• • •

---

(١) بقلم قمر كيلاني أواخر كانون الأول ١٩٧٥ .

(٢) بقلم علي حيدر أوائل كانون الثاني ١٩٧٦ .

(٣) بقلم عماد جنيدي بتاريخ ١٩٧٦/١/٢٩ .

(٤) دار العلم للملايين — بيروت ١٩٥٨ (نظرات انتقادية على قواعد اللغة العربية — تصنيف الكلمات والجمل — ص ١٠١ — ١٠٩) .

(٥) انظر عرض مباحث الأطروحة المنشور في مجلة « جيش الشعب » — العدد ١٢١٧ تاريخ ١٩٧٥/١١/٢ بقلم منير منصور تحت عنوان « باحث عربي يؤكد أن الجرجاني أول من وضع أسس علم اللغة العالمي المعاصر ».

د. شكري فيصل

تجربة اللغة لدى الحصري

ألم يكن طبيعياً جداً أن تكون اللغة العربية إحدى الساحات الواسعة التي كان تتاح ساطع الحصري الفكري يحاول أن يفيها حقها في نطاق المهمة الكبرى التي اضطلع بها وهي مهمة تفتيح الفكر العربي وتوجيهه والأخذ بيده نحو الأمل أولا ثم نحو الإيمان بعد ذلك؟ (١)

وهل كان يسع ساطع الحصري الرجل الذي ملكت عليه القضية العربية ، من وجوهها كلها ؛ عقله وقلبه على السواء أن يغفل عن الوجه اللغوي لهذه القضية ؟. لقد تحدث عن مقومات القومية ماشاء إليه أن يتحدث خلال حياته الطويلة .. وضح منها ما وضح وقارع من قارع ، وتصدى لعداوات وخصومات .. واستطاع بالفكر النير الواضح والأسلوب الهادىء المتزن واللغة السهلة اليسيرة أن يملك من أمر هذه الأجيال ما لم يملك مفكر آخر في هذا الميدان .. إن جهوده في ذلك لاتكاد توازيها جهود .. فقد تناول التاريخ القريب وتناول التاريخ البعيد .. تناول الجانب النظري الدائم وتناول الجوانب اليومية الطارئة .. وقف طويلا عند الثقافة واللغة والاجتماع والاخلاق والعلم .. وفي خلال سبعين سنة أو تزيد كانت له في القضايا العربية كلها عينا هدهد وتحليق نسر .. ينفذ إلى الأعماق ويحلق في الآفاق..

(١) انظر « ابحاث مختارة في القومية العربية » ص ١٢٢ .

ولعله لم تكن هنالك قضية تمس الوجود العربي إلا كان له فيها مقال أو كتاب..لم يحده المشرق العربي وانما كان المغرب العربي دائماً في ذهنه وفي نطاق اهتمامه..وكان له في مد الأفق العربي على طول هذه الأرضين من المحيط إلى الخليج – في هذا السبيل – مالم يكن لسواه من رجال الفكر أو من رجال السياسة على السواء .

المنطلق الأساسي الذي يلمحه المرء في كل ما كتب ساطع الحصري ونشر، في كل ما عمل أو قال إنما كان الوحدة .. وحدة العرب كانت حلمه الملح وهاجسه الدائب .. كانت فكره وقلبه .. كان عقله لها وكان جهده لها ، وكان تفكيره من أجلها وعمله في سبيلها .. انها كانت منطلق أنظاره ومحور أعماله .. وفي أي من الشؤون التي استبدت به لم يكن ساطع الحصري يقيم وزناً لشيء إلا لهذه الوحدة وما يتصل بها .

إنه لم يسخر لذلك فكره وقلمه فحسب .. ولم ينذر له جانباً من حياته وإنما نذر له حياته كلها .. وضحى بكل ما يحرص الناس .. وحين اقتضاه الأمر أن يعيش في مثل عيش المشردين .. لا أسرة ولا بيت ، ولا وطن ولا سكن .. لم يتردد ساطع الحصري في أن يتقبل ذلك راضياً عنه سعيداً به .. وعلى حين غمر النعيم والثروة سياسيين ومفكرين ليس عندهم عشر ما عنده من اخلاص وجهد كان ساطع الحصري لايجد إلا غرفة في فندق وبضعة صناديق يدخر فيها وثائق عمله .. وكانت سنه آنذاك في القاهرة تنيف على السبعين ومع ذلك فقد كان كل الذي يعرف من شؤون أسرته رسالة قصيرة يكتبها أو كلمات يتلقاها .. وكل الذي يعرفه من مورده هو هذا الذي يضعه بيد صاحب الفندق أو يدفعه إلى صاحب مكتبة أو بائع صحف .

من كل ذلك، في الحياة العامة أو في الحياة الخاصة،في مشرق الوطن العربي أو في مغربه ، في ظل الحكم الملكي أو في ظل الحكم الجمهوري ، خلال الثورات والانقلابات أو خلال الحكم المطمئن – كان ساطع الحصري ينظر إلى الوحدة وحدها .. هي – أو ما كان يبشر بها أو يساعد عليها أو يقرب إليها أو يدفع عنها–التي كانت تستقطب جهوده وتلون هذه الجهود.. من خلالها نظر في كل ما كتب .. وآلاف الصفحات التي خلفها كانت مضمخة دائماً بعبير الوحدة مشتقة منها مهتدية بها ..

أكان من عجب إذن أن يعيش في عقل ساطع الحصري هذان العاملان الرئيسيان في صناعة الوحدة ؟ عامل اللغة العربية وعامل التاريخ العربي ؟.. أكان من عجب أن يتكامل عنده هذا

العاملان وأن يتساندا لتكون اللغة هي (التي تقوم بها حياة الأمة بوجه عام .. أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس في حقيقة الأمر إلا في الحرمان من اللغة الخاصة بها) (١) .. أكان من عجب أن يردد ساطع الحصري في أكثر من مرة هذه الجملة التي يسندها إلى أحد المفكرين ، لا يسميه (أن الأمة المحكومة التي تحافظ على لغتها تشبه السجين الذي يمسك بيده مفتاح سجنه) (١) .

إلى جانب اللغة كان يقوم التاريخ في فلسفة ساطع الحصري .

ولكن الحديث في هذا البحث لا يتناول التاريخ وإنما يتناول اللغة .. فماذا كان من آراء الحصري في ذلك وماذا كان من عمله ؟

* * *

كان في ذهني الكثير من عمله ورأيه .. تأتي إلى نفسي وترسب فيها من خلال ما كنت أقرأ لأبي خلدون ساطع الحصري من قبل ، ثم من خلال ما كنت عرفت عنه من بعد حين عملت معه أو عملت إلى جانبه في القاهرة وفي دمشق .

ولكني حين أخذت أعد العدة لهذا البحث وأعاود قراءاتي وأوراقي في محاولة تكوين فكرة جامعة هالني أن الرجل لم يكد يترك جانباً من جوانب الحديث عن اللغة العربية إلا أسهم فيه .. أسهم فيه من نحو نظري حيناً وأسهم فيه من نحو عملي حيناً آخر ، وأشرك بين هذين النحوين في أكثر الأحايين .

وما من شك في أن كثيرين ، منذ بدايات النهضة ، عملوا في هذا الميدان اللغوي وجندوا له .. أما أولئك الذين قصروا جهودهم على ذلك من علماء اللغة وواضعي المعاجم فإن لهم شأنهم الخاص .. إنهم تفردوا بذلك وانقطعوا له .. ولكن الفرق بين هؤلاء وبين ساطع الحصري أن الرجل لم يكن مختصاً باللغة ولا منقطعاً لها .. كان الذي دفعه إلى هذا الميدان اللغوي إنما هو فكره القومي ، وتطلعاته إلى الوحدة ، وكان الذي دفعه إلى ذلك أيضاً رسالته التربوية التي آمن بها في تكوين هذا الجيل العربي الجديد الذي يغادر مغاور الجهل إلى ضياء المعرفة .

وإذا كان الذين عنوا باللغة منذ النهضة أحد فئتين أو أحد رجلين .. رجل عالم لغوي أخلص جهوده للغة فجرى يعمل في هذا الميدان أو ذاك من ميادينها ، ورجل مفكر أراد أن

(١) المصدر نفسه ١١٦ – ١١٧ .

يؤصل هذه اللغة في عقول الناس وأفئدتهم لأنها مقوم من مقومات وجودهم العقلي والقومي – فإن ساطع الحصري معدود لا شك في هذه الفئة الثانية التي كانت تهتم باللغة (لأن اللغة التي ينشأ عليها الانسان تكيف تفكيره بكيفيات خاصة ، كما أنها تؤثر في عواطفه أيضاً تأثيراً عميقاً .. ولذلك نجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في التفكير وفي الشعور ، وتربط الأفراد بسلسلة معقدة من الروابط الفكرية والعاطفية ، ونستطيع أن نقول لذلك : إنها تكون أقوى الروابط التي تربط الأفراد بالجماعات .. ونستطيع أن نقول : إن الأمم يتميز بعضها من بعض ، في الدرجة الأولى ، بلغتها ، (وإن حياة الأمم تقوم قبل كل شيء على لغاتها) (٢) .

ومع ذلك فسنرى أن إدراكه العميق لأثر العامل اللغوي في الحياة العربية وفيما تعاني هذه الحياة في حاضرها وما تتطلع إليه في مستقبلها دفع ساطع الحصري خطى في البحث اللغوي البحت وقاده نحو مواقف تطبيقية عملية (إني لست من علماء اللغة ولا من رجال الأدب ، ولم أصب في يوم من الأيام إلى التخصص في اللغة أو التبريز في الأدب . ومع ذلك فقد اضطررت إلى درس الكثير من مسائل اللغة وحاولت معالجة الكثير من مشاكلها،طوال حياتي الفكرية التعلمية والتعليمية ، التأملية والتحريرية) (٣)

وخلال العقود الأخيرة كان هنالك عدد من المفكرين القوميين الذين تركت دراسات ساطع الحصري القومية آثارها عندهم .. فأولوا اللغة العربية اهتماماً خاصاً وأخذوا يجوسون خلالها ، وينثرون بعض الأنظار هنا وهناك حولها . ولكن ساطع الحصري يقف وحده من بين هؤلاء .. لا لأنه هو الذي رفع هذا اللواء – أو لنقل كما قال الأقدمون هو الذي احتمل لهم هذه التبعة – لا لهذا فحسب ولكن لأنه كان يتميز بثلاثة أشياء في هذا المجال .

أولها : إنه كان كثيراً ما يمضي نحو التطبيق العملي للأشياء النظرية التي يؤمن بها أو يدعو لها.

والثاني : أنه نوع في جوانب البحث اللغوي وشقق الطرق فيه .

وثالث هذه الأستار أنه كان يصدر في عمله عن نزعة عقلانية وفكر موضوعي ...

وسنرى بعض ما يوضح الأمرين : الأول والثاني .. ولسنا في مجال المقارنة حتى نولي الأمر الثالث اهتماماً خاصاً ولكن يكفينا أن نقول هنا ان الآخرين كانوا يصدرون عن حدس

(٢) المصدر نفسه ٤٣ .

(٣) اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ص ٥

هو الذي يقود إلى البحث .. أما ساطع الحصري فقد كان يصدر عن البحث والمعالجة والتنقيب . ونظرياتهم في اللغة كانت مغرقة في الجانب النظري وهو جانب يحتاج دائماً إلى المناقشة فيه والحوار أو الاختصام حوله .. وانه إنما يخدم الفكر القومي من جانب غير مباشر وانه يقوم على تمجيد اللغة العربية تمجيداً نؤمن به نحن ولكننا لا ندري شيئاً من إيمان الآخرين به .. على حين نظر ساطع الحصري إلى اللغة العربية كما هي ، لم يعمد إلى تمجيدها - على مالها من خصائص - ، ولم يقصد إلى الإشادة العاطفية أو الإشادة التي تقوم على الحدس أو على النظر .. ولكنه اعتبر اللغة العربية - أياً كانت خصائصها - هي لغة هذا الجيل من الناس ، وهي التي تؤلف وجوده مهما يكن من أمر المزايا التي تمتاز بها أو العيوب التي قد تستند اليها .

إن مثل هذه الجملة من الفروق بين ساطع الحصري وبين الذين جاؤوا بعده في ذلك تمثل فروقاً واضحة تعبر عن أسلوبين في معالجة القضايا القومية أو الفكر القومي : أسلوب الإشراقات أو التألقات التي تتلامح من خلال الشباب فتضيئه لحظات .. والتي يكون نصيبها من الحدس الذاتي أو من التوهج النفسي أكثر من نصيبها من المواجهة الموضوعية والمعالجة العقلية .. والأسلوب الآخر الذي يتناول الظواهر اللغوية من خلال المسلمات الفكرية التي تقترن بها ومن خلال الواقع اللغوي تعيش فيه ومن خلال الأثر الذي تخلفه والمكانة التي تشغلها ثم من خلال عيوبها وخصائصها على السواء لتدارك هذه العيوب واستثمار هذه الخصائص .

وأياً كان الأمر فليس هذا البحث معقوداً في الأصل لإقامة هذه المقارنات .. وليس من غرضه أن يهدف إلى المفاضلات .. ذلك لأن كل الذين اهتموا بالعامل اللغوي من بين المفكرين القوميين كانوا يمضون إلى هدف واحد .. وان الخطى في ذلك خطى متكاملة .. دون حاجة إلى النظر في تعدادها أو قياسها .

° ° °

قلت إن المرء ليذهل حين يعدد الموضوعات التي وقف عندها ساطع الحصري أو عمل فيها أو اكتفى باللفت السريع إليها ..

وإذا نحن تجاوزنا تأصيله للعامل اللغوي في الفكر القومي تأكيده وتحذيره الدائب من سيطرة اللغات الأجنبية وعمله في ذلك في الميادين النظرية أو في مجالات العمل التربوي التطبيقي في سورية أو في العراق أو في مصر أيضاً حين أمضى سنواته الأخيرة في مصر يرعى نمو الفكر القومي العربي أو يستلبثه أو يدفع عنه الرياح الباردة ..إذا نحن تجاوزنا ذلك وجدنا

أن أنماطاً كثيرة من العمل اللغوي اندفع إليهاساطع الحصري على طول حياته منذ خلصت حياته للعربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى حتى كانت وفاته .

١ – في نطاق التعليم :

آ – وأبرز ذلك ما كان من أمر الطريقة التي وضعها لتعليم الألفباء ..

وعمل ساطع الحصري في ذلك له خلفيته القومية ومرتكزاته العملية .. إنه من أجل أن يأخذ العرب طريقهم إلى النهضة فانه لا بد لهم أن يتعلموا .. والتعليم والتربية أمضى الأسلحة وأنفذها وأسرعها لإقامة الحياة العربية الحديثة .. ولكن كيف يكون ذلك وأساليب التعليم هي هذه الأساليب القديمة التي تستند إلى الطريقة الهجائية ؟.

من هنا وضع ساطع الحصري كتابه المعروف : القراءة الخلدونية .. وهو كتاب ينهض بتعليم القراءة والكتابة على أساس جديد لم يكن مألوفاً من قبل .. وهذه الجدة هي التي اضطرته إلى أن يضع كتاباً مرشداً لهذه القراءة هو الكتاب الذي سماه طريقة تعليم الألفباء ، وضعه في دمشق أيام فيصل الأول وطبع للمرة الأولى في العراق ثم طبع بعد ذلك في القاهرة الطبعة الثانية في المطبعة السلفية ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣ م .

وقد كانت القراءة الخلدونية والكتاب المرشد لها أول هدية قدمها ساطع الحصري للحياة التعليمية العربية في جانبها اللغوي عربون وفاء وآية انتماء .. بعد أن تخلى عن مناصبه ومكانته في تركية وانضم – اثر انتهاء الحرب العالمية الأولى – إلى الركب العربي الذي بدأ مسيرته من دمشق في الثامن من آذار سنة ١٩١٩ .

والطريف أن الطريقة الصوتية التي بشر بها ساطع الحصري ووضعها في تعليم اللغة العربية ، كان قد وضعها من قبل في العهد التركي في الآستانة (حين توليت إصلاح دار المعلمين وتأسيس مدرسة التطبيقات في الآستانة ، فقد وجدت أن الطريقة السائدة بين المعلمين هي الطريقة الهجائية فأخذت بنشر قواعد الطريقة المعروفة بـ « الطريقة الصوتية ») .

وأنا أحيل القارىء هنا إلى المقدمة التي كتبها الأستاذ الحصري لهذا الكتاب .. ولكني أحب أن أشيد بالخلق القومي من نحو وبالخلق العلمي من نحو آخر ، اللذين يتجليان في صفحات من هذه المقدمة : الخلق القومي الذي دفعه أن يضع جهوده السابقة التي وصل إليها في تعليم الألفباء التركية في خدمة تعليم اللغة العربية . والخلق العلمي الذي دفعه أن يشيد بجهود السابقين في هذا الموضوع .

« .. وعلى هذه الصورة – يريد الصورة التي كان قدم شرحها – توصلت إلى طريقة أظن أنها خير الطرق لتعليم الألفباء التركية .

وحينما انتقلت إلى سورية حولت نظري إلى تعليم مسألة الألفباء باللغة العربية :

بحثت عن جميع كتب الألفباء العربية المطبوعة في مصر وسورية–لذلك العهد–فلم أجد بينها ما هو مبني على الطريقة الصوتية إلا اثنين ، وهما : الكلمة العربية والمجموعة الأصولية..» .

ثم مضى يتحدث عن هذين الكتابين ، ما لهما وما عليهما ، ليتحدث بعد عن «خطة موافقة لتعليم الألفباء العربية .. » ثم ينتهي بهذا المقطع الذي يتم كذلك عن خلقه العلمي:

« وفي هذا اليوم الذي أقدم فيه كتابي هذا إلى عالم التعليم العربي لا يسعني إلا أن أشكر هؤلاء المعلمين الذين ساعدوني بهذا العمل في دمشق الشام وأخص السيد حسن أبو غنيمة (١) والسيد توفيق طالب ، وأشكر في عين الوقت السيد ممدوح(٢) في دمشق الشام الذي خط القسم الأول من الكتاب والشيخ أحمد في دار السلام الذي خط ما بقي منه . وأرجو أن أوفق إلى تحسينه بما ستظهره التجارب » .

ب – ومن العسير أن يتابع الباحث جهود الأستاذ الحصري اللغوية الأخرى في الجانب التعليمي .. إن ذلك يؤلف موضوعاً مستقلاً برأسه .. سواء ما كان من جهوده في سورية أو من جهوده في العراق بعد ذلك . إن جهوده في هذا السبيل في سورية تكشف عنها مذكراته والوثائق المتبقية في وزارة التربية والتعليم أيام فيصل.. ولكن هذا العهد كان قصيراً، كان له من الورد ألقه ورائحته ، وكان له منه مثل عمره القصير ، ثم كان له مثل لونه في خاتمته الدامية في ميسلون . فانتقل الحصري إلى العراق ليضع هناك أسس الحركة التعليمية ، وليدعم جانب اللغة العربية . وتتمثل جهوده في العراق في مجلة التربية والتعليم بخاصة .وهي

---

(١) هو أخو المرحوم الدكتور صبحي أبو غنيمة . ويقيم الآن في الأردن .

(٢) يريد الخطاط البارع الأستاذ ممدوح الشريف الخطاط . نشأ في دمشق وفيها مات . له ترجمة قصيرة جداً في كتاب تاريخ الخط العربي وآدابه من تأليف محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي الخطاط . ولا أعرف له ترجمة أخرى . وأهيب بالسيدة وزيرة الثقافة أن تدفع الوزارة بعمل ما يخلد الرجل ويحفظ آثاره ويطبع نسخاً منها على مثال ،انفعل باللوحات الفنية ، لأنه كان عبقرية نادرة في مجال الخط . واحسب نتاجه ثروة فنية لاتقدر . ووزارة الثقافة احرى الهيئات بجمعه ورعايته .

مجلة صدر منها خمس مجلدات وتضم كثيراً من المقالات التي تصور جهده اللغوي والتعليمي وتعبر عنه .

ج - وأجدني هنا مضطراً إلى الإشادة بالبرامج التي وضعها للتعليم في خلال الحكم الوطني حين عاد إلى سورية مستشاراً ثقافياً ، وقدم تقاريره عن إصلاح المعارف ، وانتهى من ذلك إلى البرنامج الذي كسر فيه هذا التوازي بين البرامج السورية وبين البرامج الفرنسية . ودعا إلى برامج عربية سورية تنبع من حاجة القطر ومن ظروفه ، وتؤكد على لغته وثقافته العربيتين ، وتفتح له طريق المعرفة والعلوم من غير أن يكون ذلك مشدوداً إلى لغة أجنبية معينة ، أو أن يكون من طريق بلد أجنبي معين .

٢ - الفصحى والعامية :

وتقف في رأس القضايا اللغوية في الوطن العربي قضية هذه الفروق بين الفصحى والعامية ، وهذا الصراع الذي تواجهه العربية مع هذه العاميات ، وهذه المعاناة التي تعانيها أجيال من المعلمين ومن المتعلمين ، وهذا الجهد المهدور الذي تبذله المدرسة ويقتله الشارع ، ويبنيه معلم العربية في ساعة ويهدمه زملاؤه معلمو المواد الأخرى في ساعات .

صحيح أن هذا الازدواج بين الفصحى والعامية ليس مقصوراً على اللغة العربية . ولكنه في العربية يتخذ شكلا حاداً وبخاصة حين نجد من يتعصب للعامية في هذا القطر أو ذاك ، وتكون ثمرة دعوته إلى استعمالها أن تؤول العربية إلى عربيات وأن ينفرط هذا العقد الذي عقدته الحضارة العربية منذ جعلت القرآن الكريم كتابها ولغتها ونهجها .

لم يغفل ساطع الحصري في ممارساته للتفكير اللغوي هذا الموضوع الخطير ، ولم ينطلق في معالجته من هذا المنطلق القطري أو ذاك ، وإنما كان منطلقه اعتقاده بأن اللغة العربية وظيفة خاصة بها ، تنضاف إلى الوظائف التي تنهض بها اللغات الأخرى .. إنها وظيفة توحيدية « إن مهمة اللغة في الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون في قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون إلى إقليم واحد أو قطر واحد ، بل هي ضمان التفاهم والتكاتب والتخاطب والتجاوب بين جميع أبناء الأمة على اختلاف مدنهم وقراهم » (١) .

---

(١) اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ص ٤١ .

ومن هنا كان « لا بد عنده من التوجه إلى اللغة الفصحى » (١) ولكنها الفصحى المعتدلة . ومن هنا أيضاً كان لا بد من التدرج في هذه « الجهود التفصيحية » (٢) على حد تعبيره .

ولقد أوضح ساطع الحصري صور هذا التدرج في المفردات مرة وفي القواعد مرة .. ودعا إلى دراسة التطورات التاريخية للغة وإلى رصد التحولات التي طرأت عليها في هذه العقود الأخيرة ، إذ (أخذ يتكون في بيئات المثقفين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية) ص ٤٦ .

٣ ــ قواعد اللغة العربية :

والاهتمامات التربوية والقومية تظاهرت على أن تدفع بالحصري نحو الاهتمام بقواعد اللغة العربية وما يكون من أمر تيسيرها . كان الاهتمام بالكتب المدرسية الموضوعة لتعليم قواعد اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية قاده إلى تسجيل بعض الملاحظات الانتقادية كما يقول ، فلما نشرت وزارة المعارف المصرية تقرير اللجنة التي ألفتها لدراسة وسائل « تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة » عمد هو إلى جمع ملاحظاته ونشرها . وكان ذلك موضوع بحث له نشره في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٨ (٣) .

وفي هذا البحث حاول الحصري أن يزاوج بين المحافظة على اللغة وبين تطوير قواعدها .. ففرق بين ما أسماه « خصائص اللغة » وما أسماه « قواعد اللغة » . ورأى أن المحافظة على الخصائص لا تعني التمسك بالقواعد . وانطلق من ذلك بسرد بعض اعتراضاته وملاحظاته ، وجمع ذلك كله في ثلاثة عناوين : في التعاريف المتبعة في القواعد ، ثم في تصنيفها ، ثم في تبويبها . وقد ضرب كثيراً من الأمثلة لينتهي معها إلى أن هذه القواعد مشوبة بنقائص كثيرة ، دعا إلى معالجتها بنظرة « تراعي مقتضيات العقل والمنطق ، ومطالب التربية والتعليم »

ومن الحق أن أضيف بعد أنه إذا كان اهتمام الحصري بالقواعد العربية يتمثل في هذا البحث

(١) المصدر نفسه ص ٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) انظر البحث منشوراً في كتابه « اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية العربية » تحت عنوان : « نظرات انتقادية على قواعد اللغة العربية » ص ٨٠ وما بعدها .

المكتوب فقد كانت له ، إلى ذلك ، مواقف شفوية لاتحصى .. كان لا يدخر هذا الحديث، وكان لا يني عن ترداده كلما اجتمع بفريق من أساتذة العربية ومدرسيها .. وكان يلح على ذلك في كل مرة يجد أن كلامه قد يفيد أو يثير .. والذين واكبوا عمله في وضع البرامج الجديدة في سورية – إثر إلغاء نظام البكالوريا المزدوجة وتحويله إلى البكالوريا الموحدة – يذكرون ما كان من حرصه على إصلاح دروس العربية وتيسيرها ، والمناقشات التي كان يثيرها والحوار المتصل مع أصحاب العربية الذي كان يصطنعه .

إن مثل هذا الحوار كان أسلوباً من الأساليب التي كان الحصري يلجأ إليها في تشقيق الموضوع الذي كان يريد أن يتحدث فيه أو في التبشير بالفكرة التي كان يدعو اليها .. وكثيراً ما أفاد من هذا الحوار في حسن تمثل الموضوع وفي استيفاء عناصره أو في اختبار أصدائه ، أو في التنبه إلى الاعتراضات التي تثار – أو التي يمكن أن تثار – حوله .. وذلك كله قبل أن ينتقل به إلى مرحلة المقال المكتوب .. حتى إذا كتبه جاء عرضه للموضوع وهو يتميز بهذا الوضوح وبهذه السهولة (١) .

ويبدو أن الحصري كان يقدم بمثل هذه المقدمات لا للموضوعات التي كان يكتبها قبل أن يكتبها ، بل لهذه الموضوعات التي يتحدث بها قبل أن يكون هذا الحديث .

إن مرحلة من النجوى الصامتة أو الحوار الداخلي فيما بينه وبين نفسه كانت تسبق كذلك هذا الحوار الخارجي .. وكلاهما كان يسبق إخراج المقال من القوة إلى الفعل – إن جاز لي أن أستخدم مصطلحات أصحاب الفلسفة .. والذين كانوا يرونه يطوف في ممرات الفندق « فندق الشرق في دمشق أو فيناواز في القاهرة » كانوا يعرفون ذلك من شأنه ..

ولا أزال أذكر كيف أعد خطابه الكبير الذي ألقاه في مدرج جامعة دمشق وألقى فيه بجملة آرائه في إصلاح المعارف في سورية ، وبخاصة الغاء البكالوريا الثانية .. لقد تحدث ساعة كاملة دون أن يضطرب أو يتلعثم .. لم تنزع جملة عن مكانها ولا مقطع عن مستقره .. وبدا كأنما كان يحفظ محاضرته حفظاً ، على حين لم يكن شيء من ذلك .. وإنما كان يزور الكلام في نفسه ويهيؤه قبل أن يحاضر به أو قبل أن يكتبه .

---

(١) انظر في ذلك المقال الذي كتبه بعنوان « حول استقلال الكلمات ضمن المعاجم » . إنه مثل حي لهذه الظاهرة الأسلوبية : الحوار ، الذي كان يمهد له الحصري في مقالاته . ص ٢٠٣ وما بعدها من كتابه اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية . وانظر في الكتاب نفسه ص ١٤٤ مطلع مقاله : مناقشات حول بعض الاصطلاحات .

وأغلب ظني أن ذلك كان من دأبه في كل ما يقول أو يكتب . لقد أتيحت لي خلال صلتي به وعملي معه أن أشهد ولادة كثير من مقالاته وأبحاثه .. ان أوراقه الضيقة الطويلة التي كان يستخدمها كانت تخلو من كل اضطراب .. كان المحو والإثبات فيها لا يتجاوز الكلمة أو الجملة . وكأنما كانت هذه المقالات تولد مكتملة ، لا أن تكون هناك – وفي النادر – خطيئة عارضة مما تصادف عند الكثرة الكاثرة من الكتاب ، أثراً للتوهم أو للسرعة .

وتلك ، على كل حال ، قضية أخرى تعني الذين يريدون دراسة أسلوب الحصري .. وإنما وقفت عندها لأشير إلى أن قواعد اللغة العربية التي تحدث عنها الحصري لم تكن من الصعوبة بمثل ما أخذنا نتعود الحديث عنها .. ولعله هو لم يعان مثل هذه الصعوبة في تعلمها .. وإنما جاءه الحديث عنها – وكذلك يجيئنا – من خلال المقارنة بين اللغة العربية وبين اللغات الأجنبية التي يقدر لنا أن نتعلمها .. ولكن الشواذ والصعوبات أقدار مشتركة بين اللغات جميعاً .. والظروف المعقدة التي تحتاط نشأة اللغة أو تطورها تحول بينه وبين أن تكون لها منطقيتها التي تتطلبها منها .. ولو أن منصفاً عقد هذه المقارنات مع العربية ونظر إلى النتائج من الزاوية المقابلة ، هي زاوية الصعوبات في اللغة الأخرى أو شواذها بالقياس إلى العربية ، لاستبان له أن هذا الذي يقوله عن العربية يصدق كذلك على كل لغة أخرى تقارن بها .

إني هنا لا أريد أن أتقصى « الملاحظات الانتقادية » التي قدمها الأستاذ الحصري ، فليس ذلك من شأن هذه المقالة في شيء .. وإنما أردت أن أدفع هذه الحملات الظالمة التي تتعاظم وتشتد على قواعد اللغة العربية والتي يفتننا بها بعض المغرضين فيفتتن بها بعض الناشئين أو المتعلمين .. حتى لقد أوشك أن يسيطر على هذا الجيل نوع من الوهم المتحكم نخشى معه أن يمحي ويرث ما بين الناس ولغتهم من حب لها وحفاظ عليها .. على حين أن محبة اللغة والحفاظ عليها أسمى الدوافع للعمل القومي الكبير ، وعلى حين أن اللغة تؤلف الخيوط الأقوى في النسيج القومي الذي يشد ما بيننا .

٤ ــ المصطلح العلمي :

هل هناك من شك في أن قضية المصطلح تجمع جوانب كثيرة من قضايا اللغة العربية ومشكلاتها ؟! أليست هي التي تكشف الجانب الحضاري من الحركة العربية المعاصرة ؟ .

لم يكن غريباً إذن أن يقف ساطع الحصري عند هذه القضية منذ استقر به الأمر في الساحة العربية ، ومنذ بدأ جهاده الصامت في مجالات الفكر والثقافة والتربية .

من الواضح أن كثيراً جداً من عمل الحصري في هذه الآفاق بدأ في أعقاب قيام الحكومة العربية الأولى في دمشق .. إنه لم يكد يبدأ عمله في « دمشق الشام » حتى بادر إلى تأليف لجنة اختصاصية رسمية للنظر في أمر الاصطلاحات العلمية سنة ١٩٢٠ » (١) .

ويحدثنا الأستاذ الحصري عن عمل هذه اللجنة وخططها فيقول :

«وكانت اللجنة أخذت على عاتقها أن تقرر في بادىء الأمر الاصطلاحات العلمية المدرسية التي يحتاج إليها المعلمون في الدراسة الثانوية ، وأن تنتقل بعد ذلك إلى سائر الاصطلاحات. وقد اختطت لنفسها خطة عمل تسير بموجبها في هذا الباب وقررت أن تنظم لشبيه « جذاذة » خاصة لكل كلمة على حدة ، يدرج فيها : آ) منشأ الكلمة واشتقاقها ، ب) ما يقابلها في اللغات الأوروبية الحية ، ج) ما استعمل من الكلمات العربية مقابلها في الكتب المطبوعة في مصر وسورية وتركية (٢) ، د) ما كان يستعمل مقابلها أو في معان مقاربة لها في الكتب العربية القديمة ، ه) ما يوجد في المعاجم من الكلمات الملائمة لمعناها » (٣) .

« فتختار اللجنة أوفق الكلمات بعد ملاحظة جميع المعلومات ، ثم تعرضها على كبار المشتغلين في اللغة والعلوم في البلاد العربية المختلفة ، وتعيد النظر في الأمر بعد ورود الأجوبة ومناقشتها ، وتقرر قرارها النهائي بعد هذه التدقيقات والمخابرات والمناقشات كلها » .

هذا العمل المنهج لم يتح له أن يعطي ثمرته .. ذلك لأن اللجنة « تشتت على اثر اندراس الحكومة العربية قبل أن تجد مجالا لإنجاز عمل من الأعمال التي كانت تستهدفها » .

ومع ذلك فإن الشعلة لا يمكن أن تنطفىء . فقد مضت سورية بعد في هذا الطريق وإن كان ساطع الحصري قد غادرها إلى العراق .. إن الأرض الطيبة قادرة على أن تثمر الثمرة الطيبة . ومن المؤكد أن سورية كانت – وستظل إن شاء الله أبداً – في موقعها المتقدم والرائد في خدمة اللغة العربية ورعايتها .. لا منة لها في ذلك لأن الأمر يتصل بأسباب وجودها وأصالتها .

---

(١) ص ١١٧ من كتاب اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية .

(٢) ذلك لأن كثيراً جداً من الكلمات العربية دخلت التركية . ولم يكن الاتراك يتأخرون عن استعمال اللفظ العربي حين كانوا يترجمون أو يؤلفون أو يضعون . وطبيعي انهم كانوا يصبونه – إذ يستعملونه – في القالب التركي .

(٣) المصدر ذاته ١١٧ – ١١٨ .

وفي العراق لم ينس الحصري أمر المصطلحات ولا غفل عنه . وهو يحدثنا في مقاله ذاته أنه (١) « تألفت لجنة رسمية أخرى في مدينة السلام سنة ١٩٢٦ لتقرير الاصطلاحات العلمية إلا أنها ألغيت – لأسباب مؤسفة – بعد مدة وجيزة قبل أن تنجز عملا ذا بال ، مع أنها كانت قد وضعت خطة عملية لعملها ، واعتبرت المواد الآتية قواعد ودساتير تتبعها فيما تضعه وتقرره من المصطلحات العلمية والكلمات اللغوية :

١ – إن الاشتقاق قياسي في اللغة قياساً مطلقاً في أسماء المعاني التي هي عرضة لطروء التغير على معانيها ، ومقيد بمسيس الحاجة في الجوامد .

٢ – إن وضع الكلمات الحديثة في اللغة يجري إما على طريقة الاشتقاق وإما على التعريب . ولا مانع من الجمع بينهما . ويرجح النحت عند الحاجة .

٣ – لايذهب إلى الاشتقاق في وضع كلمة حديثة إلا إذا لم يعثر في اللغة على ما يؤدي معناها ، بخلاف التعريب فإنه لايجوز تعريب كلمة أعجمية مع وجود اسم لها في العربية ، كما هو الشأن في كثير من المعربات الموجودة في اللغة .

٤ – يشترط في الكلمات التي تختار من كتب اللغة ليعبر بها عما حدث وتجدد أن تكون مأنوسة غير نافرة ، وإلا وجب تركها والذهاب إلى طريقة الاشتقاق أو التعريب .

٥ – يرجح الشائع والمشهور من المولد والدخيل على الوحشي المهجور من الكلمات التي في معاجم اللغة .

٦ – لايشترط في المعرب رده إلى وزن من أوزان الكلمات العربية ، ولكن يستحسن ذلك إن أمكن كما يستحسن تغييره بما يجعله قريباً من اللهجة العربية . » .

قد أكون عمدت عمداً إلى ذكر هذه القواعد . لقد ترددت في اثباتها هنا في البداية ، ولكني لم أجد نفسي في حل من ذلك ، بل وجدتني مدفوعاً إليه .. لأن هذه القواعد تكاد تكون هي القواعد الاساسية المستعملة في هذا الباب بعد نصف قرن من الزمان ١٩٢٦–١٩٧٦ .

ومعنى هذا أن قضية المصطلح لاتزال تتأرجح وتتعثر رغم وضوح المنهج واستقامة الجادة ، ولا تزال تدير من الجدل النظري حولها بأكثر مما تدير من الجهد العلمي في سبيلها .. على حين

---

(١) المصدر المتقدم ذاته ص ١١٨ وما بعدها .

تتكاثر المصطلحات كل يوم ، وتغزونا الحضارة في كل ساعة بجديد .. وتتسع الهوة في تسارع مخيف بين مايتوالد من حاجات ويتولد من كلمات .

قلت إن هذه المواد تمثل القاعدة الأساسية . ومع ذلك فإن الممارسة العملية لوضع المصطلحات قادت إلى جملة أخرى من القواعد يذكرها الحصري .. وإني لأتمنى على الذين يعملون في نطاق المصطلح أو يهتمون به أن ينظروا فيها في مكانها من هذه المقالة(١) لأنها توضح كثيراً من الغوامض ، وتوطىء الطريق أمام الباحث ، وتقطع السبيل على كثير من المناقشات المصطنعة .

ولست أريد أن أمضي بعيداً في استقصاء جهود الحصري النظرية والعملية في مجال المصطلح العلمي ولكني أريد أن ألفت النظر إلى مقالين له في هذا الاتجاه : أحدهما بعنوان : النحت . والآخر بعنوان : مناقشات حول بعض المصطلحات :

أ — فأما مقال : النحت ، فيمثل جهده النظري في ميدان المصطلح ولكن الحصري يندر أن يقف عند الجانب النظري للموضوع الذي يكتب فيه .. تلك خصيصة من خصائصه ، فوراء كل جهد نظري عنده غاية عملية أو هدف عملي .. ولذلك ذهب في خاتمة المقال يورد تطبيقات عملية على النحت في ميدان الاصطلاحات العلمية .

ويبدو الحصري ميالا إلى النحت وإلى استخدامه على مقياس واسع .. ذلك أن النحت أحد ثلاثة طرق في ايجاد المصطلح : الاشتقاق والتعريب والنحت .. وقد آثر كثيرون من اللغويين أن لايلجؤوا إلى النحت إلا مضطرين وأداروا في ذلك جدلا واسعاً وأراقوا مداداً كثيراً وكتبوا موضوعات وفيرة يستطيع الإنسان أن يجدها ، أو أمثلة منها ، في مجلة مجمع اللغة بدمشق أو في مجلة مجمع القاهرة أو في بعض الكتب التي عالجت هذا الموضوع ..

ومع أن الحصري يرى أن الاشتقاق « هو أهم هذه الوسائل الثلاث » إلا أنه في إثر تجاربه المختلفة ذهب يدعو كذلك إلى النحت « فإن الاشتقاق وحده لايكفي لتوليد الكلمات التي يحتاج إليها التفكير البشري لأن عمله مقصور على أوزان وقوالب معينة . وهذه الأوزان والقوالب مهما كانت كثيرة وولودة لاتستطيع أن تستوعب جميع المعاني العقلية ، فلابد من الاستعانة بالتراكيب ، والإقدام على تركيب كلمتين أو أكثر على شكل تراكيب مزجية ووصفية وإضافية وحتى على هيئة جمل فعلية(٢) » .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٩ — ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٦ .

ب - وأما مقال « مناقشات حول بعض الاصطلاحات » فقد خصه الحصري للحديث عن الاعتراضات التي أثارها استخدامه لبعض الكلمات والمصطلحات في دراسته عن مقدمة ابن خلدون .

ويمثل المقال الجهد العملي الحصري لافي وضع المصطلح فحسب بل في مناقشة الانتقادات التي وجهت إليه ، وفي المقارنة بين عدد من المصطلحات ومحاولة تفضيل واحد منها على الآخر. إنه يدافع عن استعماله لهذه المصطلحات التي شاعت : عقلاني ، قبلاني ، بعداني ، وللاخرى التي لم تشع مثل : ربعيل ،عشريل ، ويقارن بين أسماء بعض العلوم التي وضعتلهاسميات مختلفة في البلاد العربية مثل: فسجلة وفيزياء .. ليؤكد سلامة المصطلحات التي استعملت في سورية والعراق ، ولينبه إلى وجوه الضعف في بعض ما استعمل في مصر .. انسياقاً مع نزعته التوحيدية الواضحة (١) .

٥ - المعاجم :

وقد كان من تنوع جهود الحصري في الميدان اللغوي أنه عالج موضوع المعجم العربي في مقال (٢) كان منطلقه فيه منطلقاً تعليمياً تربوياً . لقد لاحظ الحاجة إلى معجم عربي مختصر ، يوضع بين أيدي الطلاب . وحين عرض المعاجم المدرسية المتداولة وجدها جميعاً (مرتبة على نمط المعاجم القديمة وسائرة على خططها لأنها ترتب الكلمات بحسب موادهاالأصلية ، ولا تراعي ترتيب الحروف الهجائية إلا في تلك المواد) .

من هنا دعا دعوته إلى تأليف معجم مدرسي تذكر فيه الكلمة بترتيب الحروف التي تتكون منها ، لا بالرجوع إلى الأصل الثلاثي الذي اشتقت منه . فكلمة « عدة » مثلا تذكر في المعاجم في مادة وعد أي في حرف الواو ولكنها تذكر في المعجم الذي يقترح في حرف العين ..

ومن المعلوم أنه صدرت في السنوات الأخيرة في بيروت معاجم منسوقة على ترتيب الألفاظ في الكلمة ذاتها دون الرجوع إلى أصلها . وفي تراثنا المعجمي القديم كان هناك من لجأ إلى هذا الأسلوب في وضع بعض المعاجم .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٤ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣ وما بعدها .

ويستند الحصري في هذه الدعوة إلى أن (المعجم بمثابة مخزن الكلمات معد لمراجعة جميع الناس بحيث يستطيع كل شخص أن يدخل هذا المخزن ليتناول الكلمة التي يقصدها دون مساعدة أحد ... ولكن المعاجم العربية الموجودة بين الأيدي لا تزال تضع الاشتقاق في الموضع الأول من الاعتبار فتهتم بأنساب الكلمات قبل كل شيء) .

ويأخذ الحصري يضرب أمثلة طريفة حقاً ، ويدافع عن وجهة نظره الجديدة هذه بأسلوب تمازجه السخرية احياناً .. ويؤلف هذا المقال من هذه الناحية الأسلوبية نمطاً متميزاً جديراً بالتنبه إليه والوقوف عنده .

وواضح أن الأمر عند الحصري لم يكن يقصد إلى أن تؤول المعاجم العربية كلها إلى هذه الصورة وإنما كان أعظم همه في ذلك متجهاً إلى المعجم المدرسي .

وفي خاتمة مقاله كان يقول : (أنا لا أدري كم يكون طول المدة التي ستمضي بين كتابة هذه الأسطر وبين ظهور المعاجم التي تشير إليها) .. أتراه كان على شيء من اليأس — وهو الذي كان يغالب كل مظاهر اليأس ويسعى نحو استنبات الأمل استنباتاً من الصخر — في انه لن يدرك ظهور هذا المعجم .

٦ ـ جهود في ميادين اخرى :

وقد تجاوزت جهود الحصري هذه الميادين إلى ميادين فرعية أخرى كان هدفها كلها التمكين للعربية وأسلوبها والتأكيد على قيمتها في الحياة القومية .. لقد كان حريصاً على أن يعالج كل ما يعرض له .. وكان له بصره النافذ ، فإذا وقع على الظاهرة أو واجه المشكلة تحدث عنها وبحث فيها أما إذا كان ما لمحه أو وقع عليه لا يتجاوز بعض الملاحظات فإنه كان يكتفي بتسجيلها والتعليق القصير عليها . ولكنه لم يكن خلواً ، في اية من المرات ، من الهدف القومي أو الاصلاحي ... إن مقاله مثلاً « تطوف لغوية في تونس » الذي كتبه سنة ١٩٥٠ كان اثراً لما سمعه في زيارة لتونس قام بها لهدفين : إتمام بحثه عن ابن خلدون ومقدمته من جهة ، وجمع المعلومات والوثائق التي تتعلق بنظم التعليم وتاريخه من جهة أخرى .. وعلى ذلك فقد ألقى سمعه إلى بعض ما سمع وألقى بصره إلى بعض ما رأى وخرج من ذلك بهذا المقال .

ومثل ذلك مقاله بعنوان : في الاندلس ، الذي هدف من ورائه إلى التأكيد على أثر اللغة العربية في الاسبانية وبالتالي إلى التأكيد على دور الحضارة العربية في الأندلس .

ومن هذا القبيل مقاله عن « الاختلاف في اسماء الشهور الميلادية بين بلد وبلد عربي آخر » .. فقد صور على نحو يستثير القارىء هذا الخلاف ، وكأنما كان يحمله حملا على العمل لتجاوز هذا الخلاف المثير .

وحين قارن بين اسماء الأشهر في البلاد العربية والبلاد التركية انتهى إلى هذه النتيجة التي تجسد شعوره بالغيرة والألم .. « أفليس من الغريب أن تسمى كل الأشهر الشمسية بأسماء افرنجية في بعض البلاد العربية ، في الوقت الذي لاتزال تسمى ستة منها بأسماء عربية في البلاد التركية .. انما يترتب على الدول العربية أن تعالج هذه البلبلة الاصطلاحية وتقدم على توحيد أسماء الشهور الشمسية »(١) .

وتستطيع أن تعد من هذا القبيل مقاله عن « بقايا التركية في لغة مصر الرسمية » فقد كان نداءاً حاراً للتخلي عن هذه الكلمات التي تخلى عنها أصحابها . وبخاصة حين عمد إلى المقارنة بين ما هو في مصر من ناحية وما في العراق وسورية من ناحية أخرى .. كأنما كان يضع البديل – على نحو واضح وميسور أمام الأخوة المصريين . واحسب انه لذلك انهاه بهذه الجملة التي يمتزج فيها التساؤل بالأمل : (هذه هي سلسلة الحوادث والأسباب التي وجهت الأمور في سورية والعراق إلى اتجاه يختلف عن الاتجاه الذي سارت عليه في مصر في هذا المضمار ... مع هذا ، لابد من الإشارة إلى أن هذه الأسباب تعود إلى النشأة الأولى وظروف الانفصال ، فأدت إلى إبقاء هذه المصطلحات في لغة الدواوين المصرية إلى الآن . غير انه يجدر بنا أن نتساءل : هل هذه الأسباب ستضمن دوام هذه المصطلحات بعد الآن أيضاً ؟.. إنني لا أتردد في الاجابة على هذا التساؤل بالنفي . فلا أستبعد ان يصبح معظم ما كتبته آنفاً « حكاية ماض » – في عهد مصر الحديث – بعد مدة وجيزة من الزمن)

° ° °

وبعد فهناك ما يشبه الاجماع على أن الذي قدمه ساطع الحصري للفكرة العربية وتأصيلها لم يقدمه رجل آخر خلال هذه العقود الأخيرة .. قد يكون هناك زعماء أطلقوا نظريات مجردة أو وقعوا على بعض الشعارات أو أسهموا ببعض التنظيمات أو خاضوا عملا سياسياً ما .. وقد يكون هناك مفكرون طرقوا بعض جوانب الفكر القومي .. ولكن من المؤكد ان ساطع

---

(١) ص ١٨٥ من كتاب الأدب واللغة وعلاقتهما بالقومية .

الحصري يتميز بأمرين أحدهما – وقد اشرت إليه – انه كان يجمع بين الجانب العملي وبين الجانب النظري .. انه بقدر ما خدم هذا الجانب واغناه خدم الجانب الآخر وأغناه .

والثاني انه كان يختار الأرض الصلبة التي يبني عليها .. لقد اختار التربية والتعليم لتأصيل العاملين الأساسيين في الفكر القومي : التاريخ العربي واللغة العربية .. وليستنبت الأجيال العربية الجديدة وفية لهذا التاريخ مؤمنة بهذه اللغة وبكل ما يتصل بها : بمواردها ومصادرها وحركتها ..

ومن هنا كان تأثيره .. ومن سلوكه الأخلاقي الرفيع الذي تنزه عن الهوى وآثر الزهادة وكبت كل رغبة شخصية كان التقدير الكبير الذي لقيه .. لقد جانب مناطق الأضواء وساحات الشهرة لأن العمل الأصيل يظل دائماً بمنأى عن التصفيق الدائب والتمجيد الملح .. والمصفقون لايتخدعون عن أنفسهم فحسب ولكنهم يخدعون غيرهم وقد يزلقون به في مهاوي الطرق ، والتمجيد لايتأتى من الكسوة الخارجية ، وانما ينبع من العمل القيم وحده .. ولذلك غاب الذين نازعوا أفكار الحصري بأصواتهم بالموت أو بالنسيان ، وبقي الحصري حياً بآرائه الاصيلة وأفكاره الواضحة وابحاثه الحرية .

ترى هل تجد « المعرفة » سبيلا إلى الكشف عن الجوانب الأخرى من هذه الشخصية الرائدة؟

وهل علينا من حرج إذا قلنا إن الحصري كان له من القدرة والأثر في الحياة اللغوية مثل الذي كان من قدره في الحياة التعليمية والفكر القومي ؟!

د. بكري علاء الدين

تجربة اللغة لدى الأرسوزي *

« العرب أشد شعوب الأرض إحساساً بلغتهم »

البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة .

الحديث عن الأرسوزي ، يأخذ بعده الأساسي من أنطاكية . ولا يمكن فصل تجربته في اللغة العربية عن تجربته الحضارية في الوعي القومي .

يقول الأرسوزي : « في انطاكية حدث أول ما حدث الانقلاب الاجتماعي السياسي في حياة العرب . كانت العجائز من النساء في المدينة يلخصن الانقلاب بقولهن ، مشيرات وأنا في طريقي : « هذا الذي حقق المعجزة ، إنه جمع القلوب على حب واحد هو حب العروبة »(١).

---

* ولد زكي الأرسوزي حوالي عام (١٩٠٠) في اللاذقية وتوفي عام (١٩٦٨) في دمشق . أنظر المؤلفات الكاملة ، جزء ١ .

(١) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة ، الطبعة الأولى ، دمشق ، جزء ٣ ، ص ٢٨٨ .

وتساءل الأرسوزي بعد أن « هاجر » إلى الأراضي السورية ، عن الأسباب التي حملته على التضحية في سبيل العروبة . وتوصل بعد التردد والحيرة إلى مكمن السر : انها اللغة العربية(١) . ولقد ركز الاستاذ انطون مقدسي بشدة على تأثير مأساة اللواء في حياة الأرسوزي فقال : « نجد في أساس فكر الأرسوزي ، الحدث الفردي والفريد تعريفاً ، وعلى الضبط تجربة اللواء ، تجربة حاسمة في تاريخه ، ويجب أن تكون حاسمة في مصير الأمة العربية » (٢) .

كانت اللغة العربية سبباً في جمع العروبيين وتآلفهم حين كان الأرسوزي يناضل قبل سلخ اللواء ، ثم أصبحت عنده بعد « الهجرة » موضوعاً للتأمل الطويل والمعاناة اليومية . أي أنها ابتدأت كدافع إلى الوعي والتحرر ، فغدت تعالج بمنظار شمولي للإفادة منها في خلق الوعي القومي على أسس جديدة ، ونقله من ثم إلى الآخرين . واكتشف الأرسوزي ، فيما اكتشف ، أن للغة العربية « بياناً » ذاتياً ، يمكن النظر إليه بوصفه بياناً موازياً للبيان الأدبي . والفرق بينهما هو أن البيان بالمعنى الأدبي ، مضاف إلى اللغة من الخارج ، أي أنه يأتيها من قبل الإنسان على شكل إضافات تقنية . أما البيان الذاتي فإنه يفيض من طبيعة اللغة العربية ، ويكشف عن نفسه في التوافق بين اللفظ والمعنى . وبذلك فلا تكون العربية آلة(٣) متعطلة ، تنتظر الأديب البارع القادر على إبراز عبقريته من خلالها ، بل انها فاعلة تترك آثارها في نفس العربي وتؤثر في تكوينه . ان لها رئيناً خاصاً استقته من نزوع الحياة .

تنبه أئمة اللغة الأوائل إلى « المناسبة بين اللفظ والدلالة » كواحدة من خصائص اللغة اللغة العربية المدهشة . وليس بوسعنا أن نبدأ بدراسة اللغة عند الأرسوزي دون القاء نظرة على محاولات الأقدمين . كما أن كثيراً من المفكرين والأدباء قد تنبهوا إلى هذه الظاهرة حديثاً . بيد أن الأرسوزي يمتاز عن السابقين واللاحقين ، بحمل المسألة على محمل الجد ، فلم يكن الأمر لديه مجرد اعجاب عابر ، بل انه دفع إلى الغاية القصوى تعمق هذا الباب . وجعل منه ومن النتائج التي توصل إليها أداة ومرتكزاً يرتفع فوقها بناء فلسفي يختص في جنباته الأخلاق والسياسة والفن .

(١) انظر المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ و ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، مقدمة الجزء الرابع ، ص ٨ .

(٣) انظر المؤلفات الكاملة ، ج ٦ ، ص ٥٥٠ .

محاولات أئمة اللغة :

ذهب عباد الصيمري وهو من المعتزلة إلى أن « بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية ، وكان بعض من يرى رأيه يقول (عنه) : إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ؛ فسئل ما مسمى « اذغاغ » (وهو بالفارسية الحجر) ، فقال : « أجد فيه يبساً شديداً ، وأراه الحجر » . وأنكر الجمهور هذه المقالة وقال : لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة ، ولما صح وضع اللفظ للضدين لـ (...) الجون للأبيض والأسود .. وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني »(١) .

ولما كان الصيمري معتزلياً فإنه أخذ بالرأي القائل بأن الله يختار الأصلح في أفعاله ، وأن آدم تلقى اللغة من الله تعالى بالتعليم (وعلم آدم الأسماء كلها) . واقتضى وضعها ذلك الكمال في المناسبة الصوتية الدلالية . وتأتي خطورة هذا الرأي من كونه يسحب هذه القاعدة على لغات بني آدم جميعاً ، لولا أن هنالك شبه إجماع بين علماء اللغة العربية على أن المناسبة بين الألفاظ والمعاني ثابتة للعربية دون سواها ، لما خصها الله به من شرف بالقرآن الكريم .

ولقد قام ابن جني بأول محاولة لدراسة هذه المناسبة ، في باب خاص من كتابه «الخصائص» ، مشيراً إلى أن الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه قد نبها إلى ذلك قبله ، وأن جماعة اللغويين قد « تلقته بالقبول له والاعتراف بصحته» .

وسنحاول الآن استقصاء أشهر الآراء حول هذه المناسبة . ونستطيع تقسيم الموضوع إلى بابين : يختص الباب الأول بدوران الأحرف على مثال وصيغة معينة تؤدي إلى « إمساس الألفاظ أشباه المعاني » ، وفيه نظر إلى الكلمة من حيث « الكل » المتعلق بـ « بناء » اللفظة المفردة . ويحتوي الباب الثاني حالات انطباق « أصوات الحروف على سمت الأحداث » ، وفيه نظر إلى دور الحرف المفرد في توجيه المعنى وتقليبه من حيث « الجزء » ، وأطلق السيوطي على هذا المبحث اسم : « الفروق »(٢) . ويصف ابن جني هذا الباب بأنه « أكثر مما نقدره ،

---

(١) جلال الدين السيوطي ، المزهر ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ... مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ، بدون تاريخ ج ١ ، ص ٤٧ .

(٢) أنظر المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

وأصعاف ما تستشعره » ويقول في موضع آخر : « إن كثيراً من هذه اللغة ، وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنه » (١) .

آ — مناسبة « الأبنية » للمعاني

١ — يورد ابن جني مثالا مروياً عن الخليل يقول فيه : « كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا : « صر » وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : « صرصر » . وفي ذلك كما هو واضح تطوير للبنية الأساسية (صر) .

٢ — كما نقل ابن جني عن سيبويه قوله في المصادر التي جاءت على « الفعلان » : « إنما تأتي للاضطراب والحركة ، نحو « النقزان » و « الغليان » و « الغثيان » . ويقفو ابن جني أثر الخليل وسيبويه معقباً : « ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذياه ، ومنهاج ما مثلاه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو : « الزعزعة » و « القلقلة » و « الصلصلة » و « القعقعة » و « الجرجرة » و « القرقرة » . ووجدت أيضاً (الفعلى) في المصادر والصفات ، إنما تأتي للسرعة نحو : « البشكى » و « الجمزى » و « الولقى » ، فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ، أعني : باب « القلقلة » . والمثال الذي توالت حروفه وكأنه للأفعال التي توالت الحركات فيها (. . .) ومن ذلك وهو أصنع منه أنهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب ، نحو « استقى » و « استطعم »(٢) . . . ويعلق السيوطي في المزهر على صيغة « استفعل » من حيث أنها مجعولة للطلب ، بسبب تقدم حروف زائدة على الأصول كما يتقدم الطلب الفعل(٣) .

٣ — « ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل فقالوا : كسر وقطع وفتح وغلق ، وذلك أنهم جعلوا الألفاظ دليلة المعاني ، فأقوى اللفظ ينبغي أن

(١) ابن جني ، الخصائص ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ٦٦ .

(٢) ابن جني ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٣) انظر ، السيوطي ، المزهر ، ج ١ ، ص ٤٩ . راجع كذلك ، ابن فارس ، الصاحبي تحقيق مصطفى الشويمي ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٢٢ ، باب معاني أبنية الأفعال في الأغلب الأكثر .

يقابل به قوة الفعل ، والعين أقوى من الفاء واللام ، وذلك لأنها واسطة » (١) . وما نلحظه هنا هو نوع من تقوية البنية الداخلية وتدعيمها كي تقول بنبرة أقوى ما تشير إليه على أنه أكبر أثراً .

ب - مناسبة الحروف سمت الأحداث (الفروق)

١ - لنلاحظ الفرق في المعنى أثر اختلاف الكلمة في حرف واحد كقول العرب « خضم » و « قضم » : « فالخضم لأكل الرطب : كالبطيخ والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب اليابس ، نحو قضمت الدابة شعيرها . . . فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث »(١) . كذلك تتدرج المعاني في « نضح » و « نضخ » حسب قوة الحرف الأخير من الكلمة « فجعلوا الحاء لرقتها للماء الخفيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه » ، ومن ذلك قولهم : « القد » طولا ، و « القط » عرضاً لأن الطاء أحفض للصوت ، وأسرع قطعاً من الدال » . . . ويمكننا أن نقيس على ذلك أمثلة عديدة جداً وردت في أماكن متفرقة من كتب التراث مثل : « القبصة » و « القبضة » . فالقبص : الأخذ بأطراف الأنامل ، والقبض : الأخذ بالكف كلها ، ومثلها « السد » وهو دون « الصد » فجعلوا الصاد لقوتها ، للأقوى والسين لضعفها ، للأضعف . ولمن ذلك « القسم » و « القصم » فالقصم أقوى فعلا من القسم ، لأن القصم يكون معه الدق . . . وقد استطرد السيوطي في المزهر بضرب الأمثلة على هذا النوع ، ثم قال : « فأنظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها ، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة في المعاني ، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتاً ؛ وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حساً ، ومن ذلك « المد » و « المط » . فإن فعل المط أقوى لأنه مدوزيادة جذب فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال »(٣) .

٢ - تعرض ابن جني في أول باب من أبواب كتابه « الخصائص » إلى الفصل بين « الكلام » و « القول » . وبدأ من اللجوء إلى تعريفهماحسب الأصول المنطقية السائدة في عصره فقد قدم طرفاً من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقاتهما مع تقليب حروفهما . وقال

(١) نقلا عن المرجع السابق ، ص ٤٩ .
(٢) ابن جني ، الخصائص ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .
(٣) السيوطي ، المزهر ، ج ١ ، ص ٥٣ .

عن محاولته هذه بأنها : تتجاوز قدر الاشتقاق المعروف ، وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على وسع .

والمؤكد أن ابن جني كان على وعي تام بأنه أول من أحدث هذا النوع من الأشتقاق في اللغة . وأطلق عليه اسم « الاشتقاق الأكبر » تمييزاً له عن « الاشتقاق الأصغر » الذي يمكن بواسطته استخراج الحالات السبع الممكنة عن فعل واحد مثل : « سلم » يشتق منها : يسلم ، سالم ، السلامة . . .

٣ – ويدور البحث هنا عن قيمة كل حرف بمفرده وأثره في معنى الكلمة واختصاصه بهذا المعنى دون سواه . وكان الخليل أول من أهمّ بترتيب الحروف حسب مخارجها وقد صنف كتاب « العين » مستنداً إلى أنه أصح ما يمكن أن يبدأ به من الأحرف العربية لأنه « أنصع الحروف » . ونعثر عند ابن فارس المتوفي (٣٩٥) ﻫ . على محاولة في كتابه « الصاحبي » (تحقيق مصطفى الشويمي بيروت ١٩٦٤) لتقييم المعنى الناتج عن الجيم والنون . (ص ٦٧) » ولم يتوسع اللغويون العرب القدامى في هذا الباب ، نظراً لأن الحرف المفرد لايؤدي من المعنى ما تؤديه الكلمة . ولأن الملاحظة تشير إلى أنه قد يؤدي إلى معان مختلفة ومتناقضة أحياناً . وخير مثال على ذلك ما أورده العقاد في كتابه « أشتات مجتمعات » فقد كتب إليه الشاعر رشيد سليم الخوري مانصه : « قد تنبهت بطول المراجعة إلى أن حرف الفاء هو نقيض حرف العين بدلالته على الإبانة والوضوح : فتح فضح . . . وأن حرف الضاد خص بالشؤم ... :ضجر ، ضر ،ضير ... ويعكسه الحاء التي تكاد تحتكر أشرف المعاني وأنولها : حب ، حق ، حرية . . . » . ويرد عليه العقاد معقباً : « إن « الحاء » حقاً من الحروف التي تصور معنى السعة بلفظها . . .حين يلفظ الفم بكلمات « الارتياح والسماح والفلاح والنجاح والفصاحة . . . ولا يمتنع مع هذا أن تكون « الحاء » المنفردة حرفاً سهلاً قليل الحاجة إلى الضغط في مخارج الصوت ، ولكن يجوز أن يكون البدء بها مقصوداً به عند وضع الكلمات الأولى أن تتبعه الحركة التي تناقض معنى السعة لتدل على الحجر والتقييد . . . فلا يلزم من مصاحبة بعض المعاني لبعض الحروف أن يكون ذلك شرطاً ملازماً لجمع حروف الهجاء »(١) . ويبدو أن الأرسوزي قد أصاب نجاحاً أكثر من غيره في هذا

(١) العقاد ، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، دار المعارف ، طبعة ٢ ، ص ٤٣ وما بعدها .

الباب عند حديثه عن حرف الغين ودلالته على المعاني الخفية والغموض ، مثل الكلمات : الغيبوبة ، غبر ، غبش ، غرر ، غرس ، غرق ، غاص ، غمد . . . الخ(١) .

لم يخرج الأرسوزي عن الهيكل الذي قدمناه للمناسبة بين الألفاظ والمعاني . ونظراً إلى تطوير هذه الخصيصة عنده ، فإن تلخيصها أمر ناقل لأنه يحرمنا من الاطلاع على الفروقات الدقيقة التي أحدثها . ويمكن الرجوع إلى « المجلد الأول » من مؤلفاته لنعثر على الأمثلة مباشرة في الرسائل الثلاث التي يضمها هذا المجلد . وما يهمنا هنا هو الاشارة إلى أن الأرسوزي قد خرج بملاحظات تستحق المتابعة والدراسة من خضم اللغة الذي لاقرار له . وقد أبدى أئمة اللغة أن الجري وراء الإحاطة بدقائق اللغة أمر شبه مستحيل . فالسيوطي يقول عن باب الفروق بأنه « لا آخر له » . أما إذا أردنا اعتبار « الأبنية » لأنها تنطبق على المعاني الموضوعة لها إلا في اليسير(٢) ، فإننا سنجد أنفسنا أمام عمل إن أمكن الإحاطة بكل فروعه فإن القوانين التي تحكم انطباق المعنى على البناء قد لاينطبق اسمها على مسماها ، إذا علمنا بأن عدد الأبنية من الأسماء والأفعال حسب رواية السيوطي يبلغ ألفاً ومائتين وعشرة أبنية . وبالرغم من كل هذه الصعوبات فقد قال الأرسوزي بأن « صورة الكلمة تعبر عن صورة المعنى وفقاً لقاعدة »(٣) . ولنشدد هنا على كلمة « القاعدة » . فهي تعني إخضاع الجزئيات لقانون ثابت ، سواء كان بمقدورنا استقصاؤها أم لا . ومن هنا تأتي أهمية التجربة اللغوية عند الأرسوزي . لقد تجاوز الأقدمين والمحدثين وقال بإمكانية العثور على « قاعدة » تتحكم بتغيرات اللغة . إلا ان علينا أن لانفهم أن هذه القاعدة تعني امكانية التحقق التجريبي . وإن هنا معرفة حدسية مصاغة في قالب « علمي » . ذلك أن الأرسوزي ينبهنا إلى أن الزمن لاينطبق على اللغة العربية(٤) فهي مطلقة وخالدة ومثالية ، وما هذا شأنه فإنه يتخطى حدود العلم . وقد أوضح الاستاذ مقدسي هذه النقطة فقال عن الأرسوزي بأنه لم يقع مع اللغويين المحدثين الذين لم يعرفهم ، على « اللغة بوصفها منظومة علاقية وموضوعية ، كما يرى علماء اللغة » ، بل على أحداث لسانية ،

---

(١) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، جـ ١ ، ص ٣١٤ .

(٢) أنظر ، ابن فارس ، الصاحبي ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٢٢٤ و ٢٢٥ .

(٣) المؤلفات الكاملة ، جـ ٦ ، ص ٥٥٦

(٤) أنظر ، المرجع السابق ، ص ٥٥٢ .

كل منها مرتبط بفعل ذاتي ؛ ومنها استنبط نشوء الإنسان والجماعات الإنسانية ونشوء الموجودات والوجود . . . »(١)

ويبدو بوضوح أن ثمة تناقضاً في تحليلنا لتجربة اللغة عند الأرسوزي فتارة نقول بأن اللغة مثالية ومطلقة،وتارة نلمح إلى ضرورة التركيز على فكرة « القاعدة » عند الأرسوزي، ونتهرب من هذا الإحراج فنقول بأن الأرسوزي يتحدث عن قاعدة توصل إليها عن طريق الحدس . والواقع فإن الأرسوزي كان يعيش اللغة كتجربة وجدانية تشبه إلى حد كبير الاختبار الروحي عند المتصوفة ، حيث يشكل الإلهام جزءاً أساسياً من العلم . وسواء أطلقنا على هذا الاختبار شطحاً أم حدساً ، فإنه يبقى معرفة تلتصق بها المقدمة بالنتائج . وقد غدت قضية اللغة العربية عند الأرسوزي قضية معاناة ، يحاول نقلها للآخرين ، دون الخروج عن وسائط التواصل الإنسانية المعروفة ، وحتى أنه يسعنا القول ، إن الأرسوزي كان مؤمناً بنوع من وحدة الوجود تفسر لنا هذا التناقض . وتتيح له التأكيد على عدم الانفصال بين الواقع والمثل الأعلى (٢) .

من جهة أخرى ، لاحظ الأرسوزي أن المصادر الصوتية التي صاغ منها الذهن العربي كلماته لا تعدو الثلاثة :

١ – أصوات الهيجان الطبيعية المرتبطة بالنفس الغريزية . ونظر إلى « عبارة الهيجان » على أنها الأصل في إيجاد اللغة ، ونقطة الاشتراك مع الأحياء العليا في اللغة الطبيعية(٣) « هاك مثلا عن تحول الصوت ، كصوت (آخ) مثلا ، من عبارة طبيعية الهيجان إلى كلام ذي معنى ؛ كأخ وأخوة وإخاء ،وأخت الخ . . . هذا الصوت ، من حيث نشأته الطبيعية ، ومن حيث مهمته البيانية ، مماثل لصوت « قرق ، قرق » عند الدجاج . فكما أن الدجاجة تنادي فراخها بصوت « قرق ، قرق » فتكيف هذا الصوت بمقتضى الحاجة ، تارة تجعل منه دعوة إلى التقاط الحب من الأرض ، وتارة تجعله تحذيراً لهم من خطر باشق يعصف في

(١) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، مقدمة الجزء الرابع ، ص ٨ .

(٢) انظر ، المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ، انظر كذلك الجزء السادس ، ص ٥٧٥ ، حول المشروع الذي كان يفكر الأرسوزي بانجازه ، وحول مصطلح « الوحدانية الرحمانية » .

(٣) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الجو ، فإن الإنسان أيضاً يحدث أصواتاً ويكيف الأصوات المحدثة بحسب طبيعة الهيجان كحوادث : « إن أنا وأنت ، وأن أيناً . . . وهكذا اشتق الذهن العربي من كلمة « أخ » الأخوة والإخاء . . . الخ مفصحاً بها عما يتجلى في ذهنه من معان ذات علاقة بالبنيان الرحماني المشترك بين الأقارب » (٢) .

٢ ـ المجموعة الثانية من الأصوات ، تحصل في الفم ، ثم يصوغ الذهن العربي منها العديد من الكلمات . « فمن صوت « بت » الذي يحصل من تقاطع اللسان مع النطع . والذي يوحي ، بحسب طريقة حدوثه ، معنى القطع ، صاغ الكلمات التالية : « بت ، البات ، الباتر ، الأبتر ، الأمتع ، الباتك ، البتول . . . الخ . . . » .

٣ ـ ومن احتذاء حذو الأصوات الحادثة في الطبيعة صاغ الذهن العربي عدداً آخر من الكلمات ، منها : « صوت « تر » الماء « ترتر » ؛ أي من صوت سقوط الماء متقطعاً ، صاغ الكلمات : « تر » العظم : انقطع وسقط ، و « التري » من الأيدي : المقطوعة . « والمتراح » من النوق التي يسرع انقطاع لبنها . ومن صوت خرير الماء ، صاغ الذهن العربي : « خرب ، خرج ، خرد ، خرم ، خرق . . . الخ » ، كلمات توحي بتأثير الماء في مجراه ، خرباً ، خروجاً ، فرداً ، ترقاً ، فرقاً . . . الخ . . . (٢) .

وهكذا فإن بمقدورنا بعد الانتباه إلى قواعد الذهن في الالحاق والتحويل والاقتران والمشابهة والتضاد(٣) ، العثور على الحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق .

بعد أن درس الأرسوزي ارتباط اللغة بالطبيعة من خلال ارتباط الصوت بالمعنى في حالات الأبنية والفروق . وبعد دراسة الكلمات التي أخذها الذهن العربي عن أصوات الهيجان وأصوات الفم والأصوات الطبيعية . عمم هذه القاعدة على جميع جوانب اللغة العربية . واعتبر البيان الذاتي في الكلمة خاضعاً لإيقاعها الخاص (المداد) . « أي أن الكلمات ذات المقاطع العديدة هي أكثر بياناً من الكلمات البسيطة ذات المقاطع القليلة (٤) . من

---

(١) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١

(٢) المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٣) المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٤) المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٩٠ .

مثل « دردبيس » و « شعشعان » و « عندليب » الخ . كما أنه تأمل « البيان في القواعد» وفسر الجمع والتصغير وصيغة المجهول والنسب ، عن طريق تحولات الحركات الثلاث الفتحة والضمة والكسرة . وفسر نشوء الأفعال الرباعية بتداخل الأفعال الثلاثية ذوات المعاني المتقاربة . مثل : « دحرج »(١) ، من دحر ودرج ؛ و « زحلف » : من زحل وزحف »(٢) وقد سبقه إلى ذلك ، اللغوي ابن فارس المتوفى عام ٣٩٥ هـ . فضرب أمثلة عديدة على امكانية النحت في اللغة العربية فقال : « ومن ذلك قولهم لقرية النمل (جرثومة). فهذا من كلمتين من جرم وجثم ، كأنه اقتطع من الأرض قطعة فجثم فيها »(٣)

كما أكد على أن « الماضي مبني ، مبدئياً ، على » « الفتح » (عبارة الركون أو فقدان الفعالية) . والمضارع يعرب « بضم » آخره (عبارة الفعالية المتواصلة) ، وأما الأمر ، وهو من المضارع ، فإنه يبنى على السكون تحديداً لهذه الفعالية »(٤) وكذلك فقد رد الأرسوزي تحولات « الضمائر » إلى حرفين اثنين ، هما النون والهاء . « فمقتضيات الجنس والعدد والشخصية قد أدخلت عليهما التعديلات المذكورة ، « ن » في المتكلم والمخاطب و « هـ » في الغائب »(٥) . ثم عرج على دراسة « اسم الكيفية » و « اسم الظرف »(٦) . ويعلق في ملاحظات سريعة على « اسم الآلة » و « صنف العدد » و « اسم الوحدة » و« التثنية والجمع »(٧) .

---

(١) قارن مع عبد القادر المغربي ، كتاب الاشتقاق والتعريب ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٥ : « وقد أعملت الفكر مرة في كثير من الكلمات الرباعية والخماسية فوجدت أنه يمكن ارجاع معظمها إلى كلمتين ثلاثيتين بسهولة . ولاحظت أن تكون تلك الكلمات في لغة العرب إنما كان بواسطة طريقة النحت المذكورة أو بما نسميه الاشتقاق النحتي : فمثل « دحرج » من « دحر فجرى » ومثل ... » .

(٢) المؤلفات الكاملة ، ج ١ ص ٩٧ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٦٦ هـ ، ج ١ ، ص ٥٠٦ .

(٤) المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٦٣ و ١٦٤ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

وعلى الجملة ، فإننا نطلع في المجلد الأول للأرسوزي الذي ضم أهم آرائه في اللغة : « العبقرية العربية في لسانها » و « رسالة اللغة » و « اللسان العربي » خلال فترات زمنية متباعدة ، نطلع على حدس أساسي ملك زمام التأمل عند الأرسوزي ، ألا وهو بعث الأمة العربية من خلال اللغة ، حتى بلغ استغراقه في اللغة حد الأشباع ، وكانت النتائج التي انتهى إليها ، تصل أحياناً إلى درجة الشطح . وليس ذلك بمستنكر على إنسان كان يعيش عصره بروح متصوف ، وإن لم يكن ملتزماً « بآداب الطريقة » . وبوسعنا أن نتتبع جانباً من هذه النتائج فنجد :

١ – أن الكلمة العربية « تتمتع بالتعبير عن الهيجان وبنقله إلى الآخرين ، فإنها تؤثر ، بإيجاد التفاهم بين الناس ، وبخلق التعاون بينهم ، على تحقيق الأهداف المشتركة مما دعا إلى القول المأثور : « إن من البيان لسحراً » فلئن كانت الكلمة العربية تؤلف بين الـ « أنا » والـ « أنام » بالمشاعر ذات البنيان المشترك ، ولئن كانت توجه الذهن نحو المعنى ، باشتراكها في النزعة مع شقائقها ، فقد أصبح صاحبها أكثر قابلية من سواه لفقه الإنسانية »(١) وليس بوسعنا فقه الإنسانية دون فقه التراث .

٢ – « الكلمة العربية تعبر عن العربي صانعها ، إذ هو يتمتع بقيمة إنسانية مطلقة تنكشف بها ، في نفسه ، غاية أمته من الوجود »(٢). ويعثر العربي في صميم لغته على تجربة الأجداد حتى لكأن اللغة « معجم نظمته الحياة نفسه ، فسجلت فيه تجلياتها »(٣) . هذا الطابع التربوي للكلمة العربية ، يحثنا على إعادة النظر في ترتيب معاجم اللغة بحيث تراعي علاقة الصوت بالمعنى وهذا ما يمهد إلى إعادة اكتشاف اللغة من أجل « إذكاء الشعور وإيصاله إلى مستوى الابداع والعبقرية ، ألا وهو الإنسجام مع عبقرية الأمة نفسها . وهل قبعث من معنى غير هذا المعنى ؟ »(٤) . وإن اكتشاف هذه القيمة التربوية للغة العربية يلزمنا بتدعيم الواجب الأخلاقي وإصلاح النفس .

---

(١) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .

٣ - « إن وثوق الصلة بين المعرفة والعمل عند العرب يرجع إلى نبرة الإيحاء التي تملكها الكلمة العربية »(١) . فالكلمة المثقلة بالمعنى تملك حجة داخلية توحي بواسطتها إلى التجاوب بين الفرد واللغة وبين الفرد والمجتمع .

٤ - إن اللسان العربي ، إذا قورن بألسنة الأمم الأخرى ، كائن حي ، ينمو من الداخل بالاشتقاق ، بينما يكون التطور في اللغات الإخرى تطوراً ميكانيكياً .

٥ - ليست العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة اصطلاحية رمزية ، كما هو شأن اللغات الإنسانية . فاللسان العربي « ذو بنيان عضوي تنم به الكلمة عن المعنى وتوحي به ايحاء ؛ حتى إن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب على اللفظة . مما يجعل صاحبه أكثر استعداداً من غيره لفهم الأخلاق والديانة »(٢) .

٦ - تساعد دوامة اللسان العربي على استجلاء آية أمتنا كحقيقة تاريخية . يقول الأرسوزي : « إن كل ما نفتقر إليه في بعثنا هو أن نبلغ مستوى الوعي عند أجدادنا القدامى ، أن نبلغ مستواهم في وضوح البصيرة وفي قوة الشكيمة وكيف السبيل إلى ذلك ؟ إن لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا هي مستودع لتراثنا . فما لنا إلا أن نعود ونحياها عن وعي حتى نبلغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزة »(٣) . وإن صيانة هذا « الحرج المقدس » لن تتم إلا ببعث اللغة خالصة من الهجانة والدخلاء ، تمهيداً للبعث القومي . عندها نستطيع تعيين مصيرنا بالاشتراك مع العناية « ونحن أحرار »(٤) .

٧ - لا تقتصر رسالةالعرب على تحرير أنفسهم، بل إن «رسالة العرب في هذه المرحلة التاريخية هي خلق عالم تنسجم فيه الطبيعة مع الإنسانية » . (٥) وبذلك لن تكون القومية العربية ، قومية معتدية أو شوفينية متعصبة ، بل أن رسالتها لاتكتمل إلا بعد هداية الاقوام أثر هدايتها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، ج ١ ، ص ٢٦٩

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

وعلى الجملة فإن اللسان العربي « إذا درس دراسة توليدية (génétigne) هدانا إلى استجلاء أية الأمة التي أنشأته تعبيراً عن ذاتها فاودعت فيه تجاربها ورسمت بمنحنياته سماتها ، حتى أصبح منها كالجسد من النفس وهدانا أيضاً إلى إنشاء ثقافة إنسانية نامية ، أصولها في الطبيعة وروائدها في الملأ الأعلى »(١) .

برزخية اللسان :

يقع اللسان العربي في مكان متوسط بين « الملأ الأعلى » أو عالم المثل ، وبين الطبيعة والمادة . وإن فقه اللسان عند الارسوزي يؤدي إلى تجسس التقاء الحياة بالمادة ، وذلك بالارتقاء إلى أصول الكلمات المنطبقة على الأصوات الطبيعية . كما أنه يطلعنا من جهة أخرى على حقيقة المثل الأعلى الذي فاض منه المعنى على اللسان و « هكذابدو التقدم في اللسان العربي ذا معنين : معنى تصبح فيه الأشياء أكثر فأكثر ملاءمة لمشيئة الإنسان ، ومعنى تصيرفيه الآيات (المعاني) أوضح فأوضح . »(٢) . وليست العلاقة بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات علاقة سكونية كما هو الأمر في الكونيات (Cosmologie) عند اليونان والعرب . بل هي عند الأرسوزي علاقة حركية تتسم بالتجاوب أي بالجدلية . « وهاك أمثلة من اللسان العربي نستدل بها على انكشاف المحسوس والمعقول ، الطبيعة والملأ الأعلى ، « ذكاء » وصورته الحسية « ذكاء » (الشمس) . « الشريعة » وصورتها الحسية « الشارع » أو الطريق المؤدي إلى المنهل . « العدالة » وصورتها الحسية « عدلي الفرس » أي الأتزان والنظام . « النية » وصورتها الحسية « النواة » . « العقل » وصورته الحسية « العقال » الرباط . الخ»(٣)

بناء على ذلك فإنه يستحيل الاتصال بين المعقول والمحسوس لولا اللسان . وإذا عدنا إلى التراث العربي ، لوجدنا أن مفهوم البرزخ عند المتصوفة يعني ، بالإضافة إلى أنه « الحائل بين شيئين » ، كونه خطاً فاصلا بين عالمين ، توجد فيه المحسوسات على هيئة صور مفرغة من موادها ، كما تتشكل فيه المعقولات بالصور القابلة للإدراك حسياً . ويعبر السهروردي

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .

(٢) الارسوزي ، المؤلفات الكاملة ، ج ٣ ، ص ٢٨٣

(٣) المرجع السابق ، ج٣ ص ٢٨١ .

المتقول عن البرزخ بمصطلح « الصور المعلقة » وهي أدنى مرتبة من المثل عند أفلاطون ، ولكنها قابلة للظهور والرؤية ، وعلى حد تعبير السهروردي نفسه فقد « شهد جمع لايحصى عددهم من أهل دربند ، وقوم لايعدون من أهل مدينة تسمى هيانج ، شاهدوا هذه الصور كثيراً بحيث أكثر المدينة كانوا يرونهم دفعة في مجمع عظيم على وجه ما أمكنني دفعهم . وليس ذلك مرة أو مرتين ، بل في كل وقت يظهرون ؛ ولا يصل إليهم أيدي الناس . وقد جرب من أمور أخرى في صياص متدرعة غير ملموسة ليس مظاهرها الحس المشترك ، بل تكاد تتدرع بجميع البدن وتقاوم البدن وتصارع الناس »(١)وفي نص عند الأرسوزي ، نعثر على مصطلح الطبقة في سياق يحتمل الفهم على أن « المثل » الأفلاطونية أو (الأفكار) ثابتة ، بينما نجدها في ثوب الصيرورة داخل الكلمات : « الأفكار كالقمم والكلمات تعبر عنها وما اللغة إلا هذه الطبقة التي تشاهد فيها هذه القمم مع ما هو غني متوزع ومشترك وإن لم تعبر اللغة عنها كاملة فهي على الأقل توجهها »(٢) والبرزخية في اللغة تعني اعتبارها « طبقة وسطى » بين الملأ الأعلى والمادة .

إلا أن برزخية اللسان عند الأرسوزي لاتنفي عنه تجذره في عالم المحسوسات . بل أن أهم خصائص اللسان العربي هي التقاؤه مع الأصول الطبيعية والمشاعر الإنسانية . « كذلك لكل مفهوم ذهني في اللسان العربي صورة حية ، هي منه بمثابة التعريف بالإشارة . ولدى التأمل في أسرة كل من الكلمات المتقدمة يتبين أن الحقيقة الإنسانية تتفتح النفس بتجارب بين الوجدان والطبيعة . فالمحسوسات تستجلي المعقولات بتعيين حدودها ؛ والمعقولات تلقي ، ضوءاً على اكتشاف المحسوسات . وقد ابلغ القرآن بياناً عن الحقيقة المتقدمة بهذه الآية ، : « إن السماوات والأرض كانا رتقاً ففتقناهما » (الأنبياء آية ٣٠) ، من هذا التجاوب (الديالكتيك ، على حد تعبير المصطلح الحديث) بين الـ « أنا » و « الأنام » ، بين الطبيعة والوجدان نتجت الأرض وما عليها من زينة ، ونتجت السماء ذات الأبراج »(٣) .

السمة الأساسية للسان العربي ، والتي تجعله برزخياً ، هي أن اللغة العربية ، كما مر سابقاً خارجة عن نطاق الزمن وخالدة مثلها في ذلك مثل الأمة العربية . « ولئن اختارت الأمة

---

(١) حكمة الإشراق ، تحقيق هنري كوربان ، تهران ١٩٥٢ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، جـ ٦ ، ص ٥٤٧ .

(٣) الأرسوزي ، المؤلفات الكاملة ، جـ ٣ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ،

العربية حقيقتها في الملأ الأعلى (الله علم آدم الأسماء . ثم : الأسماء تنزل من السماء) أي أنها قد عبرت صورتها بمقوماتها (غرائز في البدن وواجبات في الوجدان) هذه المقومات التي تبدو مصمماً تنطوي عليه كافة مظاهرها العامة والخاصة . فما نسجه الأجداد محقق لما كان في نفوس الأحفاد . فإنها (أي الأمة العربية) ليست كسواها ، شركة مساهمة (كالمتصو) ، أو جملة ذكريات وآمال (رتيان) ، بل إنها بنيان قد اشتركت في تشييده السماء مع الإرادة الإنسانية منسجمتين . بنيان يتمتع بنشأته هذه ، بهالة من القدسية » (١) .

وتنطوي تجربة اللسان العربي عند الأرسوزي على المرور باتجاهين متعاكسين . فالأسماء النازلة من السماء ، يذهب العربي إلى ربطها بأعماق شعوره وبالجذور الصوتية المعبرة عن الطبيعة . وعند حيازة هذه الرحلة الهابطة بالوعي ، فإننا نستطيع أن نحرر الحياة الخاضعة لنواميس الطبيعة وإطلاقها في تيارها المطلق . « فالحياة وإن مست الطبيعة وانطوت على قوانينها في اتجاهها تتحرر منها بواسطة اللسان » (٢) . ويمننا الذهاب مع الرحلة الصاعدة إلى غايتها القصوى . « وإذا كان عالم المستحاثات يبعث بخياله الفني ، في أجزاء الهيكل العظمي المبعثرة في جوف الأرض ، بالوحدة الحياتية التي انشأتها ، فكذلك تتكشف العربي ماهية أمته بدراسة لسانه الذي تتلخص فيه كافة تجلياتها ، وبإتمام ذلك يبعث الموحيات التاريخية التي تحققت فيها هذه التجليات بسيطرة الأمة على القدر ، فيرتقي بهذا الكشف من الناسوت إلى اللاهوت » (٣) .

ويستمد التاريخ حركته من هذه الحركة المستمدة أساساً من القرآن : (« يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ») (سورة الحديد ٥٧ ، الآية ٤) . فالتاريخ عنده مرتبط بفكرة الرجوع إلى المبدأ ، وهي كذلك فكرة قرآنية (« وأن إلى ربك المنتهى ») (سورة النجم ٥٣ ، الآية ٤٢ . التاريخ) : معاد (Eschatologie) وليس حركة من الوراء إلى الأمام ، حصانها الزمن وعربتها المكان . ان الزمن الذي يفهمه الأرسوزي هو « الديمومة » بمفهومها عند برغسون . المتميز بالتواصل والنمو المنطبقان على الكائنات الحية (٤) . وإن تطور اللغة هو الذي ينبئنا عن اتجاه حركة

---

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٥٤٣ .

التاريخ . كما أن تطور الأمة التاريخي يدخل تعديلاته على اللغة الأدبية . « فمراحل تطور اللغة الأدبية تدل على نماذج الأمة المثالية »(١) ، لأن الكلمة في العربية تعبر عن « الأعلى » . وعندما تتحد اللغة بمعالم التاريخ ، فإنها تشير إليه بأي اتجاه عليه أن يتقدم . « اللغة ، كما يقول الأرسوزي ، شكل الأمة اللفظي وليست شخصية بذاتها ؛ كما أن كل حيوي ينطوي على منطق ، كذلك اللغة . إذن قوانين الحياة هي قوانين اللغة نفسها » (٢) . إن تحررنا وبعثنا متوقفان على امتلاك هذه الحركة المزدوجة الاتجاه في آن واحد : « يجب أن نستقصي في دراسة لساننا ، نمط الحياة في إنشائها إياه مرتقين حتى جذور الكلمات في الأصوات الطبيعية ، وحتى انبثاق المعاني من الملأ الأعلى »(٣) .

اللغة والقومية :

إن نظرة سريعة فاحصة لمؤلفات الأرسوزي ، تظهر مدى ارتباط الأمة العربية بلغتها . ولا تأتي قيمة التأملات التي خرج بها الأرسوزي حول أهمية اللغة العربية في نفس العرب من اكتشاف هذه الأهمية . ذلك أن القرآن كنص فريد في تاريخ الحضارة الإنسانية ، هو الذي أكسب اللغة العربية تلك الهالة المقدسة ، والتي أصبحت في التراث لغة أهل الجنة ، والقادرة على الأرض أن تمنح الناطق بها هوية العروبة . ولا يمكن استقصاء القصص المروية في الأدب العربي والتي تتناول وصف دور وقيمة اللغة في حياة العربي . فالحساسية التي تتحول إلى قلق أحياناً إزاء الأخطار التي تهدد اللغة هي التي أنجبت علوم اللغة عند العرب ، وطورتها إلى درجة يمكن تصور مداها إذا علمنا حقاً بأننا إلى الآن لم نتجاوز أجدادنا بمسافات واضحة . فإذا عدنا إلى قيمة هذه التأملات اللغوية عند الأرسوزي ، استطعنا القول بأن تجربة اللغة عند الأرسوزي ، ستكون حاسمة في تاريخ الوعي القومي . لأنه أول من أعاد طرح الأساس اللغوي للقومية العربية وجعله عصرياً . لقد كان مفهوم العروبة الواحدة الموحدة شبه بدهي عند أجدادنا . ولكنه طمس تحت حراب الشعوبية . فمنذ أحد عشر قرناً نقل الجاحظ عن النزارية : « العرب كلهم شيء واحد ، لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، واللغة واحدة ، وبينهم التصاهر والتشابك ، والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق .. ثم المناسبة التي

---

(١) المرجع السابق ، جـ ٦ ، ص ٥٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، جـ ٦ ، ص ٥٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٧٦ .

بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء،فهم في ذلك بذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة، والهمة والشمائل ، والمرعى والراية ، والصناعة والشهوة (١) ...

وليس قصور الأحفاد عن الأجداد مقصوراً على الابداع ، بل يتجاوزه إلى نقص الإطلاع وانعدام الطرائق العلمية . والغريب في الأمر لدينا نحن الأحفاد أن نبحث عن دور اللغة العربية في القومية دون أن يستفيد المفكرون من مؤلفات معاصريهم . فنجد تكراراً لنفس الأفكار يدعو العجب . وإن الدراسة العلمية في المستقبل لتكشف عن هذا القصور . لنتأمل هذا النص للدكتور إبراهيم أنيس في كتابه « اللغة بين القومية والعالمية » يورده بعد تفنيد الدعاوى الحماسية لعناصر القومية (كالتاريخ والتراث والجغرافيا ...) يقول : « ونفتقد بين هؤلاء الكتاب المحدثين حديثاً مفصلا عن دور اللغة في نشأة القومية ، فلا نكاد نظفر في كلامهم عن دور اللغة إلا بحديث عابر سريع لايدل على معاناة حقيقية لهذا الدور أو دراسة تخصصية في اللغة وطبيعتها ووظائفها في المجتمع »(٢) .

لقد أشرنا في بداية كلامنا إلى أن اهتمام الأرسوزي في اللغة لم يكن « تخصصياً » . أما من جهة « المعاناة » ، فإننا نعتقد بأن الأرسوزي هو بطل « المعاناة » في اللغة العربية بين المحدثين . لذلك قلنا عن عمله في اللغة انه « تجربة » . الا اننا نقدر عمل الدكتور أنيس ، إذا اعتبرناه بحثاً « تخصصياً » ، يدعم الآراء التي توصل إليها الأرسوزي من قبل من أن « اللغة هي القومية ، أو القومية هي اللغة » (٣) . فهو يقوم بدراسة استقصائية ، تسلط الأضواء على دور اللغة في حياة العربي . ابتداءاً من أسواق العرب وتركيزاً على أهمية اللغة عند الأمويين وعلى رأسهم الخليفة عبدالملك بن مروان. « ولعل من أوضح الأدلة على اتسام الدولة الأموية بالعربية أكثر من اتسامها بالإسلامية ، أن شاعر الدولة الرسمي كان « الأخطل » النصراني الذي ينتمي إلى قبيلة تغلب العربية ، ويحسن النظم بهذه اللغة ، ولم يؤهله لهذه المنزلة من خلفاء بني أمية إلا أنه يسيطر على اللغة العربية التي هي قوام القومية العربية ؛ وكان الأخطل أثيراً عند عبدالملك يدخل عليه بغير إذن وفي عنقه سلسلة من ذهب وصليب ولحيته تقطر خمراً ،

---

(١) البيان والتبيين ، هارون ، ١٩٥٠ ؛ ج ٣ ؛ ص ٢٩١ .

(٢) د. ابراهيم أنيس ، اللغة بين القومية والعالمية ، دار المعارف القاهرة،١٩٧٠، ص ١٧١ ؛ ١٧٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨ .

ويجلس معه مكرماً وهو ثمل »(١) . ثم يستعرض المؤلف فتوحات اللغة العربية واستقرارها وصبغها الناطقين بها بصبغة العروبة ويقول : « أصبحت بيئة اللغة العربية تمتد من العراق إلى الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ثم إلى الأندلس . وباستقرار العربية في هذه المناطق استقرت معها العروبة أو القومية العربية ، ونسي الناس ما كان عليه أجدادهم وأصبحوا لايذكرون إلا أنهم عرب تجمعهم لغة واحدة » (٢) .

ونجد تركيزاً مماثلاً على دور اللغة العربية في حياة العروبة ، ضمن محاولة فلسفية شهيرة في الوطن العربي قام بتحريرها الدكتور عثمان أمين ، أعني : « الجوانية » . فهو يحيل إلى فخته في كتابه « نداءات إلى الأمة الألمانية » باعتباره أول المفكرين الغربيين الذين ركزوا على دور اللغة في تلاحم الأمم وتطور الشعوب ، حيث يرى أن « اللغة تلازم الفرد في حياته ، وتمتد إلى أعماق كيانه ، وتبلغ إلى أخفى رغباته وخطراته . إنها تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصاً خاضعاً لقوانين ؛ إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان» ويعلق الدكتور أمين على هذه المقالة : « ولست أعرف لغة من لغات العالم يصدق عليها قول الفيلسوف الألماني أكثر مما يصدق على لغتنا العربية . وقد اتضح للأذهان بعد أن ارتسم في القلوب أن هذه الوحدة العربية تقوم في صميمها على الوعي القومي النابع من تلك المشاركة الروحية العميقة ، مشاركة اللغة ، والعقيدة ، والثقافة والحضارة » (٣) . ويحدثنا الدكتور أمين عن تجربته مع اللغة العربية ، فنحسب أن الأرسوزي هو الذي يتكلم ، ولا غرابة في ذلك فكلاهما « جواني » مثالي ، ونحسب أن الأخير قد طور مذهبه وبالغ حتى جعل اللغة تنطبق على المثل عند أفلاطون ، « ولعمري لقد وجدت في تجربتي مع اللغة العربية تأييداً قاطعاً مبيناً لفلسفة أفلاطون في العشق الفلسفي ، وليد الجمال في الصورة الخالصة مجردة عن الهيولى »(٤) . كما اننا واجدون لديهما نفس المنطلقات والأسس نشك معها بأن الأستاذ أمين لم يطلع على مؤلفات الأرسوزي ، وإن يكن قد أهمل الإشارة إليه كلياً . ذلك أن اللغة العربية حسب رأي الدكتور أمين « مثالية أصلية » لأن لغة القرآن « تنحو نحواً من المثالية لانظير له في أي

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٣) د. عثمان أمين ، الجوانية ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٥١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

لغة من اللغات الحية المعروفة »(١) . ثم يعرج على كثير من المباحث ، التي تؤكد أفضلية ومرونة العربية وتميزها عن بقية اللغات ، مما نحن واجدوه عند الأرسوزي بشكل دقيق .

وكذلك نجد نفس الروح عند اللغوي الأستاذ محمدالمبارك ، فهو يشيد بميزة الاشتقاق في العربية قائلا ، « هذه الطريقة في توليد الألفاظ بعضها من بعض تجعل من اللغة جسماً حياً ، تتوالد أجزاؤه ... وإن هذا الارتباط بين ألفاظ العربية الذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة ، وهي الحروف أو الأصوات الثلاثة ، وثبات قدر من المعنى ... خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة . تشعر متعلمها بما بين ألفاظها من صلات حية ، تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي ، وأن طريقتها حيوية توليدية وليست آلية جامدة »(٢) . بيد أن الأستاذ المبارك لا يعول على مسألة « المناسبة بين اللفظ والمعنى » ، بل يعتبر اللغة وسيلة ينتقل المعنى من خلالها بين الناس . وهو يرى بأن وظيفتها تنحصر في إحداث آثار هامة في حياة الإنسان « لما تحمل من ثقافة وأفكار ومفاهيم ومبادىء ومعتقدات وعواطف ، لا لمجرد كونها أصواتاً مجموعة أو حروفاً مكتوبة . فليست اللغة إلا أداة لحمل الأفكار وقالباً لها ، ووسيلة لنقلها . فيكون الأثر الحقيقي إنما هو لمضمون اللغة »(٣) . ومع ذلك فهو لاينسى دور اللغة في تكوين الأمة ، ونقرأ لديه : « إن اللغة هي المدرسة التي يتربى فيها أبناء الشعب الواحد »(٤) .

ما يثير الانتباه إذن ، هو أن محاولة الأرسوزي اللغوية بقيت في الظل . فهي ما أخذت نصيبها من العناية الكافية من قبل الاختصاصيين حتى الآن ، وكثير منهم لم يسمعوا بها على امتداد الوطن العربي . ولايفوتنا هنا التنويه إلى صعوبة انتقال الفكر العربي نتيجة للاستعمار الغربي حتى أوائل الستينات . ومازال هذا الانتقال يحبو ، ويقتصر أثره على القلة القليلة من المثقفين ، دون أن يبلغ المكانة الجديرة بأخطر عامل من عوامل الوحدة العربية . ومن المؤسف حقاً أن نرى بأن تفاعل المثقفين العرب مع الفكر الغربي أقوى بكثير من تفاعلهم فيما بينهم . وإن المؤتمرات التي تقام بين الفينة والفينة ، والتي ينحصر عدد المنتفعين بها بقلة قليلة من المثقفين ، لاتفي بسد ثغرة تحتاج إلى جهد عربي واسع ، يتجاوز الخلافات السياسية والعقائدية بين الأقطار العربية . وإن واقع المجامع العلمية والهيئات الثقافية والدراسات اللغوية ، يكشف عن أن الجهد المبذول أقل بكثير من التطلع المأمول .

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) محمد المبارك ، فقه اللغة ، دمشق ١٩٦٠ ص ٦١ .

(٣) محمد المبارك ، الأمة والعوامل المكونة لها ، دار الفكر بدمشق ، بدون تاريخ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥١ .

د. احمد آرحيم هبّو

مكانة اللغة العربيّة بين اللغات السامية

أول ما يتبادر إلى الذهن لدى ذكر اللغات السامية سؤال جوهري : ماهي اللغات السامية وما سبب تسميتها هكذا ومن الذي أطلق عليها هذا الأسم ؟

اللغات السامية هي لغات تلك الشعوب التي كانت منذ القدم تقطن الجزيرة العربية ، بلاد الرافدين ، سورية ، وفي فترة متأخرة شمال افريقية بعد تأسيس المستعمرات الفينيقية في قرطاجة وانتشارها من هناك على مساحة واسعة من ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي والغربي ابتداء من القرن الثاني عشر ق . م . ثم بلاد الحبشة ؛ مناطق كانت ولا تزال وطن تلك اللغات الوحيد في العالم . هذا وإن سبب ذكر جزيرة العرب في المكان الأول يعود إلى الفرضية السائدة بين أكثر المؤرخين والتي تقول بأنها الموطن الأساسي لكل تلك الشعوب السامية الذي خرجت منه على شكل موجات سنذكرها فيما بعد آخرها الموجة العربية الكبرى ابتداء من زمن أبي بكر .

أن أول شعب سامي خلف لنا آثاراً كتابية تشهد على تقدمه الحضاري ودوره الهائل في دفع عجلة المدنية الإنسانية الزاهرة وانتشارها في العالم القديم هوما نطلق عليه اسم الأكاديين وذلك نسبة إلى (أكاد) عاصمة أول مملكة سامية مستقلة في بلاد الرافدين أسسها سارغون الأول حوالي ٢٣٤٠ ق.م. بعد أن تمكن من التغلب على أمراء الشعب السومري الحاكم لجنوب

العراق ، ذلك الشعب الذي لانعرف حتى الآن موطنه الأصلي ولا قرابته لأي من الشعوب المعروفة والذي يعود إليه فضل اختراع الكتابة المسماة بالمسمارية أساس الحضارة الأكادية وخالق المدنية في بلاد الرافدين . وعندما نقول الأكاديين فإننا نعني بذلك أول شعوب العراق السامية بالذات ولكن ليس رعايا مملكة أكاد المذكورة فقط والتي لم يتسنى لها أن تدوم ثلاثة قرون ولكننا نرمز بذلك أيضاً إلى البابليين نسبة إلى عاصمتهم بابل (جنوب غربي بغداد على الضفة الغربية للفرات) الذين سكنوا جنوب العراق وإلى الأشوريين نسبة إلى آشور عاصمتهم في القسم الشمالي من العراق وبلاد الرافدين ، هذين الشعبين اللذين استطاعا بعد أن امتصا الحضارة السومرية وتشبعا منها أن يبدعا حضارة راقية انتشرت بفضل قوة دعائمها الاقتصادية والعسكرية من داخل الأناضول والقوقاز شمالا إلى أطراف شبه الجزيرة العربية وجزر الخليج العربي وسواحل الهند الغربية في الجنوب ومن أواسط إيران إلى سواحل البحر المتوسط وفي بعض الفترات إلى قلب مصر غرباً وبفضل مكانة أولئك الأكاديين الحضارية ونفوذهم الاقتصادي والعسكري استطاعت اللغة الأكادية (البابلية – الأشورية) أن تسيطر مدة طويلة وتصبح لغة المخاطبة والكتابة الدولية في عالم الشرق الأدنى القديم فإنه لدينا كمثال بسيط على هذا القول أرشيف كامل وجده علماء الآثار مصادفة عام ١٨٨٦ في قصر أمينوفيس الثالث والرابع يرجع إلى عام ١٤٠٠ – ١٣٤٤ ق.م. ويحتوي على مراسلات هؤلاء الفرعونين مع حكام فلسطين وسوريا الكنعانيين بشكل خاص كتبت بالخط المسماري وباللغة البابلية . والمطلع على اللغات السامية يعرف حقيقة تسرب كثير من الألفاظ الأكادية عن طريق الآرامية إلى اللغات السامية الأخرى وغير السامية .

يأتي في الترتيب الزمني من حيث قدم الوثائق الكتابية من نسميهم بالكنعانيين ونعني بذلك تلك الأقوام التي سكنت غربي سورية في بادىء الأمر ثم تحرك جزء منها إلى الشرق واستوطن بلاد الرافدين مؤسساً سلالة ملكية هناك من أبرز أفرادها الملك المشهور (حمورابي) المعروف باهتمامه الحضاري والذي يقال عنه أنه أول من سن شريعة حدد فيها حق كل مواطن ودافع عن العدالة وكذلك سلالة زيمريليم في ماري (تل الحريري) حوالي القرن الثامن / السابع عشر بالإضافة إلى بعض الدويلات الأخرى داخل وفي أطراف سورية وهؤلاء نسميهم الأموريين أو الكنعانيين الشرقيين، ولكن أبرز الشعوب الكنعانية هم الفينيقيون بناة الحضارة والتجارة على الساحل السوري في صور وصيدا وأرواد وناشريها في شمال افريقيا وغربي البحر المتوسط وجزره والمعروف عنهم أنهم موجدو الكتابة الأبجدية وناشروها في العالم حيث أخذها عنهم اليونان وعن هؤلاء الرومان وكل من أخذ عن هؤلاء وأولئك . ثم العبريون بنو إسرائيل الذين

كان لهم أكبر وزن بين أشقائهم الكنعانيين ثقافياً بفضل الدين اليهودي وكتابهم المقدس التوراة وأصحاب أولى الديانات السماوية ، وعلينا أن لاننسى شعب أوغاريت / رأس الشمرا شمال اللاذقية الذي كان له شأن حضاري في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وصاحب خط مسماري أبجدي يدل على درجة من الرقي لاتقل أهمية عن اختراع الكتابة الأبجدية أبداً. فالمعروف أن الكتابة السومرية المسمارية كانت رموزاً مصورة تدل على كلمات كاملة وليس على حروف كتلك التي نعرفها ولما أخذها الأكاديون منهم فإنهم طوروها كثيراً ولكنهم لم يستطيعوا إيجاد أشكال يدل كل واحد منها على حرف وإنما كانت تلك الرموز تدل على مقاطع تتألف من حرف وحرف صوتي أو بالعكس ومن حرف - حرف صوتي - حرف مثل BA L كلمة (أذن) = أز - نو (م) ؛ (إسم) = شو - مو (م) مما جعل كتابتهم معقدة وصعبة التعلم إذ أن عدد إشاراتها كانت تبلغ ما يقارب الألف وهذا ما جعلها بالتالي غير عملية ، بينما كان كل رمز مسماري لدى الأوغاريتيين يدل على حرف .

بعد الكنعانيين بفترة وجيزة ظهر الآراميون على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى حيث يرد ذكرهم في كتابات الأكاديين ابتداء من القرن الرابع عشر ق.م. على شكل بدو وكأنهم جاؤوا من نفس المنطقة التي سبق للأكاديين والكنعانيين من قبلهم أن ظهروا منها ومن شمال شبه الجزيرة بالذات يتهيون ويعيثون فساداً في المناطق الحضرية الزراعية في أطراف بلاد الرافدين وسورية فيستوطنون ابتداء من القرن الثاني عشر شمال غربي سورية وكيليكيا ويتوزعون بعد ذلك في شمال وأواسط سورية ليشكلوا دويلات تحت سيطرة الأكاديين أشهرها كانت في دمشق قبيل تأسيس دولة الاسرائيليين قبل حكم الملك داود بفترة وجيزة . وبعد أن يسكنوا المدن ويتحضروا يبدأ دورهم الفعال في السيطرة على التجارة الداخلية للمنطقة وبالتدريج تبدأ لغتهم الآرامية في الانتشار لسهولتها وبساطة قواعدها وكتابتها الأبجدية المشتقة من الفينيقية حتى تطغى على الأكادية وتحل محلها كافة دولية بل حتى تصبح لغة شعوب كل المنطقة ولا يأتي زمن الحكم الفارسي حتى تسيطر في إيران نفسها وفي كل المناطق التي تخضع للحكم الفارسي ابتداء من منتصف الألف الأول قبل الميلاد وحتى ظهور العرب على مسرح السياسة الدولية بهدء انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة . وهذه هي المرة الأولى التي تستطيع فيها إحدى اللغات السامية أن تدحر كل اللغات الشقيقة الأخرى باستثناء العربية في داخل الجزيرة وأن تؤثر فيها وفي بنائها وفي ألفاظها إلى درجة يمكن أن نشبهها بتأثير اللغة العربية فيما بعد في اللغتين الفارسية والتركية .

لنتوجه بأنظارنا إلى الجنوب فنرى أن أول لغة سامية كتبت هناك هي لغة عرب الجنوب : معين وسبأ وذلك ابتداء من أوائل الألف الأول قبل الميلاد.هذا وإنه لمن المجزوم به أن عرب الجنوب أولئك السبئيين بشكل خاص قد قطعوا مضيق باب المندب حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد ونزلوا الحبشة على الضفة المقابلة حيث كانت أقوامها تتكلم لغة تنتمي كالصومالية والبربرية والكوشية والمصرية القديمة ولغة الزنوج الزولو إلى ما يسمى بأسرة اللغات الحامية فتغلب أولئك السبئيون بفضل رقي حضارتهم ومدنيتهم وقوتهم الاقتصادية والفكرية من فرض سيطرتهم على تلك القبائل وتأسيس دولة أكسوم الاثيوبية – السبئية ونشر لغتهم السامية التي بدأ الأحباش يتكلمونها ويكتبون بها بل ويطعمون بها لغتهم نفسها فتأثروا منها كما أنهم أثروا بها .

نلاحظ مما تقدم أنه لم يرد حتى الآن في الترتيب الزمني ذكر اللغة العربية التي نسميها على الأدق لغة عرب الشمال لأن لغة عرب الجنوب وإن كانت تدعى بالعربية ولكنها على الأصح لغة مستقلة بذاتها كتابة ولفظاً وبناء وقرابتها إلى الاثيوبية أكبر منها إلى ما نسميه بالعربية أي لغة الشمال التي نتكلمها ، ولكنها أقرب إلى العربية منها إلى اللغات السامية الأخرى .

إن أول أثر كتابي للعربية عثرنا عليه حتى الآن هي الكتابة التي حفرت على قبر امرىء القيس في منطقة حوران والتي يعود تاريخ كتابتها إلى عام ٣٢٨ م ثم تتبعها كتابة الزبد قرب حلب التي يرجع تاريخ كتابتها إلى عام ٥١٢م والتي كتبت معها ترجمة باليونانية والسريانية ثم كتابة أم الجمال جنوب دمشق من عام ٥٦٨ المكتوبة بالعربية واليونانية . ولكن هذا لايعني أبداً أنها الآثار الوحيدة للغة العربية فربما نكتشف في المستقبل أقدم منها ، فذكر العرب كشعب ورد في المخطوطات الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد حيث اشتبكت قبائل عربية تحالفت مع ملوك وأمراء سورية الآراميين في صد هجوم شديد للجيش الآشوري الظافر تحت قيادة سلمنصر الثاني عام ٨٥٣ ق.م. في موقع قرقر جنوب جسر الشغور . كما أنه من المعروف أن الأنباط كانوا عرباً ولكن لغة كتابتهم كانت الآرامية مثلهم مثل التدمريين ، أما عرب ثمود ولحيان فإنهم لم يخلفوا لنا سوى النذر اليسير من الكتابات بخط سبئي .

بذلك نكون قد عددنا كل اللغات السامية وكي تكتمل الصورة فإننا نقسمها إلى ثلاثة أقسام حسب موقعها الجغرافي وقرابتها اللغوية من بعضها :

١ – شرقية : وهي الأكادية بفرعيها البابلي والآشوري .

٢ – غربية شمالية : وهي تضم الكنعانية بلغاتها المختلفة مثل العبرية ، الفينيقية

والأوغاريتية كما أنها تضم الآرامية بلهجاتها المختلفة
: كالآرامية الواردة في التوراة ضمن النص العبري والآرامية
: (اليهودية في الغرب) والمسيحية السريالية في الشرق .

٣ – جنوبية : وتضم العربية الشمالية والجنوبية والاثيوبية .

نعود الآن إلى السؤال الأول : ما سبب تسميتها باللغات السامية ومن أطلق عليها هذا الاسم ؟ فنقول : ان المستشرق الألماني (شلو تزر) هو أول من استعمل هذه التسمية في بحث له عن تاريخ الأمم الغابرة عام ١٧٨١ لأن معظم الشعوب والأمم التي تكلمت وتتكلم هذه اللغات هي من أولاد سام بن نوح كما ورد في الإصحاح العاشر من سفر التكوين في التوراة . ولكن لابد من أن تكون هناك أسباب وجيهة تبرز جميع هذه اللغات التي ذكرناها في أسرة لغوية واحدة وهذا يمكن أن نستدل عليه من خلال مقارنتنا لجميع تلك اللغات وحصرنا لأوجه الشبه مما يقودنا بالتالي إلى افتراض وجود لغة سامية أم وإلى التعرف على أقدم هذه اللغات على الإطلاق :

١ – تعدد الحروف الحلقية : أ–ه–ح–ع وحرف العين هو الحرف الوحيد الذي تستقل به هذه اللغات الأخرى ، يضاف إلى ذلك وجود حروف الإطباق ط–ظ–ص–ض – ق .

٢ – تعتمد اللغات السامية على الحروف (الأصوات الساكنة) وحدها ولا تلتفت إلى الأصوات اللينة Voyelles ولهذا فإنا لانجد علامات للدلالة عليها منذ القديم بينما بالغت في اهتمامها بالحروف فزادت من عددها وأوجدت حروفاً للتفخيم والترقيق .

٣ – أغلب الكلمات يرجع أصلها إلى ثلاثة أحرف .

٤ – وجود شكلين أساسيين للفعل : الماضي والمضارع .

٥ – اشتراكها في الألفاظ الأساسية مثل أعضاء الجسم وصلة القرابة والعدد وأسماء الحيوان والنبات ومرافق الحياة الشائعة في الشعوب السامية وخاصة منها تلك التي تتعلق بحياة البدو مما يدل على أصل الساميين البدوي .

هذه هي أهم المميزات التي دعتنا إلى اعتبار أن اللغات السامية تنتمي كلها إلى أسرة واحدة وتفصل بينها وبين الأسر اللغوية الأخرى كالهندو – أوربية مثلا.وأهم هذه المميزات هو وجود حرفي العين والحاء اللذين لاتحتويهما أية لغة أخرى غير سامية ماعدا المصرية القديمة

والبربرية الحاميين ، مما حمل بعض العلماء اللغويين إلى الاستدلال بأن اللغات السامية والحامية تعود إلى أصل واحد ، بالإضافة إلى وجود حروف التفخيم مثل : القاف والطاء والصاد والضاد والظاء ، والترقيق وخاصة في العبرانية والآرامية مثل : ث مقابل ت ، حرف ف مقابل ب ، ذ مقابل د ، K مقابل ك . وكلها حروف تكتب بشكل واحد يختلف نطقها في الكلام باختلاف موقعها من الكلمة إن كانت مسبوقة بحرف صوتي أم لا وتبعاً لقواعد محددة .

لو أمعنا النظر الآن في اللغات السامية بقصد تحديد مميزات كل لغة منها لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة تدعو إلى العجب : فإنا رأينا منذ قليل أن اللغة العربية لم تبدأ في الظهور كتابياً إلا كآخر لغة سامية على الاطلاق ، ولكننا سنجد في نفس الوقت بأنه لايمكن الاستغناء عنها لدى كل دراسة لغوية مقارنة ، بل هي الأساس الأول والأخير والمنطلق المكين لتحديد مزايا اللغة السامية الأم التي افترضنا وجودها نظرياً لأسباب عديدة نذكر منها :

١) إذا ما تطلعنا لنتعرف ما بقي من تلك اللغات السامية التي ذكرناها حية يتكلم بها شعب ما من تلك الشعوب السامية فإنا نجد أن أقدمها كتابياً وأثرياً وهي اللغة الأكادية (البابلية - الآشورية) كما رأينا لم تستطع أن تقف أمام تيار الآرامية الجارف بل زالت وانقرضت ولم يأت بعد ميلاد المسيح ، واللوحات المسمارية الأكادية التي ترجع إلى ما بعد الميلاد بمدة وجيزة إنما كانت على الغالب ليست ذات معنى وليست سوى كتابات بسيطة نقلا عن غيرها ومشبعة بالألفاظ الآرامية ، كذلك كان الأمر بالنسبة للعبرية والفينيقية ، أما العبرية فإنها بدأت في التراجع والاختفاء كلغة حية ابتداء من العصر اليوناني الهيلنيّ ولكنها بقيت لغة الدين والمدرسة قروناً طويلة . ولكنا مع ذلك نرى أنها لم تبق كما كانت عليه وإنما دب الفساد فيها وشاع الاضطراب .

أما بالنسبة للفينيقية فإنها انقرضت مع ميلاد المسيح ولكنها بقيت عدة قرون أخرى ربما حتى القرن الخامس بعد الميلاد في شمال افريقيا وحول قرطاجة بالذات . نأتي الآن إلى ذكر الآرامية فنرى أنها طغت لقرون طويلة على كل اللغات السامية كما رأينا في الشرق الأدنى ، وإن لم تقض عليها تماماً فإنها أثرت بها إلى درجة لم تستطع بعدها أن تستعيد لنفسها الاستقلال الذاتي ، ولكن ما أن بدأ العرب المسلمون في الخروج من عزلتهم في شبه الجزيرة والانتشار خارجها حتى بدأت الآرامية في التقلص والانسحاب ولولا غيرة السريان على ديانتهم واعتناء علمائهم الدينيين بلغتهم وحرصهم على الترجمة من اليونانية ، مما أوجد مجالات كتابية أخرى

غير الدينية وأعطاها شيئاً من الحيوية ، ولولا ظهور بعض الخلفاء المسلمين أمثال هرون الرشيد والمأمون الذين التفتوا إلى الاستفادة من علوم الأمم المتحضرة السابقة وشجعوا الأجانب وغير المسلمين على نقل تراث تلك الأمم إلى العربية لما كان بإمكان هذه اللهجة الآرامية أن تعيش أكثر من شقيقاتها ، وهي وإن كانت ما تزال حية في بعض البقع من شمالي العراق وسورية وحول بحيرة أورمية في إيران ولكنها ليست نفس اللغة السريانية الكلاسيكية وإنما تمثل لهجات ابتعدت حتى في الجوهر عن اللغة الأساسية وتشبثت تماماً باللغة العربية وغيرها من اللغات حسب موقعها الجغرافي كجزر صغيرة ولما يتجاوز مشروع إحيائها من قبل المبشرين الأمريكيين بشكل خاص المائة سنة . أما بالنسبة للهجات الارامية الغربية فإنه لم يتبق منها سوى لهجة يتكلمها حتى الآن سكان ثلاث قرى في سورية قرب دمشق وهي : معلولا ، بخعة ، جب عدين وهي تشابه نفس اللغة التي كان يتكلمها المسيح وذلك بحكم موقعها النائي عن المدن الكبرى وتمسك متكلميها بتقاليدهم وغيرتهم الشديدة على لغتهم ودينهم .

نأتي بعد ذكر اللغات الاكادية والكنعانية والآرامية ولهجاتها العديدة إلى التساؤل عن لغة عرب الجنوب لغة معين وسبأ فنراها هي الأخرى قد انقرضت ولم يبق من يتكلمها سوى عدد من الناس في سواحل جنوب الجزيرة العربية وفي الجزر المجاورة مثل سوقطرة ومهرة وشخورة .

لنلتفت في نهاية المطاف إلى الأثيوبية قبل أن نولي العربية اهتمامنا الخاص فنجد أنها بعد أن انعزلت عن لغة عرب الجنوب واستقلت بفضل وجود البحر بين المنطقتين من ناحية وبفضل الظروف السياسية التي طرأت على كليهما من ناحية أخرى – فإن عرب الجنوب اعتنقوا اليهودية لفترة طويلة من الزمن بينما اعتنق الاثيوبيون المسيحية . يضاف إلى ذلك أن الأثيوبية أو جعز – كما تدعى عادة نسبة إلى إحدى القبائل العربية الجنوبية – أصبح يتكلمها السكان الأصليون الحاميون مما أضفى عليها صبغة اللهجات الحامية فنتج عنها عدة لغات أهمها الأمهرية لغة الحبشة الرسمية اليوم وهذه اللغة وان كانت بدأت تطغى على الأثيوبية من القرن الحادي عشر الميلادي إلا أنها تمت إليها بصلة وثيقة ويمكن اعتبارها مثالاً حياً على بقاء الأثيوبية على قيد الحياة .

لقد رأينا من استعراض فترات حياة كل من اللغات السامية أن معظمها قد انقرض كلغة حية متداولة ولم يبق من بعضها إلا رواسب أو لهجات قد تمت بقليل أو كثير إلى اللغة الأم بصلة ، وحتى العبرية الحديثة (Ivrit) التي أوجدها الصهاينة محاولين بذلك إحياء العبرية

القديمة ما هي إلا صيغة مصطنعة وثوب مهلهل للغة العبرية الأم ولا يمكن وضعها على قدم المساواة ومقارنتها بمكانة اللغة العربية التي ما زالت حية لم تخب شعلتها في أية فترة من الزمن وإنما احتفظت بطابعها السامي الصافي الخالص من كل الشوائب رغم أنه قد تفرعت عنها لهجات عامية تنوعت بتنوع المناطق والبلدان . والسبب في ذلك كلنا يعرفه ألا وهو كونها لغة القرآن، والقرآن وحده هو الذي حمل العرب على الاشتغال باللغة والالتفات إلى وضع القواعد لها والمعاجم اللغوية ، وليست عزلتهم في جزيرتهم فقط كما يرى البعض ، وهو الذي دعاهم إلى تدوين أشعارهم وصيانتها من الضياع حتى ولو كانت من شعراء جاهليين ، فحينما كان علماء النحو في البصرة والكوفة يختلفون في إحدى المسائل النحوية أو اللغوية فإنهم كانوا يرون أنفسهم مضطرين لإثبات صحة ادعاءاتهم بالاستشهاد بشعر لأحد الشعراء العرب الجاهليين أو المعاصرين لهم ترد فيه حالة مشابهة أو مماثلة وهذا كان شأن الكوفيين دون البصريين كما هو معروف .

وإذا تلخص القول فنقول : إن العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي تمكنت من البقاء قيد الحياة من دون كل اللغات الشقيقة،وهذا يدعم قولنا بأن العربية شرط أساسي لدى دراسة أية لغة سامية أخرى وهو ما لفت نظر الأوربيين وعلماء اللاهوت هناك فاهتموا باللغة العربية ودرسوها ليتمكنوا من تفسير وفهم التوراة ونصها المكتوب باللغة العبرية القديمة.بعد دور العمر يأتي :

٢ — دور الشكل اللغوي الأساسي ومدى حفاظ كل من اللغات السامية عليه فإذا ما تصفحناها واحدة بعد الأخرى لرأينا أن الاكادية أقدمها كتابة كما نعلم قد تخلت عن أهم الحروف التي تميز أسرة اللغات السامية عن سواها ؛ فهي لا تعرف من الحروف الحلقية سوى الالف والهاء بينما لا نجد للحاء والعين أثراً ولا حتى للغين والسبب في ذلك بسيط ووجيه : لقد رأينا ان الاكادية أخذت فن الكتابة عن السومريين غير الساميين وهؤلاء لا ترد في لغتهم هذه الحروف الحلقية وبالتالي فانه لم تكن هناك إشارات مسمارية لها فاضطروا إلى استعمال إشارة الألف وبذا صار الألف بصفته أقرب الحروف مخرجاً اليها يرمز أيضاً إلى الحاء والعين والغين : مثال (حمار) بالأكادية emru ، (عين) Inu . وليست هذه هي الحروف الوحيدة التي اختفت من الكتابة الأكادية بل هناك حروف أخرى مثل الضاد والظاء والثاء والذال والقاف فاستعاض الأكاديون عنها بالصاد والطاء والشين والزين والكاف . لم تكتف اللغة السومرية بالتأثير على الأكادية بحملها على إهمال بعض

الحروف فقط وإنما حتى في بناء الجمل ، فاللغات السامية تضع عادة الفعل في أول جملة أما الأكادية فإنها تضعه في الأخير دائماً كالسومرية .

إذا ما التفتنا الآن إلى اللغات الكنعانية وأخذنا العبرية مثلا لها لرأينا أمرها قريباً إلى أمر الأكادية باختلاف بسيط هو أن العبريين الإسرائيليين لم يعيشوا مع شعب غير سامي حملهم على ترك بعض الحروف كما فعل السومريون بالأكاديين فهم عندما دخلوا فلسطين وجدوا هناك الكنعانيين أقرباءهم فأخذوا منهم لغتهم إذ أنه من المعتقد أن لغتهم الأساسية لم تكن العبرية المعروفة وإنما أقرب منها إلى الآرامية كما يستدل علماء اللغة والآثار من كتاباتهم القديمة قبل دخولهم فلسطين ، ونظرة إلى اللغة العبرية تبين لنا أن حرفي الحاء والخاء قد أصبحا حرفاً يكتب بإشارة واحدة فلم يعد هناك فرق مثلا في كتابة الكلمتين : حرث بالعبرية (حرش) و (خمس) بالعبرية (خمش) وإنما أصبحا ينطقان معاً بالحاء (في العبرية الحديثة اليوم خاء) . كما أن حرف العين أصبح يدل أيضاً على الغين ، والصاد على الضاد ، والطاء على الظاء . . . الخ ولكننا يجب علينا أن لانعمم قولنا هذا على اللغة الأوغاريتية التي سبق وقلنا بأنها تنتمي إلى اللغات الكنعانية . فمن المعروف أنها تحتفظ إلى جانب العربية بأكبر عدد من الحروف السامية القديمة على الإطلاق مما حمل اللغويين الساميين على وضعها على قدم المساواة في القدم مع العربية .

وإذا حاولنا التعرف إلى ما أهملته اللهجات الارامية من الحروف السامية الأصلية لوجدنا شبهاً كبيراً بينها وبين اللهجات الكنعانية مما يؤيد نظرية علماء اللغات السامية من أن هاتين اللغتين الكنعانية والارامية هما أقرب إلى بعضهما منهما إلى اللغات السامية الأخرى . أما إذا تصفحنا حروف لغة عرب الجنوب القديمة والاثيوبية لوجدنا أنها لم تغير أو تهمل من الحروف السامية الأساسية إلا القليل وخاصة لغة عرب الجنوب القديمة فإنها تحتفظ إلى حد كبير بنفس الحروف التي نعرفها في لغة عرب الشمال ، بينما يختلف اللفظ فقط عند الاثيوبيين عند قراءتهم أو نطقهم لتلك الحروف مثلهم في ذلك مثل الاسرائيليين الأوربيين الذين لايستطيعون نطق العين فينطقونها ألفاً ، لا الحاء فينطقونها خاء ، لا القاف فينطقونها كافاً ، لا الصاد فينطقونها تس = Z (الألمانية) مثل : أرض بالعبرية فينطقونها إرتس).

وإذا لخصنا فإنا نقول : إن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة من بين اللغات السامية عامة (باستثناء الأوغاريتية ولغة عرب الجنوب القديمة) التي احتفظت بالشكل الأساسي بالنطق الصحيح للحروف السامية الأساسية .

٣ – إذا ما حاولنا أن نضع خارطة نبين عليها مدى انتشار ونفوذ اللغات السامية على مدى القرون لاحتلت اللغة العربية مكان تلك اللغات كلها وزادت عليها رقعاً أكبر ، فالأكادية التي علمنا بأنها طغت على لغات الشرق الأدنى كلها وأثرت فيها لم تلبث أن ماتت لتحتل الآرامية مكانها وتتفوق عليها في الزمان والمكان . أما العبرية فإنها لم تتجاوز حدود فلسطين القديمة. ومع أن البابليين أجلوا جلة علمائهم وخيرة رجالهم ووضعوهم لفترة طويلة من الزمن في العراق فإنهم لم يستطيعوا أن ينشروا لغتهم رغم تأثيرهم الديني وإنما وجدناهم رغم غيرتهم على دينهم ولغتهم يلجأون إلى وضع التفسيرات والشروح للتوراة بالآرامية حتى أصبحت لغة الدين اليهودي ، ولما عادوا إلى فلسطين بعد انتصار الفرس على الكلدانيين البابليين وجدوا أبناء جلدتهم يتكلمون الآرامية طبعاً . بل وأكثر من ذلك فإنه من المعروف بأنهم أوجدوا لغة جديدة في وسط أوروبا منذ القرون الوسطى ، خليطاً من العبرية والألمانية بشكل خاص تدعى بالـ (Jiddisch) لم تكن المساحة الجغرافية التي شملتها موجة اللغة العربية وعدد المتكلمين بها قد تجاوزت الحدود التي كانت الآرامية في أخصب أوقاتها قد وصلتها فحسب وإنما كان تأثيرها في اللغات الحضارية الأخرى الى درجة لم تسبقها في هذا المضمار أية لغة سامية أخرى وربما أية لغة حضارية أخرى ، فإنا إذا ألقينا نظرة فاحصة في قاموس اللغة الفارسية ، تلك اللغة الحضارية العظيمة الشأن ، لزادت دهشتنا عندما نجد أن كل ثاني كلمة هي عربية كما يشهد بذلك أحد علماء الفارسية في كتاب له عن الكلمات الفارسية الدخيلة في اللغة العربية .

٤ – لو أمعنا النظر في قواميس كل من اللغات السامية وأحصينا مفرداتها لوجدنا العربية من أغناها على الإطلاق بل تفوق كل مفردات اللغات السامية الأخرى مجتمعة وتكاد تتفوق على أخصب لغات العالم لما تحويه من مفردات وألفاظ تشمل كل مستلزمات الحياة وتعبر عن كل ما يجول في خاطر الإنسان . صحيح أن العربية كانت في الجاهلية وقبل خروج العرب إلى خارج حدود شبه جزيرتهم محدودة الأفق والغايات ولكن خيال البدوي الشاعر كان يتفتق عن أوصاف للطبيعة المحيطة به قلما يستطيع إنسان آخر أن يجاريه في ذلك ، مبتدئاً بالرمال والخيام ليبدع بعد ذلك في وصف الحيوان وخاصة حصانه وسيلته الأولى للتغلب على الطبيعة القاسية من حوله ويصل في ذلك مرحلة تعجز فيها أبلغ لغات العالم في التعبير عن مشاعره البسيطة بتلك الصورة الرائعة الفريدة .. صحيح أن العربية في تلك الفترة كانت محدودة الأفق ، والمواضيع التي تشغل بال متكلميها معدودة ، ولكن ما أن خرج العرب إلى العالم بموجاتهم العارمة حتى سارعوا إلى استيعاب كل ما هو غريب عنهم ، وماهي إلا فترة

وجيزة من الزمن حتى بدؤوا أنفسهم في تأليف المجلدات الضخمة والتعبير عن أدق المسائل العلمية والروحانية ومن ثم استطاعوا أن يحتلوا مكان المعلم في العالم فشاعت كتبهم وانتشرت آراؤهم حتى صار علماء العالم المسيحي الأوربي يتتلمذون على العلماء العرب في جامعات الأندلس وصقلية مثل البابا سيلفستر Silvester ٩٩٩م و Leqnardo dé pisa خوارزمي الغرب كما يسميه الناس ويدرسون في جامعاتهم كتب ابن رشد Averros والرازي Rhases وابن سينا Avicenna والخوارزمي في الطب والفلسفة والرياضيات وخاصة في جامعة سالرنو في جنوب إيطاليا أم الجامعات الطبية الأوربية . وهكذا استطاعت اللغة العربية أن تحيط بكل علوم ذلك الوقت وتبدع في التعبير عنها إلى درجة أن عدداً من المصطلحات الطبية والكيميائية وعلوم الفلك والرياضيات وغيرها ما زالت متداولة في عصرنا هذا في لغات العالم الحديث ، وكلنا يعرف أن كلمة Logaritm و Algebra مثلا من أصل عربي .. لم يكن العرب هم وحدهم الذين استأثروا بالكتابة باللغة العربية وتأليف الرسائل العلمية فيها وإنما شاركهم فيها أبناء الشعوب الأخرى التي كانت تخضع لسيادتهم وخاصة الفرس كما هو معروف ، ولكن علينا أن لا نبالغ في التشديد على ذلك كما يفعل أعداء العرب بقصد الإساءة إليهم والتقليل من شأنهم لأنه بغض النظر عن بعض الشعوبيين الشاذين فإن أولئك العلماء الفرس وغيرهم لم يكونوا في اعتقادهم الشخصي سوى مسلمين في الدرجة الأولى محبين الدين الإسلامي ولأصحابه وغيرتهم عليه وبالتالي على لغته المقدسة كانت تفوق غيرة العرب أنفسهم . وكلمة الزمخشري في مقدمة كتابه المفصل تكفي للدلالة على ذلك ، ولولا تلك الغيرة الشديدة لما توصلت العربية إلى هذا الشأن من ضبط قواعدها وحفظ تراثها من الضياع والفوضى وحسبنا في ذلك ذكر كتاب سيبويه في أساس القواعد العربية المعروف باسم (الكتاب) لشهرته الواسعة أو المفصل للزمخشري كما ذكرنا ناهيك عن القواميس العربية مثل الصحاح للجوهري الفارسي الأصل أو القاموس المحيط للفيروزابادي . . الخ

٥ — ليست اللغة العربية أغنى اللغات السامية لفظاً وتعبيراً كما رأينا فحسب وإنما لو وضعنا الشكل اللفظي الأساسي للغات السامية مقياساً للتطور والاشتقاق لوجدنا العربية قد قطعت مراحل لم تصل إليها أية لغة سامية أخرى إذ أنها لم تترك وسيلة أو إمكانية يمكن الاستفادة منها إلا واستغلتها فوصلت إلى مرحلة لا يمكن أن تكون بعدها مرحلة أخرى يمكن تصورها ، وهذا يعود فقط إلى مرونة اللغة العربية وإلى متانة بنائها السليم المنطقي . إننا لو قارنا بين صيغ الأفعال فقط الواردة في أية لغة سامية أخرى تقارب اللغة العربية نسبياً تطوراً وكتابة ، السريانية مثلا لوجدنا العربية تحتوي على ١٠ صيغ أساسية هي : فعل ، فعّل ، فاعل ،

أفعل ، تفعل ، تفاعل ، انفعل ، افتعل ، افعل ، استفعل ، تضاف إليها خمس صيغ أخرى أقل استعمالا : افعال ، افعوعل ، إفعول ، افعنلل ، افعنل . وهذا لايعني أن العربية تحتوي ١٥ صيغة للأفعال فقط وإنما علينا أن لا ننسى صيغ الأفعال المبنية المجهول التي تخص كلا من هذه الصيغ الأساسية تقريباً مثل : فعل : فعل – فعل .. الخ . بينما لا يزيد عدد صيغ الأفعال الأساسية والمبنية للمجهول معاً في السريانية أو العبرية عن الستة أو السبعة .

وإذا ما ذكرنا صيغ الأفعال ووضعناها مقياساً لدرجة تطور الشكل الأساسي لها فعلينا أن لا ننسى ذكر صيغ الأسماء حيث لا يمكن لأية لغة سامية أخرى أن تقف في هذا المجال أمام اللغة العربية ، وهذه من مزايا اللغة العربية الأساسية التي أكسبتها تلك المرونة التي ذكرناها ومتانة البناء السليم ، وهذا ما يفسر بالتالي انفتاحها الرحب على اللغات الأخرى سامية كانت أو غير سامية وأخذها الكثير من ألفاظها دون أن تؤثر تلك الألفاظ الدخيلة على بنائها الذاتي وإنما تخضع لنفس القواعد والبناء فتصاغ بالقالب المناسب لتخرج عربية الشكل والمعنى فهذه كلمة genus اليونانية مثلا تدخل العربية عن طريق السريانية (على الغالب جنساً) فتصبح جنس على وزن فعل ، فتشتق منها الأفعال مثل جنس ، تجنس ، تجانس .. الخ والمتكلم العربي إن لم يكن على اطلاع على أصل هذه الكلمة فإنه لن يفكر مطلقاً أنها كلمة دخيلة وليست من أصل عربي .

من كل ما سبق : عمر اللغة العربية الطويل ، الاحتفاظ بالشكل اللغوي الأساسي للغة السامية الأم التي افترضنا وجودها ، مدى انتشار اللغة العربية الواسع ، غنى العربية في اللفظ والشكل ثم مقدرتها على التطور الشامل والاشتقاق.يضاف إلى ذلك عامل هام لم نأت على ذكره بعد وهو وجود التنوين والحركات في آخر الكلمات : ملك ، ملكاً ، ملك ، هذه الميزة التي لا تشاركها فيها غير الاكادية والأوغاريتية على الغالب فقط ليضعنا أمام حقيقة لا مجال للشك فيها وهي ان اللغة العربية من أقدم اللغات السامية على الإطلاق رغم تأخرها في الظهور كتابياً عن كل اللغات السامية الأخرى .

المصادر :

Carl Brockelmann: Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen. 2 Bände. Hildesheim 1966.

Handbuch der Orientalistik. Bd. 3: Semitistik. Leiden - Köln 1964 .

Hartmut Schmökel : Geschichte des al ten Vorderasien. Leiden 1957.

Sabatino Moscati : An introduction to the comparative grammar of the semitic languages. wiesbaden 1964.

Sabatino Moscati : Die altsemitischen kulturen. Stuttgart 1961.

Rudolf Meyer : Hebräische Grammatik. Berlin 1966.

Theodor Nöldeke : Kurzgefasste syri sche Grammatik. Darmstadt 1966.

* * *

د. يوسف الهليس

تطوير دراسة اللغة العربية من خلال مقابلتها باللغات الأخرى[1]

في الوقت الذي أبدع فيه العلماء العرب الأقدمون في تقديم دراسات رائعة ورائدة في العلوم اللغوية على اختلاف مستوياتها الصرفية والصوتية والنحوية والدلالية ، كانت هذه العلوم في خارج الوطن العربي ، وخاصة في الغرب في ركود تام . نعم لقد أخذ العرب الكثير من هذه العلوم عن سبقهم من علماء اللغة اليونان والهنود ، ولكنهم أضافوا اليها الشيء الكثير وطوروا نظريات لغوية من خلال دراستهم للغة العربية دراسة عميقة ؛ ولكن هذه الدراسات اللغوية الفذة بقيت عند ذلك الحد الذي تركها فيه سيبويه وابن جني وغيرهما من علماء اللغة العرب النابغين الذين عملوا الكثير في حقبة زمنية قصيرة ولم يطرأ عليها أي نوع من الإضافة والتطوير تقريباً .

إن علوم اللغة كأية علوم أخرى يجب أن تخضع لدراسات وأبحاث مستمرة لكي تتطور إلى حالات تصبح فيها مبسطة يمكن تطبيقها في مجالات مختلفة لخدمة الإنسانية كالمساعدة في طرق تدريس اللغات الأجنبية والاتصالات السلكية واللاسلكية وبنك المعلومات والعقول الالكترونية على سبيل المثال .

إن اللغة ظاهرة معقدة جداً ، وهي جزء من الإنسان . وكما أن علماء الطب والتشريح يعملون بجد واجتهاد في أبحاثهم العلمية ليعرفوا أكثر فأكثر عن جسم الإنسان فإن على علماء

اللغويات أن يجاروهم في أبحاثهم ليصلوا إلى معلومات أوفى وأدق عن اللغة . وفي هذه الأيام التقى الفريقان ، وأصبحت أبحاث علماء اللغويات لها علاقة بالتشريح والطب والعكس صحيح كذلك . وفي هذا الوقت الذي لا نجد فيه إلا القليل من الدراسات اللغوية العربية في بلادنا باستثناء تلك التي ورثناها من أجدادنا القدماء ، نجد أن علماء اللغويات في أوربا وأمريكا والاتحاد السوفيتي ، قد أحرزوا إنجازات فذة في علوم اللغة وأجروا دراسات ممتازة في لغاتهم وغير لغاتهم ، وطوروا علوم اللغويات ، وادخلوها عالم التكنولوجيا حتى أصبحت في مستواها تشبه المستوى الذي وصلت إليه العلوم الطبيعية الأخرى ، كالفيزياء والأحياء والطب وقد استخدموا الآلات الألكترونية كالعقل الألكتروني والسبكتروغراف في دراسة اللغة ، وهم يعكفون الآن على إمكانية إنجاح فكرة الترجمة الآلية . حيث تتكلم أنت وتترجم الآلة فوراً بصوت عادي إلى اللغات الاخرى .

لقد قطع علماء اللغويات الحديثة في الغرب والشرق على السواء شوطاً طويلا في تحسين طرق تدريس اللغات بشكل علمي وذلك في وقت أقصر بكثير مما كانت الحال عليه من قبل . وقد ساعد في ذلك ، حاجة الدول الكبرى إبان الحربين العالميتين الأولى والثانية ، إلى تعليم اللغات بشكل مركز وسريع لأغراض عسكرية .

لقد تنبه علماء اللغة في الغرب إلى ما قام به علماء العرب الأقدمين . في أواخر القرن الماضي خلال هذا القرن،وانكبوا على دراسة آثارهم دراسة عميقة ، للاستفادة من ذلك في تطوير علوم اللغويات الحديثة ، وها هم الآن يتابعون تلك المسيرة التي انقطعت منذ زمن طويل يمكن القول أن ابن جني(١) قد سبق رومان(٢) وجاكبسون (Roman Jakobson) في نظريته المشهورة : المواصفات الصوتية (Distinctive Features) وسيبويه (٣) سبق تشومسكي(٤) (Chomsky) في كثير من أفكاره التي يستخدمها الآن في علم اللغة

---

(١) ابن جني أبو الفتح ، سر صناعة الإعراب (الجزء الأول) تحقيق مصطفى السقا وزملائه ، ١٩٥٤ .

(٢) **Jacobson, Trends in phonological Theory, Copenhagen 1975 .**

(٣) سيبويه ، كتاب سيبويه المطبعة الأميرية ببولاق .

(٤) **Chomsky, N., 1957, Syntactic Structures, the Hague, 1966 ----and Halle: 1968, The Sound Pattern of English.**

التحويلي (Transformational Grammar) وخاصة فيما يتعلق بأهمية الجانب الدلالي في تحليل اللغات . كما أن سيبويه سبق (١) فيشمان (Fishman) وغيره من رواد علم اللغة الاجتماعي ، في دراسة الجوانب الاجتماعية للغة . ورومان جاكبسون وتشومسكي وفيشمان يعتبرون من عمالقة علوم اللغة الحديثة في هذا العصر ، وقد أسهموا كثيراً في تطويرها والوصول بها إلى هذا المستوى ، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : حتى متى نظل نتذكر نفس الدراسات اللغوية التي قدمها لنا أجدادنا منذ فترة طويلة وهل سننتظر من علماء اللغة غير العرب أن يقوموا بدراسة اللغة العربية من خلال المعايير والنظريات الحديثة ، مثلما ننتظر أن تطور لنا السيارة والتلفزيون وما إلى ذلك من أدوات هذا العصر ؟ والواقع أن كثيراً من الدراسات الحديثة التي تمت عن اللغة العربية قام بها علماء من غير العرب مثل فيرجسون (Ferguson) (٢) في أمريكا .

ان الدعوة مطروحة في هذا الوقت للقيام بدراسات لغوية حديثة شاملة للغة العربية على كل مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ولكن كيف تتم هذه الدراسات ، من سيقوم بها وأين ومتى ؟ هذه أسئلة تحتاج إلى أجوبة ، وأنا أقترح القيام بدراسة اللغة العربية من خلال مقابلتها مع غيرها من اللغات التي خضعت لدراسات متعددة الجوانب كالانكليزية والفرنسية والروسية وأن تكون هذه الدراسة على المستوى القومي في العالم العربي ، ولكن قبل أن نفصل في هذا الاقتراح ، لابد من ذكر نبذة عن علم اللغويات التقابلي وعلاقته بالعلوم اللغوية والحديثة.

علم اللغة التقابلي (Contrastive Lingusstics) هو أحد فروع علوم اللغة التطبيقية (Applied Linguistics) وهذا الأخير هو فرع من العلوم اللغوية الحديثة (General Linguistics) يمكن من خلاله أن تطبق النتائج التي نحصل عليها من أبحاثنا في العلوم اللغوية الأخرى في الحياة العملية لخدمة الناس،مثلما حصل في علم الفيزياء التطبيقي (Applied physics) الذي من خلاله طبقت نتائج الأبحاث في علم الفيزياء العام في اختراع السيارة والطيارة والسفن الفضائية .

---

(١) Fishman, J., Ferguson, C. A. and das Gupta, J., 1968 . Language Problems of Developing Nations, New York, 1968 John wile : **Sociolinguistics, a Brief Introduction,** Rowley Mass .

(٢) Ferguson, C. « Diglossis », Word. 15 .

واللغويات التقابلية جانبان : جانب نظري وجانب تعليمي . أما الجانب النظري ، فيهدف إلى دراسة كل من اللغتين المراد مقابلتهما ، كل على حدة ، دراسة تحليلية من خلال نظرية لغوية وتكون الدراسة على جميع المستويات اللغوية ، من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية . وبعد انجاز هذه الدراسة التحليلية نقوم بدراسة للغتين معاً ، لنتبين مواضع الشبه ومواضع الاختلاف بينهما .

وأما الجانب التطبيقي التعليمي فيأتي دوره بعد اتمام الدراسة النظرية لكل من اللغتين ، وبيان أوجه الشبه والاختلاف بينهما ويقول الذين أوجدوا هذه الدراسة أن أوجه التشابه بين اللغتين تساعد في عملية تعليم احداهما للناطقين بالأخرى ، اذ لايجد الدارسون صعوبة في اكتساب التركيبات المتشابهة . ومن جهة أخرى فإن الدارس يجد صعوبة في تعليم الجوانب المختلفة عن لغته في اللغة التي يتعلمها ، أو الجوانب التي لايوجد مثلها في لغته ، فمثلا توجد اداة التعريف في كلتا اللغتين : العربية والانكليزية « ال » و « The » في بعض الحالات يكون استعمال هذه الاداة متشابها في اللغتين ، كأن تسبق أداة التعريف اسماً لايقع في أول الكلام مثل :

أنا قرأت الكتاب :

I Read the book

ولكن في كثير من الحالات فإن استعمال أداة التعريف ، يعطي معنى يختلف كلية عن ما هو في اللغة الأخرى ، فهناك فرق كبير في الانجليزية بين :

١ – He went to School

٢ – He went to the School

ففي الحالة الأولى تعني الجملة أنه كان طالب مدرسة ، بينما تعني في الثانية أنه ذهب إلى المدرسة للزيارة ، أما في اللغة العربية فيقابل هذين التعبيرين تعبيراً واحداً هو : ذهب إلى المدرسة .

كما ان العربي الذي يتعلم الانجليزية ، يجد صعوبة في تعلم الجملة التي تحتوي على اسم وصفة، لأن الصفة تسبق الاسم في اللغة الانكليزية بينما تتبعه في العربية .

قارن بين « رأيت زهرة حمراء »

I saw a read flower

ومثال آخر على وجود الشبه بين التعبيرات العربية والانكليزية التي لايجد المتعلم فيه صعوبة ، يمكن اعطاؤه من التنغيم ، فقد وجد أن معظم الانماط من التنغيم ، الموجودة في العربية موجودة في الانكليزية أيضاً . مثلا استطيع ان أقرأ الجملة التالية بمعنيين مختلفين ، إذا استعملت نوعين من التنغيم .

١ – لم أقرأ الكتاب ، لأنه كان صعباً .

يوجد في هذه الجملة تنغيمان نازلان في كلمتي الكتاب « وصعب والواقع أن لدينا هنا وحدتين من المعلومات : الأولى أني لم أقرأ الكتاب ، والثانية أنه صعب .وهذه الجملة خابارية. « لم يقرأ الكتاب لصعوبته » .

٢ – لم أقرأ الكتاب لأنه كان صعباً .

يوجد في هذه الجملة تنغيم واحد : (نازل صاعد) ، والتنغيم النازل الصاعد ، قد يعني التعجب . فهذه الجملة ليست اخبارية ، بل تعجبية ، وتعني أني قرأت الكتاب ولكن لا لأنه كان صعباً بل لسبب آخر :

والشيء نفسه يحصل في الانجليزية :

١ – I didn't read the book because it was difficult

٢ – I didn't read the book because it was difficult .

فعنى الجملة الأولى هو عكس معنى الجملة الثانية ، في كلتا اللغتين العربية والانكليزية .

وفي الجانب التطبيقي تساهم اللغويات التقابلية ، في عملية تعليم اللغات ، حيث تؤلف الكتب المدرسية وتحضر المواد التدريسية بناء على نتائج المقابلة بين اللغتين والأخذ بعين الاعتبار ، الجوانب المتشابهة بين اللغتين المتقابلتين ، والجوانب المختلفة . ويقول اصحاب هذه المدرسة اللغوية ، أنه بناء على نتيجة هذه الدراسة التقابلية ، يمكن التنبؤ بالأخطاء التي سيقع فيها الدارسون عند تعلمهم لغة المقابلة بلغتهم ويقولون أيضاً ، ان عملية تدريس أية لغة ، يجب أن تسبقها دراسة تقابلية بين هذه اللغة واللغة الأم للدارسين ، وذلك لأن اللغة الأم تفرض نفسها على اللغة الثانية التي يتعلمها الدارس ، اذ أن هذا الدارس ، وخاصة إذا بدأ يتعلم اللغة الثانية بعد مرحلة الطفولة ، يكون قد كون عادات لغوية متأصلة ، هي لغته الأم . ومن الصعب الا تؤثر هذه العادات على عادات أخرى – لغة أخرى – يريد أن يكتسبها .

ان أصحاب هذه النظرية اللغوية ينتمون إلى المدرسة السلوكية(١) التي كان من الذين طبقوها على علم اللغة : بلومفيلد (Blo'omfield) (١) في أمريكا وما تلاه من تلاميذه ، ويؤمن السلوكيون بأن اللغة عادة مكتسبة ، كأية عادة أخرى ، حسب قانون المؤثر أو الحافز والاستجابة . ويقولون انه كلما زاد التمرن على استعمال اللغة تأصلت اللغة عند الدارس . وعلى أساس هذه المدرسة ، برزت طريقة تدريس اللغة السمعية الشفوية (Aural oral Approach بدأت الدراسات التقابلية في أوائل الخمسينات ، وانتشرت بسرعة فائقة ، وعقدت لها مؤتمرات دولية في أوروبا وأمريكا . وقد اعتقد المهتمون بهذه الدراسات انها الطريقة المثلى في التغلب على صعوبة تعلم اللغات الأخرى لغير الناطقين بها .

وفي أوائل الستينات ، بدأ علماء اللغويات ، وخاصة من اتباع المدارس اللغوية الأخرى ، كمدرسة اللغويات التحويلية (Transformational) التي بدأها تشومسكي (Chomsky) يشككون في جدوى اللغويات التقابلية ، وتطبيقها في تدريس اللغات ، كما يراها السلوكيون ، فهاجموها هجوماً عنيفاً ، وقد أوردوا أسباباً لعدم جدواها . ومن أهم هذه الأسباب ، أن الأخطاء التي يتوقعها عالم اللغة التقابلي بعد مقابلته للغتين ، والتي هي مبنية أساساً على أوجه الاختلاف بين اللغتين المتقابلتين ، وتدخل اللغة الأم عند الدارس في اللغة الثانية التي يدرسها ، ان هذه الأخطاء قد لاتحدث مطلقاً ، بل إن الدارس قد يقع في أخطاء من نوع آخر ، لايمكن التنبؤ بها من خلال (تداخل اللغتين) فقد تكون هذه الأخطاء بسبب تعقيد في اللغة الثانية ، كالتي يتعلمها الدارس(٣) فمن الأخطاء التي يرتكبها دارسو اللغة الانكليزية أن يصوغوا الفعل الماضي من go و run على منوال الفعل الماضي من Call فيقولون (Runned , good) مثل (Called) .

كما أنهم قالوا ان الأخطاء قد يكون مردها لأسباب نفسية تتعلق بالدارس نفسه ، أو إلى الجو الدراسي ، أو إلى المعلم ، وما إلى ذلك من الاعتبارات الأخرى كما أن اتباع المدرسة التحويلية ، لايؤمنون أصلا بأن اللغة تكتسب باعتبارها عادة بل تكتسب كما يكتسب الطفل

(١) السلوكية مذهب في علم النفس من أبرز رواده سيكنر Skinner .

(٢) Bloomfiead , Language, New York Leonard, 1933

(٣) Dardjowi Ejojo, S. Contrastive Analysis, Pros and Cons, Proceedings of the 3 rd Gongress of Applied Linguistics., Vol. 1, 1972 .

لغته وذلك بأن يخلق جو للدراس يتعرض فيه للغة بشكل معين ، يمكنه من اكتسابها ، تماماً كالطفل الذي يكتسب اللغة ، بسبب احتكاكه بمن حوله من الناطقين بها كأبويه وأخويه وأترابه في مكان لعبه . كما أن تعلم اللغة يكون عن طريق اكتساب قواعد لغوية ، تخزن في دماغ الانسان ، يستعملها في أي لحظة يريد فيها أن يقول كلاماً أو جملا جديدة .

وبالفعل فإن اللغويات التقابلية ، كما يراها السلوكيون ، قد فشلت ، ولكنها لم تهمل وتترك ، فجاء من علماء اللغة من طورها وأحدث تغييرات جذرية فيها . ومن هؤلاء العلماء ، العالمة الرومانية سلاما كزاكو (Slama - Gazacu)(١) التي بينت في مقال مع العالم وليم نمسر (William Nemser) نقائض اللغويات التقليدية التقابلية ، واوضحت الصورة التي يجب أن تكون عليها هذه الدارسة . وقد ركزت سلاما كزاكو على الحالة النفسية للدارس ، ونادت بعمل تجارب نفسية ، جنباً إلى جنب مع التجارب اللغوية . ويمكن تلخيص اللغويات التقابلية كما رأتها هذه العالمة كما يلي :—

١ — القيام بدراسة للأخطاء التي يقع فيها الدارس وذلك بمراقبة الطالب مراقبة دقيقة والقيام بالتجارب المناسبة التي تبين الأخطاء التي يقع فيها الطلاب .

٢ — ويجب القيام بهذه الاختبارات على فترات معينة ، كمعرفة الأخطاء ، ومدى تكررها وامكان ردها إلى أسباب المرحلة السابقة لها ، بذاتها .

٣ — تجمع هذه الأخطاء ، وتصنف تصنيفاً دقيقاً ، حسب تكرارها في المراحل المتعددة ومن ثم ترتب حسب صعوبتها وشيوعها .

٤ — تفسير عوامل هذه الأخطاء ، ومن هذه العوامل :—

أ — تأثير التقاء اللغة الأم مع اللغة الثانية عند الدارس نفسه وليس كما يراها عالم اللغويات التقابلية ، من خلال أوجه التشابه والاختلاف بينهما ، من خلال نظرية معينة وبعبارة أخرى فأن ثمة اختلافاً كبيراً بين الأخطاء التي يقع فيها الطالب الذي يدرس اللغة وبين الأخطاء التي يتوقعها عالم اللغة التقابلية من خلال تحليل اللغتين .

---

(١) W. Nemser and T. Slama - Cazacu, A Contribution to Contrastive Analysis, Revue Roumaine de Linguistique, XV , No. 2 1970 .

ب – تأثير اللغات الأخرى التي يعرفها الطالب ، غير لغته الأم واللغة التي يتعلمها .

ج – النظام اللغوي للغة الثانية التي يدرسها الطالب . فقد تكون هذه اللغة معقدة أو غير معقدة .

د – المرحلة التي يصل اليها الطالب عند تعلمه اللغة ، فكل مرحلة لها أخطاء قد تختلف عن أخطاء المرحلة الأخرى .

هـ – العوامل النفسية للطالب ومدى اهتمامه بالدراسة ورغبته ودوافعه .

و – الجو الدراسي الذي تتم فيه عملية التعليم .

ز – المعلم وتأثيره على عملية الدراسة .

ح – تحضير مادة الدرس وترتيب هذه المادة من حيث صعوبتها . وقد يضاف إلى ذلك عوامل أخرى كثيرة ، هذا ولم تقدم العالمة سلاما كزاكو هذه الأفكار باعتبارها نظرية مطروحة ، ولكنها طبقتها من خلال المشروع الروماني(١١)، للمقابلة بين اللغة الرومانية واللغة الانكليزية ، وهو المشروع الذي بدأ عام ١٩٦٩م ويعتبر الآن في مراحله النهائية . وقد اشترك في هذا المشروع الكثيرون من علماء اللغويات والطلاب .

ويرى اللغوي السويدي(١٢) بيورن يرنود (Bjorn Jernudd) أهمية خاصة في اشتراك المعلم في الدراسات التقابلية للحصول على معلومات قيمة عن الأخطاء التي يقع فيها الطالب ، وعن العوامل التي تؤثر في تقدم العملية التعليمية عند دارسي اللغة في مراحلها المختلفة فالمعلم ، أكثر من أي انسان آخر سواء أكان هذا الإنسان والد الطالب ، أم العالم اللغوي نفسه ،

---

(١١) Chitoran, D. **The Romanian / English Contrastive Analysis Project,** Proceeding, 3 rd Congress of Applied Lingusitics, 1972 .

(١٢) Bjorn Jernudd
The Linguist, The language Teacher,and Contrastive Linguistics, Kivung 5 : 1 : 2 - 31 972

يعرف الكثير عن طلابه والعوامل التعليمية التي تحيط بهم . وثمة طريقتان يمكن بهما اشتراك المعلم والاستفادة منه في الدراسات التقابلية .

(١) تكليف المعلم بالقيام بعمل الدراسات التقابلية ، وخاصة القسم الذي يختص بعمل الاختبارات الخاصة للطلاب ، وجمع الأخطاء وتصنيفها حسب المعايير التي ذكرت سابقاً . وبمساعدة عالم اللغويات ، يمكن تفسير الأسباب الحقيقية لهذه الأخطاء .

وبهذا نكون قد ثبتنا المعلم ، وجعلناه جزءاً لايتجزأ من المشكلة لكي نصبح على وعي تام بمشكلة التدريس . وعلى ضوء النتائج ، يتصرف في عملية التعليم .

(٢) وما دام المعلم يعتبر أكثر انسان يعنى بالمشكلات الدراسية التي تحيط بالطالب ، فمن الممكن ان يتعاون الباحث اللغوي مع مجموعة من معلمي اللغة ذوي الخبرة الطويلة ويبدأ بالبحث معهم في المشكلات التي يتوقعها في تعليم اللغة من كتاب معين ، بحيث يتناولون هذه الدروس واحداً واحداً فيبدي المعلمون آراءهم في الدرس ، وما يتوقعون شرحه للطلاب ، والأسئلة التي قد يوجهها الطلاب في الدرس ، والجوانب التي يجدون فيها صعوبة مما ينبغي للمعلم أن يركز عليه ، وهكذا . وهذه الآراء تمثل بالضبط المراحل التعليمية التي يمر بها الطلاب ، والصعوبات التي يواجهونها وبالطريقة نفسها ، يتناول عالم اللغة والمعلمون بحث سلسلة من الدروس . وينبغي ان تصنف توقعات المعلمين وآراءهم وتبحث من خلال نظرية لغوية معينة ، حتى يصبح الجميع على اطلاع تام على مشكلات الطلاب وأنواعها وأسبابها . وهذا بالطبع يساعد كثيراً في عملية تحسين الكتب المدرسية وطرق التدريس ، اذ ان للمعلم خبرة قيمة في جميع العوامل التي تحيط بعملية التعليم ، يمكن الاستفادة منها من خلال الدراسات التقابلية .

ان المشروع الروماني للدراسة التقابلية كانت له نتائج طيبة على تحسين مستوى تدريس اللغة الانكليزية للرومانيين ، واللغة الرومانية للانكليز وذلك بالاضافة إلى الدراسة الشاملة للغة الرومانية . ويجب أن أذكر هنا بأن هناك الكثير من الدراسات ، تتبناها الدولة على المستوى القومي ومن هذه الدراسات القائمة حالياً ، والتي يعاون في انجازها مركز اللغويات التطبيقية في أمريكا(١٣) :

(١٣) للاستفسار عن هذه المشروعات يمكن الاتصال بمركز اللغويات التطبيقية على العنوان التالي :
Center for Applied Linguistics
Arlington, Virginia 22209, U.S.A.
1611 North kent Street

١) المشروع اليوغسلافي الانكليزي .
٢) المشروع البولندي الانكليزي
٣) المشروع البلغاري الانكليزي.
٤) المشروع السويدي الانكليزي .
٥) المشروع الروماني الانكليزي .
٦) المشروع الهنغاري الانكليزي .
٧) المشروع الألماني .

ويقوم بهذه الدراسات مجموعة من علماء اللغويات وتلاميذهم في تلك الأقطار حيث يتعاونون بشكل علمي منسق رائع ، تختص كل مجموعة بدراسة جانب من جوانب اللغة فمجموعة تختص بدراسة تقابلية للصوتيات في اللغتين المتقابلتين ، ويستعمل في هذه الدراسة الآلات الالكترونية الحديثة ، مثل السونوغراف لعمل دراسة سمعية وتعطي نتائج قيمة . ومجموعة أخرى تختص بدراسة المفردات وغيرها للصرف وهكذا .

ولابد لي من ذكر ان المؤتمر العلمي الرابع للغويات التطبيقية الذي عقد في شتوتجارت في ألمانيا الغربية في صيف عام ١٩٧٥ ، والذي كان لي شرف المساهمة في قراءة بحث فيه عن دراسة تقابلية للنبر في العربية والانكليزية ، قد خصص جانباً مهماً منه للدراسات التقابلية ، قدمت فيه ابحاث قيمة ، كما أن مؤتمراً آخراً قد عقد في رومانيا في أواخر عام ١٩٧٥، وخصص للدراسات التقابلية .

ان هذه النبذة القصيرة عن علم اللغة التقابلي ومسيرته ومدارسه تبين لنا أهمية هذهالدراسات واهتمام العالم بها ، وتجيب على أسئلة قد تطرح للاقتراحات التي سأتقدم بها من أجل دراسة اللغة العربية من خلال الدراسات التقابلية .

ان اقتراحي يتلخص في الدعوة إلى قيام دراسة تقابلية بين اللغة العربية واللغات الأخرى التي تدرس في الوطن العربي بوصفها لغة ثانية ، وكثير من هذه اللغات ، كالانكليزية والفرنسية، خضعت للدراسة والتحليل بشكل عميق موسع إلى أبعد الحدود ، كما انني أدعو إلى دراسة تقابلية بين اللغة العربية الفصحى واللهجات المحلية ، يشترك في اجرائها الطلبة والمتخصصون في علوم اللغة واعتقد ان لدينا منهم عدداً لابأس به ممن حصلوا على مؤهلات علمية من بريطانيا والولايات المتحدة وغيرها .

واقترح ان تقوم الدراسات التقابلية على النحو التالي :-

١ - أن نبدأ بمشروع دراسة تقابلية بين العربية والانكليزية ، وذلك من أجل تحليل اللغة العربية تحليلا علمياً على غرار الدراسات التحليلية التي أجريت للغة الانكليزية ، وان تكون هذه الدراسات شاملة للصوتيات والصرف والنحو والمفردات وما إلى ذلك .

٢ - ان يقابل بين الانكليزية والعربية لاظهار مواطن الاختلاف والتشابه بين اللغتين ، واظهار الصعوبات التي يمكن أن تقابل الدارس الانكليزي للعربية والدارس العربي للانكليزية .

٣ - وهنا يمكن عمل دراسة تقابلية بين العربية ولغات أخرى ، ثم تحليلها على يد علمائها ، كالفرنسية والألمانية وغيرها ، واظهار مواطن الصعوبة التي يمكن ان تقابل العربي الذي يتعلم هذه اللغات أو أن تقابل الناطقين بهذه اللغات ممن يتعلمون اللغة العربية .

٤ - ان تدون هذه الصعوبات والأخطاء التي يمكن ان يقع فيها دارس العربية وتجعل معده لمقارنتها بالأخطاء التي يقع فيها هؤلاء الدارسون فعلا ، والتي يمكن حصرها عن طريق اختبارات معينة تجرى على الدارسين انفسهم على غرار ما ذكر سابقاً عن الدراسات الرومانية الانكليزية .

٥ - أن تدون الأخطاء التي قد يقع فيها الطالب العربي الدارس للغة المقابلة للعربية ، والتي نتوقعها، على ضوء نتيجة التحليل اللغوي التقابلي، ثم تقارن هذه الأخطاء الفعلية التي تحصل عليها من اختبارات تجرى للطلاب العرب الذين يدرسون اللغات الأخرى .

٦ - أن يحاول ايجاد التفسيرات العلمية لحدوث هذه الأخطاء ، ثم تصنف هذه الأخطاء من حيث نوعها وتكرارها وصعوبتها ، وتدون النتائج في كتب تكون في متناول الجميع في سائر انحاء الوطن العربي .

٧ - ان تطبق هذه الدراسة التقابلية بمراحلها على الفصحى واللهجات المحلية ومن فوائد هذه الدراسات ذات الأهمية البالغة ما يلي :-

أ) القيام بدراسة لغوية شاملة للغة العربية على نمط الدراسة التي عملت اللغات الأخرى ، مثل الانكليزية ، حيث أنه لايمكن مقابلة لغتين الا اذا درستا من خلال نظرية لغوية محددة . وما أحوج اللغة العربية لمثل هذه الدراسة ، لتتجاوز مرحلة الركود في دراسة العربية التي مضت عليها قرون عديدة وهي

تعيش الدراسات القديمة ذاتها اذ ان الدراسة الحديثة تعرضها للاضواء التي تساهم في احيائها .

ب) مثل هذه الدراسة تساعد ولا ريب في تحسين طرق تدريس العربية للعرب وغيرهم كذلك تدريس اللغات الأخرى التي يدرسها العرب وتجعلها على وعي تام بنوع المشكلات التي تقابل الدارسين والمدرسين وهذا بدوره يساعدنا على ايجاد الكتب المدرسية المناسبة ، والتي تتناسب مع رغبات الدارسين ومستواهم، وتتدرج في مفرداتها حسب خطة علمية مبنية على نتائج الدراسات التي توصلنا إليها ، وبذلك نحل مشكلات تعتبر في هذا الوقت مستعصية .

ج) تأليف الكتب لتعليم العربية لغير الناطقين بها على أسس علمية صحيحة ، وتأليف كتب في اللغات الأجنبية التي يتعلمها الناطقون بالعربية ، وقد تختلف هذه المساقات من حيث هدفها ونوعها وطبيعتها كالمساقات التي تقدم للطلاب الذين يريدون مواصلة دراساتهم في الأقطار الأوروبية ، أو في أمريكا أو الاتحاد السوفيتي مثلا .

د) ان الدراسة التقابلية للمفردات في العربية وغيرها تمكننا من كتابة المعاجم اللغوية من العربية وإليها ، ونستطيع أن نحدد نوع هذه المعاجم والغرض منها ، ومستوى استعمالها . فعلى سبيل المثال ، يمكن عمل معجم على غرار المعجم الذي كلفت بعمله المجموعة التي اختصت في المشروع الروماني الانكليزي (١٤) في عمل دراسات تقابلية في المفردات ، وهذا المعجم يضم الـ ٢٠٠٠ كلمة الأكثر شيوعاً في الانكليزية وذلك لمساعدة معلمي اللغة الانكليزية ومؤلفي الكتب المدرسية وسيبين هذا المعجم بالاضافة إلى معاني هذه الكلمات بالعربية ، التدرج في تدريسها للطلاب العرب ، حسب شيوعها وصعوبتها التي تكتشف أثناء تعلم الطلاب لها ، وقد تضم إلى هذا المعجم الملحقات التالية :-

١) قائمة بالمفردات مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب شيوعها في العربية واللغة المقابلة بها .

٢) قوائم بالمفردات التابعة للغة المقابلة بالعربية مرتبة هجائياً . وتضم هذه المفردات

---

(١٤) نفس المصدر المشار إليه في ١٠ سابقاً .

الافعال والأسماء والصفات والظروف التي إذا سبق الكلمة منها حرف جر معين ، تكون معه معنى جديداً ، مع أعطاء مقابلتها باللغة العربية. ومثال ذلك الكلمات: (Give up) ومعناها يسلم والتي تختلف في معناها عن (Give) لوحدها ومعناها (يعطى) .

وهذه التعبيرات من أصعب الجوانب في اللغة الانكليزية ويقال ان اللغة الانكليزية لغة مصطلحات (The Language of idioms) .

٣) قائمة بالأفعال المركبة الشائعة في اللغة المقابلة العربية والتي تسمى بالانكليزية (Compound Verbs) مع ما يقابلها في اللغة العربية .

٤) قائمة بمفردات اللغة المقابلة للعربية ، مع ما يقابلها بالعربية ، مرتبة حسب مراحل تعليمية متتالية .

ومعجم كهذا ستكون له أهمية بالغة في عملية تدريس اللغات المقابلة للعربية ، ويمكن عمل المعجم نفسه من العربية مقابلة باللغات الأخرى .

هـ) ان الدراسات التقابلية للفصحى واللهجات المحلية تمكننا من معرفة الكلمات الفصحى التي تستعمل في كافة أرجاء الوطن العربي ، واحصائها ومدى شيوعها في كل قطر كما أنها تمكننا من معرفة الفروق بين العامية والفصحى بشكل علمي احصائي دقيق ، وتجعلنا على وعي تام بالمسالك التي تبتعد فيها العامية عن الفصحى . وهذا يساعدنا على استعمال لغة فصحى واحدة محددة بمفرداتها وقواعدها في كل انحاء الوطن العربي ، ويمكن ضمان ذلك اذا تبنت وسائل الاعلام في العالم العربي هذه اللغة .

و) نصبح على وعي بالفروق بين اللهجات المحلية في شتى انحاء الوطن العربي ، على مستوى القطر ونحاول حصر هذه الفروق وهنا نكون على بينة بكيفية التشجيع على استعمال العربية الفصحى بطريقة علمية لا عاطفية .

ان القيام بدراسات تقابلية في العالم العربي ، وبالشكل المفصل السابق يحتاج إلى جهود متخصصين بعلوم اللغة ، كما انه يحتاج إلى التعرف على ما تم انجازه في المشروعات الأخرى التي قامت في العالم ، ولذلك فانني اقترح انشاء مركز للغويات العربية التطبيقية على مستوى العالم العربي ، بحيث يتبع احدى مؤسسات الجامعة العربية ، ويساعد هذا المركز على القيام بتدريب الاحصائيين في الدراسات التقابلية ، ويساعد في القيام بعمل أية دراسات تقابلية في الوطن

العربي ، على غرار مركز اللغويات التطبيقية في أمريكا ، الذي ساهم وما يزال يساهم مساهمة فعالة في انجاح مشروعات الدراسات التقابلية في الدول الشرقية وغيرها . ويجب أن يحتوي المركز المقترح مكتبة ضخمة تضم كل ما كتبت في علوم اللغة التطبيقية ، وتحتوي على نسخ من الرسائل العلمية التي كتب في أية دراسة تقابلية تكون اللغة العربية طرفاً فيها .

كما يجب أن يكون لهذا المركز علاقة مع جميع المراكز المشابهة في العالم وهي كثيرة ، لتبادل المعلومات والخبرات ، ويكون لهذا المركز دورية تعني بنشر الابحاث التي تكتب في هذا المضمار في العالم العربي .

ولست أدري هل يمكن « لمعهد إعداد متخصصين في تعليم العربية لغير الناطقين بها » في الخرطوم ، التابع للجامعة العربية ، ان يطور ويقوي ويدعم للقيام بهذا العمل .

وأخيراً لابد ان اذكر ان الكثير من بلدان العالم ، لها مراكزها التي تشبه المركز المقترح ، كالهند ، ويوغسلافيا ، ورومانيا وغيرها ، وكلها على اتصال مستمر وتعاون متبادل مع مركز اللغويات التطبيقية في فرجينيا بالولايات المتحدة .

* * *

محمد موفاكو

اللغة العربية في اللغة الألبانية

يهمنا أن نشير أولاً إلى أن هذه المادة ليست إلا محاولة أولية للتطرق إلى هذا الموضوع ، وقد يجرنا هذا إلى موضوع أعم ألا وهو العربيات في الثقافة الألبانية كذلك يفترض بنا أن نشير إلى أن هذا الموضوع قد تجوهل لفترة طويلة وإلى الآن وما كتب عن هذا الموضوع لم يهدف إلى تناول العربية ؛ إنما إذا تمّ تناولها فإنما يتم ذلك من خلال ما يُسمى Turqizmat أي التركيات في اللغة الألبانية (١) . كذلك فإن الكلمات العربية غالباً ما يدخلها الغير في مصطلح آخر ، ألا وهو Barbarizmat أي البربريات .

(١) آخر محاولة نجدها لدى د.لطيف مولاكو DR. Latif Mulaku في دراسة « التركيات في اللغة الألبانية » التي نشرت في الملحق الثقافي لجريدة Rilindja عدد٤-٩ . ١٩٧٦ .

وطالما أن هذه المادة تتناول « العربية في اللغة الألبانية » أي عن تأثير ما بين لغتين ، فإن ذلك يفترض بطبيعة الحال وجود علاقة أو تماس ما ، يمكّن من انتقال أحادي أو متبادل بين هاتين اللغتين . ولكن كيف يمكن أن يتم هذا بين العربية والألبانية ؟ من الناحية اللغوية نعرف أن العربية تنتمي إلى العائلة السامية ، على حين أن الألبانية تصنف في عداد المجموعة الهندو – أوربية ، مع أن مسألة أصولها مازالت إلى اليوم موضع نقاش ، ولكن هذا النقاش على كل حال لا يتناول مسألة أقدمية هذه اللغة . وأما فيما يتعلق بالناحية التاريخية ، فإن التسليم بوجود علاقة يكاد يبدو عسيراً في بادىء الأمر أمام هذه المسافة الجغرافية الفاصلة بين المتكلمين بالعربية والمتكلمين بالألبانية . ومع هذا فقد شهد القرن الماضي ، الذي امتد فيه وجود العربية إلى مرذروته ، تفسيراً جديداً للعلاقة التاريخية بين العرب والألبانيين . من هذا نجد أن أحمد بن زيني دحلان في كتابه « الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية » يذكر عن الألبانيين في أنه « قيل أصلهم من عرب الشام من بني غسان ارتحلوا من الشام بعد ماأتى الله بالاسلام . . » (١) . ولكن هذه النظرية لم يعد يؤخذ بها ، نظراً للاكتشافات الأثرية التي وضحت ماهو غامض في أصل الألبانيين . وطالما أن العلاقة اللغوية والتاريخية لاتقدم شيئاً يمكن أن يبنى عليه ، في صدد وجود علاقة مابين العربية والألبانية ، فلا يسعنا هنا إلا أن نسلم بوجود وسيط بين هاتين اللغتين . وما نقصده بالوسيط هو اللغة التركية .

(١) «الفتوحات الأسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية » المكتبة التجارية – القاهرة ج٢ ص ١٣٠ . ويمكن أن نضيف أن هذا التفسير يمكن التقاطه حتى ابتداء من القرن السابع عشر .

العربية إذن ، في بادئ الأمر ، لم تحمل ذاتها إلى هنا ، وإنما حملتها في طياتها لغة أخرى هي التركية . ولكن في فترة لاحقة سيتاح للألبانيين أن يتصلوا بشكل مباشر بالمنابع العربية ، الدينية والفلسفية والأدبية ، مما فسح المجال لانتقال فوري ومباشر للكلمات العربية ، التي لم تكن قد أنتقلت بعد .

وفيما يتعلق بالتركية ، فلا يعني كون الاعتراف بها كوسيط التسليم بعلاقة سابقة ، لغوية أو تاريخية ، مع الألبانية . إذ أن التركية لم يسمع بها هنا حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، أي مع اقتحام الأتراك للبلقان . وفيما يتعلق بالأراضي الألبانية ، فقد تقرر مصيرها أثر معركة كوسفا kosova الحاسمة ١٣٨٩ بين الجيش التركي وجيوش التحالف البلقاني . ومع ذلك فقد تأخر استقرار السلطة التركية في المناطق الألبانية نتيجة لمقاومة اسكندر بك Skenderbeu المستميتة ، حتى عام ١٤٦٨ .

لقد جاء الغزو التركي في لحظة عصيبة بالنسبة للألبانيين ، في لحظة مد وجزر في وجودهم القومي ومن ثم الثقافي . وما يهمنا هنا أن الغزو التركي جاء في وقت بدأ فيه تأليف اللغة الألبانية المفككة ، وبالتالي أدى هذا الغزو إلى قطع هذه السيرورة اللغوية ـ الثقافية (١) . ومن هنا تبدو اللغة الألبانية في ذلك الوقت شبه مستسلمة أمام دخول الكلمات الأجنبية (صربية ، يونانية ، تركية . .) في ذلك الوقت .

---

(١) هذا ما يجمع عليه الألبانيون تقريباً ، ومن هذا لدينا صفحات عنه ذلك في كتاب :
Abas Ermenji, Albania ... Né Mergim 1968
صفحة ١٠٩ وما بعدها ..

لقد استقر وجود الأتراك في الأراضي الألبانية إذن ابتداء من عام ١٤٦٨ ، وخلال الفترة الباقية من القرن الخامس عشر وما يليها ستبدأ في الانتقال إلى الألبانية العديد من الكلمات العربية ، التي حملتها التركية معها إلى البلقان ، والتي تشير فقط للمرحلة الأولى من العلاقة بين اللغتين العربية والألبانية . وخلال هذه المرحلة سنشهد أولاً انتقال الكلمات العربية أو المعربة التي تتصل بالمجال العسكري — الحربي مثل ميدان **Mejdan** ، بيرق **Bejraktar , Bejrak** أي حامل البيرق ، عسكر **Asqer** ، قلعة **Kala** ، خندق **Henduk** ، خنجر **Hanxher** إلخ . . . ومن الطبيعي ألا تكون هذه الكلمات أولى الكلمات الداخلة إلى الألبانية ، طالما أن التماس الأولي قد جرته المعارك . وفي لحظة أخرى من هذه المرحلة ، في القرن السادس عشر ، نشهد انتقالاً لكلمات عربية جديدة تتناول مجالاً آخر ، ألا وهو المجال المتعلق بالإدارة **Idaret** ، التي أخذت تستقر منذ حين . ومن هذه الكلمات نجد وزير **Vezik** ، قاضي Kadi ، كاتب **Qatib** ، خراج **Harag** ، رعية **Raje** الخ . . .

كذلك فإنه في هذه المرحلة ستدخل الألبانية كلمات عربية أخرى مع دخول ونهوض المنشآت الجديدة . إذ أن أسوار المدن أخذت تتهاوى مع نمو المنشآت الجديدة كالمسجد **Mesxhidé** والجامع **Xhami** والمدرسة **Medrese** والحمام **Hammam** والعمارة **Imaret** والتكية **Teqe** الخ . . ومع هذا ستدخل البيت الألباني أشياء جديدة مع مسمياتها العربية مثل الشربة **Sherbet** والكباب **Qebab** والبرك **Byrek** والخ من المأكولات ، والجبة **Gjube** والعنترية **Anterija**

والدلامة Dilame والخ من الملابس ، والسجادة Sexhade والمكتب Mekteb والطاولة Tavolin والخ من الموجودات البيتية .

وفي القرن السابع عشر ، سيؤدي انتشار الاسلام إلى دخول كتلة واسعة من الكلمات العربية في الألبانية ، تلك التي تتعلق بشكل أو بآخر بالدين . من ذلك نجد مثلاً الله Allah ، رب Rab ، شيخ Sheh ، مفتي Mufti ، مؤذن Myezin ، جنة Xhenet ، جهنم Xhehenem ، جن Xhin ، حلال Hallal ، حرام Haram الخ ... وعلى هذا يضاف أيضاً التحيات المتداولة : مرحبا Marhaba ، السلام عليكم Selamalejqum وعليكم السلام Alejqumselam الخ . . . كذلك فإن الأسماء العربية أخذت تنتشر في هذه الفترة مثل علي Ali ، أحمد Ahmet ، حسن Hasan ، رحمن Rrahman ، لطيف Latif ، خليل Halil الخ . . .

ومع انتشار الاسلام ستتضخم المؤسسات الاسلامية مع تسمياتها العربية ، ومن ذلك الكتاب Kuttab والمدرسة Medrese ودار القرآن Darul - kuran ودار الحديث Darul - Hadisi ، التي سبقت انتشار الاسلام ومن ثم ساهمت في انتشاره . وعلى رأس هذه المؤسسات نجد المدرس Muderris أو المعلم Mualim ، على حين كان الطلاب يدرسون القرآن Kuran والحديث Hadis والتفسير Tafsir والوعظ Vaiz والعقائد Akaid والفرائض Feraiz الخ... وفي هذه المؤسسات كانت الدروس أول الأمر تجري باللغة التركية ، على اعتبار أن هذه المدارس نشأت برعاية السلطة التركية . إلا أن د . رجب أغتيش DR. Rexhepagiq يذكر في كتابه « تطور التعليم

والنظام المدرسي للقومية الألبانية في منطقة يوغسلافيا الحالية حتى عام ١٩١٨ » أن العربية أخذت تحل محل التركية ابتداء من القرن السادس عشر(١)

مع هذا التحول ، سيتاح للألبانيين أن يتعرفوا على العربية بشكل مباشر ، كما وأن يتصلوا بالمنابع الثقافية العربية دون الوساطة التركية . وأدى هذا إلى أن تزدهر عدة مدن ألبانية مثل بيرات **Berat** وإلباسان **Elbasan** وشكودرا **Shkodra** وبريزرن **Brizren** وغيرها على كونها مراكز للثقافة الجديدة المطعمة بالعربية . وبشكل خاص تميزت مدينة بيرات منذ القرن الثامن عشر بازدهار هذه الثقافة ، إذ أخذ الشعراء الألبانيون يكتبون بالعربية مقلدين بذلك الشعراء العرب . كما أن عدداً آخر من الشعراء الألبانيين أخذوا يكتبون بالألبانية المعربة ، أي المكتوبة بحروف عربية ، ومن أبرز هؤلاء نجد من مدينة بيرات ناظم تاركولا **Nezim Tarkulla** وسليمان نائب **Sylejman Naibi** وحسن كامبري **Hasan Kamberi** . ومن مدينة شكودرا **Shkodra** نجد حسين دوبراتشي **Hgsen Dobraji** وصالي باتا **Sali Bata** وغيرهم ولكن لا بد أن يشار على رأس هؤلاء إلى الشاعر محمد تشامي **Muhammed Gami** . (٢)

---

(١) DR. Jashar Rexhepagiq, Zhvillimi i Arésimit Dhe i Sistemit Shkollor té kombésisé Shqiptare né Teritorin E Jugoslavisé sé Sotme Deri né Vitin 1918, Prishtiné 1970 . صفحة ٣٣ خاصة والكتاب ككل كمرجع لهذه المسائل .

(٢) محمد تشامي (١٧٨٤ - ١٨٤٤) أحد الألبانيين التي أتيحت لهم الفرصة للاتصال بالعالم العربي ، حيث مكث في القاهرة حوالي عشر سنوات للدراسة ، ولد حمل في عودته جعبة ستخلف تأثيرات لاحقة في الشعر الألباني خاصة وفي اللغة عامة .

لقد أدى كتابة الألبانية بالحروف العربية إلى ازدياد ثقل العربية في الألبانية . ولا يمكن هنا إلى أبجدية معينة كنموذج ، لأن الألبانيين جربوا أكثر من مرة كتابة الألبانية بالحروف العربية ، ولذا لدينا العديد من الأبجديات الألبانية المكتوبة بالعربية . ومن ذلك مثلاً لدينا أبجدية ناظم فار كولا **N. Tarkula** من القرن الثامن عشر ، وأبجدية حسين دوبراتشي **H. Dobragi** ، ومن القرن التاسع عشر لدينا أبجدية داود بوريتشي **Daut Borigi** ، وأبجدية محمد تشامي ، وأبجدية هوجا تحسين **Hoxha Tahsin** . وغيرها وغيرها . وبشكل عام يمكن أن يلاحظ في هذه الكتابات الألبانية القائمة على هذه الأبجديات وجوداً أوسع للكلمات العربية .

في هذا يمكن أن يؤخذ القرن الثامن عشر على أنه بداية المرحلة الثانية في تأثير العربية والعربيات بشكل عام ، تلك المرحلة التي ستستمر حتى القرن التاسع عشر ، وبحدة أهدأ في بداية القرن العشرين . في هذه الفترة سيتاح للألبانيين هنا أن يقرأوا بالعربية المراجع العربية من دينية وفلسفية وأدبية ، كما وسيتاح لهم الانتقال إلى العالم العربي للتجول أو للعمل أو للدراسة . وسيبدو أثر هذا الاحتكاك اللغوي على الأدب الشعبي مثلاً : هذه القاعدة التي سيتطور عليها الأدب الألباني الحديث في القرن التاسع عشر . ويمكن أن نشير هنا فقط إلى كلمات « ألف ليلة وليلة » حيث نجدها تتردد ، بعد ألبنتها ، في القصص الشعبية الألبانية مثل حكاية **Higaje** ، رشوة **Ryshvet** ، قاضي **kadi** (١) ، سلطان **Sultan** ، درويش **Dervish** ، تبديل

(١) الكلمات الواردة في القصص الشعبية هنا تتردد مع مضامينها ومواطنها ، فمثلا =

Tebdil (١) : تجار **Tuxhar** ، حكيم **Heqim** ، عجوز **Axhuze** غربة **Kurbet** ، قدر **Kader** ، قسمة **Kesmet** الخ . . .

ازاء هذه الكلمات العربية التي مرت معنا ، وفي المئات من أمثالها ، لا بد أن يتساءل المرء كيف استقبلتها اللغة الألبانية . من الضروري هنا أن نشير إلى الفروق الصوتية بين اللغتين ، حيث نفتقد في الألبانية الكثير من الحروف العربية (الواو ، الضاد ، الصاد ، القاف ، العين ، الغين ، الطاء ، الحاء ، الخاء . . .)

هذا مع أن حروف الألبانية تفوق حروف العربية في عددها (٣٦ حرفاً) . ولهذا من الطبيعي أن نشهد تحولاً في بعض حروف الكلمة العربية عند دخولها اللغة الألبانية .

ومن ذلك لدينا تقريباً كل الكلمات التي مرت معنا سابقاً . مثلاً وزير تتحول إلى **Vezir** لافتقاد الواو في الألبانية ، ورعية تتحول إلى **Raje** لافتقاد العين ، وغربة تتحول إلى **Kurbet** لافتقاد الغين وهكذا .

إلا أن الملاحظة الأساسية تكمن في مجال آخر . فالكلمة العربية

= قصة القاضي الذي كان يأخذ رشوة « **Kadiu Qé Merrte Ryshvet** » إنما هي تأثير عن الصورة الموجودة عن القضاة في « ألف ليلة وليلة » .

(١) المقصود بـ « تبديل » هنا الزي الذي يتنكر به السلطان ليتعرف على أحوال رعيته ، وهذا ينحدر طبعاً من « ألف ليلة وليلة » ولنقرأ مثلا المقطع التالي من قصة شعبية لنرى كيف ترد فيها الكلمات العربية « هذا الملك أعطى قراراً **Karar** في أحد المرات أن يخرج ويتجول ليرى إلى أي حد العدالة **Adalet** ، وهل الملة **Meliti** مرتاحة مع إدارته **Idaret** . فعمل تبديلا **Tebdil** ولبس كدرويش **Dervish** » .

عند انتقالها إلى الألبانية تبقى جامدة غير قابلة للاشتقاق . فلا يمكن مثلاً اشتقا ق الفعل منها أو الصفة أو اسم الفاعل أو اسم المفعول الخ . من ذلك مثلاً نلاحظ كلمة رشوة **Ryshvet** .ففي العربية نقول رشى وارتشى، على حين أن الألباني عليه أن يقول أعطى رشوة **Dha Ryshvet** أو أخذ رشوة **Mori Ryshvet** ، أي أن كلمة رشوة تبقى دائماً على حالها . وعلى نفس الاتجاه تعامل كلمة قرار **Karar** ، إذ لا يمكن اشتقاق فعل منها مثل قرر،وعوضاًعن هذا يقال في الألبانية أعطى قراراً **Dha Karar** الخ . . . ويعود هذا بالطبع إلى اختلاف اللغتين ، إذ أن كلاً منهما تنحدر من عائلة لغوية مغايرة .

ولكن في نفس القرن الذي وصل فيه وجود العربية إلى ذروته ، أي القرن التاسع عشر ، سنلاحظ اشتداد ميل معاكس يرمي إلى تطهير اللغة الألبانية من الكلمات الأجنبية (صربية ، يونانية ، تركية ، عربية . .) واستبدالها بالكلمات الألبانية . ومع أن هذا الميل إلى تطهير اللغة الألبانية يبدو دفعة واحدة في القرن التاسع عشر ، الا أن الأستاذ إلكسندر جوفاني **Prof. A. Xhuvani** يؤكد على أن هذا الميل يمكن رؤيته ابتداءاً من القرن السادس عشر (١) ، حين بدأ الألبانيون يحذرون من غرق اللغة الألبانية في بحر الكلمات الأجنبية . وقد ارتبط هذا الميل باتجاه آخر يرمي إلى الاتفاق على أبجدية موحدة للغة الألبانية ، بعد أن شتت استعمال (١٧)أبجدية الألبانيين فيمابينهم، وجعل التواصل الثقافي فيا بينهم مستحيلاً .

---

(١) Prof. Aleksandér Xhuvani, Pér Pastértiné E Gjuhés Shqipe, Prishtiné 1968

ص ٧ من المقدمة ..

وليس من شك في أن مسألة تطهير اللغة واختيار الأبجدية الموحدة للألبانية ، قد تداخلت بالنهضة الألبانية الثقافية ، وبحركة التحرر القومي التي طغت على الساحة الألبانية مع النصف الثاني للقرن التاسع عشر . وستتحول هذه الفترة اللاحقة ، من النصف الثاني للقرن التاسع عشر وإلى إعلان استقلال ألبانيا ١٩١٢ ، إلى فترة مليئة بالحوار المسلح ، وخاصة مع بداية القرن العشرين ، بين أنصار الأبجدية اللاتينية والأبجدية العربية المقترحتين للغة الألبانية . وقد حسمت هذه المسألة فقط مع استقلال ألبانيا ١٩١٢ ، حيث أختيرت الأبجدية اللاتينية للغة الألبانية . ومع اختيار الأبجدية اللاتينية ستبدأ المرحلة الأولى من تطهير اللغة الألبانية من الكلمات العربية وغيرها مما صنف في عداد الكلمات الأجنبية . وقد تم في هذه المرحلة تناول بعض الكلمات العربية ، على حين أن ماتبقى من الكلمات سيتم تناولها في المرحلة الثانية ، التي بدأت مع ١٩٤٥ في ألبانيا ، والتي ماتزال قائمة .

أخيراً قد يتساءل المرء ماذا بقي الآن من العربية في اللغة الألبانية ، بعد موجة التطهير التي بدأت منذ أكثر من نصف قرن . هنا لابد من التمييز بين اللغة الألبانية الفصحى ، التي أعلنت لغة موحدة لكل الألبانيين في العالم ، وبين اللغة الألبانية المحكية في هذه المنطقة أو تلك . في الألبانية الفصحى اعتمدت بعض الكلمات العربية ، وبهذا تحولت إلى كلمات دائمة الاستعمال ، ومن ذلك لدينا قطران **Katran** ، حلقة **Hallkë** ، قلعة **Kala** ، برك **Byrek** ، رشوة **Ryshvet** ،

حساب **Hessap** ، تمام **Tamam** ، مدرسة **Medrese** الخ . . . أما اللغة المحكية ، فما تزال الكلمات التي ذكرت في هذه المادة رائجة الاستعمال فيها ، إضافة إلى عدة مئات أخرى من الكلمات العربية ، التي لم تتح لنا طبيعة المادة أن نتوسع في عرضها (١) .

بريشتينا ـ يوغسلافيا

★ ★ ★

(١) في مناسبة قادمة نأمل في أن نعود إلى ما كتبه الألبانيون بالعربية ، وإلى تأثير العربيات في التفكير الألباني .

عدنان بن ذريل

البنيوية ومدوّنات اللغة

البنيوية مذهب علمي يستند إلى وضعية عقلانية ، يريد توضيح الوقائع الاجتماعية والانسانية ، بتحليلها ، واعادة تركيبها ، وشرحها على هدي التصميم الداخلي الذي تخضع له ، الا وهو البنية ..

إنها إذن تنورية حديثة عن الإنسان ، وحياة نشاطاته .. تنورية لاتقبل غير المنطقي المحسوس ، الذي ينطلق الملاحظ منه ليكتشف الهيكل المستتر للظاهر المباشر ؛ هذا الهيكل الذي يمكنه وحده أن يفسر مظاهر الاجتماع الإنساني .

إن (البنيوية) تستهدف بالبحث والتوضيح مختلف المجموعات الاجتماعية،من عادات، وتقاليد، وممارسات، وفنون، وثقافات،ومعارف، وطقوس، وأساطير وغيرها، باعتبارها منظومات تتماسك وفق نسقية ضمنية ، هي بنيتها الداخلية ، والتي يمكنها توضيح الأجزاء في الكل ، أو أيضاً الكلية عبر الأجزاء ، ووظائف كل منها ..

إن المسحة الوضعية شيء أساسي ، وبارز في هذا الاتجاه العلمي العقلاني ، بحيث هي تلزم بنفسها كل عملية فيه من جمع ، وفرز ، وتصنيف ، وشرح .. أن البنيوية حين تصنف

الوقائع إلى مدونات ، ومجموعات ، أو حين تلسقط أحوال الأشياء ، وحركتها ، ومعانيها انما تفعل ذلك عن حس وضعي واقعي وعلمي ..

ومع ذلك تصطنع البنيوية (الرمزية) ، والتي تقترب من الرمزية الوظيفية ، التي تظل مرتبطة بالبنية ، أي الوظيفية البنيوية ؛ وذلك بفعل أن الهيكل التكويني للهيكل هيكل لاشعوري ، وان البنية من طبيعتها لاشعورية ، وأن فك الرموز يظل شيئاً من بنية الوقائع ، ولها ..

يقول (كلود ليفي شتراوس) : – يجب أن تمضي في تحليل مختلف الجوانب من الحياة الاجتماعية إلى عمق نبلغ معه مستوى يمكننا من الانتقال من الواحد إلى الآخر ، أي أنه يجب اعداد مدونة كلية من شأنها أن تعبر عن الخصائص المشتركة بين البنى المتميزة لكل جانب من الحياة الاجتماعية(١) –.

كما يقول :– أن مهمة البنيوي هي أن يدرك الوحدة بين مستويات الواقع التي تتمتع بقيمة أساسية في الاعتبار الذي هو يعتبره ، أو الوحدة بين المستويات التي يمكن تمثيلها عن طريق نماذج ، مهما كان طابع هذه النماذج (٢) –.

وهنا تبرز قيمة (الرؤية) التي يرتبها الباحث البنيوي في توضيحاته ، وشروحه ؛ وهي في شتى الأحوال رؤية واقعية ، ومقارنة ، وتفارق في العديد من النقاط الرؤية التاريخية ، الشاملة ، إلى الكون ، ومظاهره ..

لقد حاولت البنيوية في الأساس تقليص الأضرار التي لتزييف الوعي ، موضوع التجربة في العلوم الاجتماعية والإنسانية . . أن الباحث الاجتماعي ، سواء كان محللا أو اقتصادياً أو لغوياً معرض للتفاعل مع الوقائع التي يشاهدها ، ومعرض أذن لأن يزيفها ..

ولذلك عملت البنيوية على الحد من أثر الوعي في التحليل البنيوي ، ثم حذفه ، لتفادي الانغماس في الوقائع الاجتماعية والإنسانية ، وبحثها بالتالي وضعياً في حياد ونزاهة تامين ..

البنية إذن نسقية ، أو إطار ذهني ، أو هيكل تكويني يتمتع بتنظيم ذاتي .. وهي وأن تكن جزءاً من الواقع ، الا أنها ليست الواقع التجريبي الذي تقدمه المباشرة الأولية ؛ وانما

(١) الانطروبولوجيا البنيوية ، باريز ١٩٥٨ ، ص ٧١ .

(٢) الأنطروبولوجيا البنيوية ، ص ٣١١ .

هي المستوى غير الظاهر الذي يجب الكشف عنه وراء المعطى المباشر ، على نحو العلاقات التي تحفرها الثقافة في الطبيعة وغيرها .

يقول شتراوس :– يجب أن تتمتع البنية بخاصة المنظومة ، أي أن تتكون من عناصر يؤدي أي تغيير في أحدها إلى تغيير باقي العناصر الأخرى(١) .

ويقول ل. سيف أن المنهج البنيوي يتسم بثلاث سمات :

١ – نظرية في المعرفة،أبستمولوجيا تعتمدالنماذج،وترفض وجهة النظر التجريبية التي تدعي أن بأمكان البنية أن تكشف عن نفسها في مستوى العلاقات المباشرة بين الظواهر ، لتؤكد على العكس انها من انشاء العقل العلمي الذي يتجاوز المظاهر الخداعة ، ويصارعها في بعض الأحيان .

٢ – نظرية في الوجود ، أنطولوجيا عن البنية كبنية تحتية لاشعورية ، تفترض خلف العلاقات المدركة ؛ ونتيجة لذلك الحط من قيمة الوعي المباشر للافراد ، وما يعانونه ؛ وفي هذا المضمار اعتبار البشر ضحايا أوهام ..

٣ – رفض الوعي التاريخي الذي يأخذ التاريخ على أنه تقدم متصل ، متجانس (٢) –

ان الخاصة الأساسية للعالم البشري هو انه عالم غني بالدلالات . وان الظاهرة الشعورية فيه دائماً مثقلة بشحنة من (اللاشعور) ، تصل إلى آفاق علاقات أساسية ، يمكن اعتبارها قوانين لاشعورية ..

يقول شتراوس : – أن هدف الاتنولوجيا هو ان تتمكن من وضع قائمة بالأمكانيات اللاشعورية فيما وراء الصورة الواعية ، والمتغيرة التي يشكلها البشر عن تطورهم (٣) .

و (اللاشعور)الذي يقول به البنيويون ليس هو لاشعور المحللين النفسانيين،أي ذلك الوسط النفسي لرغبات الهو .. وانما هو لاشعور بنيوي ، وفي الأساس عقلاني ، لاشعور من مستوى

---

(١) الانطروبولوجيا البنيوية ، ص ٣٠٦ .

(٢) المنهج البنيوي والمنهج الجدلي ، فكرة أوكتوبر ١٩٦٧ ، وأوردها عبد السلام بنعبد العالي ، في مقاله عن المنهج البنيوي ، أقلام عدد ٨ – ١٠ تموز ١٩٧٥ .

(٣) الانطروبولوجيا البنيوية السابق الذكر ، ص ٣١ .

المقولات المنطقية ، وتآلفها : ولكنه في نظرهم غير شخصي ، وغير زماني ، ويعبر عن نفسه من خلال الإنسان .

يقول شتراوس :– إذا كان النشاط اللاشعوري للذهن يقوم كما نعتقد على ان يفرض صوراً على المحتوى ، وإذا كانت هذه الصور هي هي في جوهرها عند كل الأذهان البدائية ، قديمة أو حديثة ، كما تبينه تبياناً ساطعاً دراسة الوظيفة الرمزية على نحو ما تعبر عن ذاتها في اللسان ، يجب ويكفي أن ندرك البنية اللاشعورية الكامنة تحت كل سنة وعرف ، حتى نحصل على مبدأ للتفسير يصدق على مؤسسات وأعراف أخرى ، هذا طبعاً شريطة أن نبعد في التحليل بعداً كافياً (١) .–

° ° °

البنيوية في المجال اللغوى

وفي رأي البنيويين ، ليس ثمة علاقة طبيعية ماثلة بين (الصيغة الصوتية) لكلمة من الكلمات ، وبين معنى هذه الكلمة ؛ وان الأدلاء بحروف في أية لغة من اللغات لايتحدد من خلال المعنى ، أو الشيء المشار إليه ؛ وأما (المعنى اللغوي) فمستقل عن الحروف الذي تستعمله ، ويدللون على ذلك بتعدد اللغات ، وأن شيئاً بعينه يمكن التعبير عنه بألفاظ من صيغ صوتية مختلفة (٢) ..

إن الإشارات الدالة لاتعدو أن تكون رموزاً ، أحرفاً ، علامات مصطلح عليها ، تماماً كما ان طقوساً معينة في بعض الممارسات الكهنوتية ، أو الدينية ، تلجأ إلى استعمال الرمز لتتمكن من إيجاد لغة تفاهم مع الواقع ؛ ألا أن هذه الإشارات لاتتطابق مع الواقع ، ولاتماثله.. ان البنية التي ينهض عليها الواقع الاجتماعي تغاير تراكيب وسائل الاتصال ، ويكتشفها البنيويون في التقابلات بين المجموعات والنماذج ، وعلى الخصوص التي لمستوى الثقافة ، والطبيعة ..

---

(١) الانطروبولوجيا البنيوية ، ص ٢٨ .

(٢) ترجمة اقتبسها أنطون شاهين عن مقال – ملامح البنيوية – لأيفو فرانزل ، ضمن بحث البنيوية واللاعقلانية ، المعرفة ، العدد ١١٦ ، تشرين أول ١٩٧١ .

فرديناند دوسوسور : يعتبر اللغة اصطلاحاً ، ولاشأن في هذا الاصطلاح لطبيعة العلامة المصطلح عليها (١) ..

ان (اللغة) دارة تشمل المسموع ، والملفوظ ، والمتصور ، وتحرك قسماً نفسياً ، وآخر وظيفياً ؛ انها تستمد قاعدتها من ذاتها ، وجميع المؤثرات في اللغة ترجع إلى المجتمع ، والظواهر الاجتماعية .

ومن أساس هذا التمثل الاجتماعي يميز (دوسوسور) بين اللغة ، والكلام ؛ ان اللغة ظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ، وتخضع له وحده .. في حين أن الكلام هو تطبيق الأفراد للنظم الاجتماعية ، ولكنه عمل فردي ويخضع لمؤثرات شخصية ..

ان التزامن اللغوي في سكونيته يضع القوانين بين العلامات والمطابقات ؛ في حين ان التطور اللغوي هو الجريان التاريخي لعناصر المدونة اللغوية .

والتطور اللغوي هو في الكلمة نفسها .. لأن الكلمة تحوي على بذرة كل التبدلات ، والتي يطلقها أولا عدد من الأفراد ، ثم يشيع استعمالها ..

هيلمسلف : يرى أن استقصاء النماذج اللغوية ، واستقلالها هو أكبر مهمة تعرض لعلم اللغة ، وأهمها .. وقوامها أن تجيب على سؤال : ما هي البنى اللغوية الممكنة ؟.. ولماذا هي ممكنة في حين يستحيل غيرها ؟..

ولذلك هو يدرس ــ المقولات (٢) ــ (ما هو ، كيف ، متى ، أين !..) ويعتبر المقولة :ــ مجموعة المقادير الممكن أدخالها في موضع معين من السلسلة اللغوية (٣) .ــ

والسلسلة اللغوية في نظره هي النص الذي يخضع للتحليل ؛ وكل نص يحلل حسب نموذج من العلاقات ، مما يتيح تحديد اللغة بأنها ــ بنية تقوم عناصر كل مقولة بالتبادلات فيما بينها ، ضمنها (٤) .

---

(١) دروس في علم اللغة العام ، ط ٢ ، ص ٢٦

(٢) وسبق لبنفنيست أن نوه بأن مقولات أرسطاليس تفكير في اللغة الموضوعة تحت التصرف ..

(٣) و (٤) اللسان ، ص ١٢٩ ، وص ١٣٥ .

. ان دراسة أحوال اللغة يمكن أن تعلمنا عن التحولات ؛ ولذلك هو يدرس الاستعمالات، ويطمح في نموذجية بنيوية حقيقية ..

سابير : وفي رأي سابير أن البنية اللغوية بنية لاعقلية ، ولا شعورية في طبيعتها .. إن (اللغة) ليست مقالة حول الفكر ، إنها قول البنية عينها ، لأنها تصل بين العناصر الرمزية للوجدان (١) .. (اللغة ١٩٢١) .

ان واقع النطق هو التصنيف ، هو الهيئة الصورية ، هو العلاقة بين المفاهيم .. ان المفاهيم في نظره مشخصة ، وليست فقط مجردة ..

ان سابير يدخل في حسابه موضوع (المختلف) ، بحيث يصبح علم اللغة مجزءاً أيما تجزؤ .. أن ما يهمه هو بلوغ الركائز اللغوية نفسها ، ولذلك هو يعالج لغة الاتصال اليومي ، والعلم ، والأدب ، والفن كافة ..

جان ديبوا : يحاول وصف العناصر اللغوية ، من حيث قابليتها التآلف ، أي دراسة محيط قطاع لغوي ما .. ولذلك هو يقترب من التحليل البنيوي ، والذي في نظره يلتقي مع نظرية التواصل ..

التواصل يفترض مرسلا ومستقبلا ، وعمليتين معقدتين لامتناظرتين هما الترميز ، وفك الرموز ..

الترميز يمثل المتكلم ، وفك الرموز المؤول .. الأمر الذي يتيح لعناصر الترسيمات والمدونات أن تتحرك حركتها .

ان الضجيج يعرقل التواصل ، ويسمح للأطناب بالظهور ، ومن مظاهره صيغة الجمع .. وقد أظهر (ديبوا) قيمة (العدد) كعامل جوهري في القواعد البنيوية ، وان اللغة الفرنسية ليس فيها غير المفرد ، والجمع (٣) ..

---

(١) وسوف يقوم فوكو بشرح هذه القضية في كتابه الكلمات والأشياء .

(٢) وهي طريقة هاريس التوزيعية التي ترى أن اللغة جسم تام متجانس ، وأن وصف العناصر يكون بوضعها في سلسلة من الكلام .

(٣) القواعد البنيوية للغة الفرنسية ، لاروس ، ويرجع إلى عام ١٩٦٥ .

اللغة المحكية واللغة المكتوبة تظلان تتمتعان باستقلال ، وتعمل كل منهما عملا غير متماثل في اتجاه اعلامي ..

ان اللغة المحكية أقل عهداً من اللغة المكتوبة بفواصل الألفاظ ؛ والجملة هي التي توزع العلامات ، لا اللفظ ..

غريماس : يرى أن العلاقة بين الدال والمدلول تنطبق مع مفهوم البنية ، والموقف في ذلك ظواهري ، ولكنه يؤثر عليه الوضعية .

واللفظ موضوع علم الدلالات يحد بأنه مجموعة جسيمات صوتية (Sémee) ولذلك هو جسم مفرد (Lexème) . ولا يشكل جزءاً من البنية الأولية ..

يقول غريماس ان التعريف الصحيح للبنية أذن هو انها – حال وجود الدلالة الذي تميزه العلاقة الحيوية بين وحدتين دلاليتين(١) . –

ولذلك يحلل (المكانية) فيجد أنها ترسيمة من أبعاد ، ولا أبعاد ؛ في (الأبعاد) العمودية وتحتها المرتفع والمنخفض ، والأفقية وتحتها الجانبية والمنظورية ، وتحتها السعة والضيق الطول والقصر .. ثم في (اللاأبعاد) يجد الحجم والمساحة وتحت الأول السمك والرقة ، وتحت الثانية السعة والضيق ..

إن مثل هذه التحليلات يسمح بتبيان التنظيم في مجال اللغة .. وأما أصل الكلمات فيرد في نظره إلى تكوينها ، وأيضاً إلى تطورها ..

بنفنسيت : يرى أن اللغة تتعلق في الأساس بالخبرة الإنسانية .. أن كل إنسان يضع ذاته في فرديته على أنه (أنا) بالنسبة إلى أنت ، وهو ..

تلك هي البنية الحقيقية التقابل في المقالة (٢) .. وهي تتبدى لنا في تعقيدها عند تحليل أزمنة الأفعال ، زمن العالم ، زمن التقويم ، زمننا ، فتدخل بذلك منظومة جديدة من الاحالات تعطي الزمن اللغوي نوعاً من الأصالة ..

ان الزمن الوحيد في المقالة ، في نظره ، هو الحاضر ، ثم ينقسم ضمن نوعه الخاص ، فيصير لعالم الناس ، وذواتهم زمانه ، وحدوده ، وأبعاده ..

---

(١) علم الدلالة البنيوي ، لاروس ، ص ٢٧ ..

(٢) مسائل اللغة ، بقلم فئة من الأساتذة ، ويرجع إلى عام ١٩٦٦ .

وأخيراً (تشومسكي) يرى أن اللغة خلاقة ، ويتجه بعلم اللغة إلى علم قواعد توليدي ، يبدأ من الجملة ، ومن المسألة التي يطرحها إنشاء جمل جديدة (١) ..

ويقول :- قد يكون مفيداً أن تتصور علم قواعد للغة ما ، نظرية في جمل تلك اللغة.. وأن تعتبر مسألة الطريقة في علم اللغة تقوم على إنشاء نظرية عامة في البنية اللغوية (٢) .-

* * *

أمثلة من كلود ليفي شتراوس :

ينطلق شتراوس في كتابه : - البنى الأولية للقرابة - ١٩٤٨ من فكرة التقابل بين الطبيعة والثقافة ، فيقرر أن ليس من أنسان على الفطرة ، وأن الطبيعة معطى يستحوذه الإنسان ثقافة . . أن الكلي في الإنسان يعود إلى الطبيعة ، في حين أن الثقافة جزئية ، ونسبية .

وتحريم السفاح هو - العملية التي بها تتجاوز الطبيعة نفسها ، فتشكل الشرارة التي تتشكل تحت تأثيرها (بنية) من نوع جديد أكثر تعقيداً ، تنضد على البنى الحيوانية الأبسط منها ، تتضمنها ، تعمل ، وتشكل بذاتها قيام نظام جديد(٣) . -

أن واقعاً طبيعياً ، هو قرابة الدم قد حل محله (واقع ثقافي) هو العهد ، والزواج من طبقات معينة من الناس .

الزواج يظهر طابعاً ينسبه (دوسوسور) إلى الألفاظ ، وهو التعسف : بمعنى أنه مفروض على الناس اصطلاحاً . . الأمر الذي يدل على أن (القاعدة) كتنظيم ليست من فئة الطبيعة ، وتعسفها ، وأنما هي من فئة الثقافة ، لأنها قانون يحل التنظيم محل المصادفة . .

ومن حيث أن القرابة منظومة تواصل ، فيمكن تشبيهها باللغة - . . إن اللغة هي المنظومة الدلالية المثل ، أنها لايمكن ألا أن تدل ، ووجودها قائم بكامله على الدلالة (٤) -..

---

(١) البنى التنظيمية للغة ، موتون ، ويرجع إلى عام ١٩٦٤ .

(٢) من مقال علم القواعد التحويلي عند روويت ، لغات ، العدد ٧ ، ديسمبر ١٩٦٦ .

(٣) البنى الأولية للقرابة ، ص ٣١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

ومنظومة القرابة لسان ، – . . ولكنها ليست لساناً كلياً ، ويمكن أن يفضل عليها وسائل أخرى للقول ، والعمل . – أن منظومة القرابة تماثل أقرب إلى اللغة ، لأنها مثلها – منظومة من التصورات ، وليست نمواً عضوياً لوضع قائم في الواقع(١) . –

بيد أن هذا التماثل لا يظهر إلا إذا نظمناه انطلاقاً من الخصائص التي تجعله ارتباط قرابة ، وليس نمطاً عضوياً . .

رذلك لأن قواعد الزواج – تمثل وجوهاً من تأمين تبادل النساء داخل الفئة الأجتماعية يعني منظومة من العلاقات الدموية العضوية تبدل بمنظومة قرابة اجتماعية(٢) . –

وعلى هذا الاساس تجعل القواعد من القرابة – شبه لسان – ، أي مجموعة من العمليات الرامية إلى تأمين نمط من أنماط التواصل بين الأفراد ، والفئات . .

وإذا كان الأرسال هنا مكوناً من نساء الفئة التي تتبادلها العشائر والاسر (بدلا من أن يكون كا في اللسان مكوناً من الفاظ الفئة التي يتداولها الافراد) ، فأن هذا الفرق لايعطل شيئاً في وحدة الظاهرة في كلتا الحالتين .

ويضيف شتراوس : – لايجب كا في حالة تبادل النساء ، أن نطلب الاندفاعة الأصلية التي ارغمت البشر على تبادل الكلام ، في تصور ازدواجي ناتج عن الوظيفة الرمزية عند بدء ظهورها. إذ حالما يدرك موضوع صوتي على أن لقيمة مباشرة للمتكلم والسامع في آن واحد يكتسب طبيعة متناقضة ، ولا يمكن رفع التناقض منها الا بتبادل قيم بعضها ببعض ؛ وجميع الحياة الاجتماعية تنحل إلى هذا التبادل(٣) . –

* * *

أما كتاب : – النيء والمطبوخ – باريز ١٩٦٤ ، وهو في التحليل البنيوي للأساطير الأميركية الجنوبية ، ويعبر عن مقتضى جديد ، وهو أن الاسطورة تستمد دلالتها من الموضع الذي تشغله بالنسبة لأساطير أخرى ، داخل زمرة من التحولات .

---

(١) من نفس المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

(٣) نفس المصدر المذكور ، ص ٧١ .

والكتاب يضم مئة وسبعاً وثمانين (١٨٧) أسطورة متنوعة ، تعود إلى عشرين قبيلة ، بعضها يقطن اميركا الشمالية . . والاسطورة الاساسية فيها أسطورة بوروورية عن مغامرات بطل مسافح ، ومطارد ؛ هذه الأساطير ، في نظر شتراوس ، تشرح نشأة (طبخ الأطعمة) على الرغم من غياب هذا الباعث عن الأسطورة . .

إن أسطورة البوروروتعكس أساطير أقوام مجاورة ، يرون في عمليات الطهي نشاطات توسط بين السماء والأرض ، الحياة والموت ، الطبيعة والمجتمع (١) .

وكعادته يقوم شتراوس بسلسلة من الجولات في زمر التحولات ، يعيد إنشاء منظومتها الكلية ، المتعددة الأبعاد .. ويظهر كيف سلم (الجاغوار) سيد النار للبشر النار ، وكيف أعطاهم الفنون والحضارة . .

الموت في هذه الأساطير يعزى إلى إزدراد ساريغ (شيء نتن) مشوي ؛ وقصر الحياة ـ ينسب أما الى استجابة لنداء الحطب المهترئ ، وأما إلى استنشاق رائحة النتن الصادرة عن الأرواح المائية ، وأما إلى ابتلاع لحم الساريغ(٢) . ـ

أننا نجد موضوع قصر الحياة في أساطير الخ المتعلقة بأصل النار ، وفي منظومة موازية لها تتعلق بأصل النباتات المزروعة .

أن حياة الإنسان قصرت بسبب نسيان وصايا (الجاغوار) سيد النار عن الاستسلام إلى أغراء النداء العذب الذي يطلقه الحطب المهترئ ، في حين لم تكن تحظر الاستجابة إلى نداء الصخر ، والحطب القاسي . . ويعلق شتراوس على ذلك بأن ـ الطبخ يعني حقاً الأصغاء إلى نداء الحطب المهترئ (٣) ـ ، باعتبار أن الحطب اليابس يغذي نار الطبخ . .

ويلاحظ شتراوس الارتباط المشترك لجميع الروايات بين طهي الأطعمة ، وبين الأصوات ، أي المدونة الحسية السمعية . . أن النار المنزلية ، وهي توسط بين الشمس والأرض تقتضي الصمت ؛ والأصوات تهدد بانفصام بينهما ، أي الكسوف ، وتقول بعض الأساطير أن الشمس لو ابتعدت عن الأرض لاحترق العالم ، ولو اقتربت لاحترق .

---

(١) النيء والمطبوخ ؛ ص ٧٣ .

(٢) النيء والمطبوخ أيضاً ؛ ص ١٨٦

(٣) النيء والمطبوخ ؛ ص ١٥٩

أن فك الرموز كما نلاحظ يعتمد على المدونات الحسية المختلفة ، وخاصة السمعية . . والتحليل البنيوي إذ يذيب ما هو تطوري في ما هو تزامني ، يحاول التغلب على التناقض الذي بين عصر انقضى ، وبنية دائمة . .

مناقشات ، وردود . .

ومن حسن الحظ أن هذه المحاولات العلمية في علم اللغات ، وعلم الأجناس والشعوب ، تصدى لها نفر من رواد الفكر ، وأظهروا حدودها ، والأسس التي ترتكز إليها في منهجيتها وفلسفتها . .

بول ريكير : فند بول ريكير معظم مؤلفات شتراوس ، وخاصة – الفكر المتوحش – ١٩٦٢ ، وأظهر أن بنيوية شتراوس هي (كانتية بدون ذات متعالية) ، أو أنها (صورية مطلقة) تريد أن تؤسس العلاقة المتضايفة بين الطبيعة والثقافة(١) .

الموضوع الذي كان يشغل بال ريكير هو أن رموز الفكر التوراتي التي درسها في كتابه : – رمزية الشر – ، مثل أسطورة الخلق ، والسقوط مبنية على طبقة رمزية أولى ، لاتستنفد معانيها في ترتيبات مماثلة للترتيبات الاجتماعية ؛ وأن الطريقة البنيوية لا تستنفد معنى تلك الرموز والأساطير ، لأن معناها احتياطي ، وجاهز لأن يستعمل من جديد في بنى أخرى . .

إذ تصبح (الرسالة) بوصفها نموذجاً طرفاً آخر ، ولها زمنية تنظمها الاستعادة للمعنى عبر تقليد مفسر . . أن غنى هذا الرصيد الرمزي لا يظهر إلا في التطور التاريخي ، في حين أن النظرة التزامنية لاتدرك غير وظيفة اجتماعية حالية للأسطورة .

ولذلك راح ريكير يؤكد على المعنى ، وعلى استعادة المعنى . . . ورأى أن الشرح البنيوي يظهر بدون بواق تقريباً حين يبرز تغلب التزامن على التطور التاريخي ، أو الزمني ؛

---

(١) البنية والتفسيرية ، مجلة فكر ، أيلول ١٩٦٣ ؛ كما تجد في كتاب – البنيوية – لجان ماري أوزياس ترجمة ميخائيل مخول ، البنية والتفسيرية (ص ٢٢٣ – ٢٦٧) ، والبنية ، والكلمة ، والحادثة (ص ٣٠٣ – ٣٣١) .

وإذا أراد أن يتطرق إلى مضمون يثير التفكير ، ولا يتوضح إلا في سلسلة الاستعادات ، لايقدم سوى هيكل عظمي يغلب عليه طابع التجريد . .

كما لاحظ بالنسبة للترتيب اللاشعوري في البنيوية ، أن ترتيباً موضوعاً في حالة (لا شعورية) لا يمكن أبداً أن يكون غير مرحلة مفصولة عن فهم الذات لذاتها . . لأن الترتيب في ذاته هو الفكر خارج ذاته . .

ثم يؤكد أنه إذا لم يكن فك المدونة مرحلة موضوعية لقراءة الغوامض ، وقراءة الغوامض لاحقاً وجودياً ، أو بعداً وجودياً للموجود ، لفهم الذات والوجود ، يبقى (الفكر البنيوي) فكراً لايعي ذاته . .

ثم يلخص تباين الشرح البنيوي عن التفسيرية ، بأن (الشرح البنيوي) ينصب: ١ – على منظومة لاشعورية . ، ٢ – مؤلفة من اختلافات ، وتقابلات ، أي تفاوتات دلالية ، ٣ – وتكونها هذا مستقل عن الملاحظ . .

في حين أن (تفسير) المعنى المنقول يقوم ١ – على استعادة واعية ، ٢ – لرصيد رمزي مشبع ، ٣ – على يد مترجم يقف في الحقل الدلالي لما يفهمه ، ويدخل بذلك في الدائرة التفسيرية . .

* * *

وفي الندوة(١) التي أقامها الفريق الفلسفي لمجلة فكر ، في حزيران ١٩٦٣ ، لمناقشة كتاب : – الفكر المتوحش – ، وحضرها شتراوس نفسه ، أجاب (شتراوس) على المآخذ الذي يأخذه ريكير عليه ، من أنه لم يخضع الكتاب المقدس ، والتقليد الهلنستي ، وعدد آخر من التقاليد لقوانين الفكر المتوحش ، بأن غيره حاول ذلك دون طائل ، في حين هو لا يقدم على مثل هذا المشروع لتعذر البحث العلمي فيه . .

أن دراسة البواقي الأسطورية العتيقة لهذه الموضوعات يجعل رموزها بحاجة إلى تفسير .. وهذا التفسير لا يستقيم في نظره إلا بالنسبة لموضع هذه الرموز في السياق الأثنوغرافي الذي

---

(١) نشرت مجلة فكر هذه المناقشة في عدد تشرين الثاني ١٩٦٣ ؛ وتجد في كتاب البنيوية ، السابق الذكر اختزالا لها (ص ٢٦٩ – ٣٠٣) ..

أنتجها ؛ ومن حيث أن السياق الأثنوغرافي لهذه الموضوعات مفقود تماماً ، تعذر البحث فيها، إذ ليس لدينا عنها إلا ما نجده في النصوص الكتابية ، وهي محورة عن أصولها . .

وأما (ريكير) فبعد أن نوه بظفر البنيوية السهل في مدى جغرافي ، وثقافي محدود ، سأله عن وحدة الفكر الاسطوري ، وامكان وجود صيغ أخرى للفكر الأسطوري أقل طواعية للبنيوية . .

فأجاب شتراوس بأن الفكر المتوحش في مفهومه هو محل لقاء ، أو هو حاصل مجهود للتفاهم ، مع استبعاد فكرة أن يكون شيء ما خاصية ذاتية في قسم من البشرية ، نقومه تقويماً مطلقاً . .

وأضاف أن أقحام ريكير للزمانية ، وبالتالي للتاريخ كخاصية ذاتية في بعض أشكال الفكر الأسطوري لا يجعلها وظيفة من وظائف الحضارة الغربية ، ولا طريقة في أنشاء صيرورة هذه الحضارة أنشاء تاريخياً (١) . .

ثم يقول صراحة : أن المشروع الذي يقوم على نقل باطنية خاصة إلى باطنية عامة هو مشروع فاشل سلفاً . . ولذلك حين يقول (ريكير) أن الفكر المتوحش ينحاز إلى علم النحو ضد علم الدلالات فهو فيه بعيد عن الصواب ، إذ لامجال للاختيار ، أو تقوم ثورة في علم الصوت تدل على أن المعنى ينتج عن نماذج غير دالة في ذاتها . .

ولذلك يقول : أن ما ينشده ريكير هو معنى المعنى ، معنى قائم خلف المعنى ، كما هو يدعو إلى ذلك . . في حين أن المعنى ليس ظاهرة أولى أبداً ؛ (المعنى) يقبل دائماً رده إلى شيء آخر . والدلالة هي دائماً من نطاق الظواهر (٢) . .

---

(١) سوف نشرح بعد قليل كيف أن سارتر يلجأ إلى البراكسيس ، وإلى العقل الجدلي ، كي يؤسس مثل هذا الانشاء التاريخي .

(٢) وعندما سأل كوستاس اكسيلوس : أين يبدأ الفكر المتوحش في الزمان والمكان ؟. وفي أية لحظة نستطيع القول بوجود فكر ؟!. أجاب شتراوس ليس ثمة بعد أفكار واضحة عن أصول الإنسانية عند الأنثروبولوجيين ، ولا نزال غير قادرين أن ندرك نظرياً في الصيرورة لحظة بدأ الانسان يفكر . . وربما رجحت الرأي الذي يقدم بدء الفكر على ظهور الإنسان ، البنيوية ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

فرد (ريكير) عليه بأن المقالات الخاصة هي صاحبة المعنى ، أي الأشياء المقولة ، وليس فقط الترتيبات النحوية ، التي يراها الملاحظ من الخارج . . وفي إنشاء علوم إنسانية يجب أن يكون الملاحظ خارج الموضوع ؛ ولكن هل نستطيع أن نتكلم عن المعنى ، واللامعنى إذا لم يكن هذا المعنى مرحلة من مراحل تفكير اساسي ، وعلم وجود اساسي ؟ . .

ويضيف : إذا أنا لم أفهم ذاتي فهما أفضل ، عند أحاطتي بالأساطير ، فهل أستطيع أن أتكلم عن المعنى ؟ ! . والمعنى ، إذا لم يكن جزءاً من فهم الذات ، فأني لا أدري ما هو ! ! .

فيجيب شتراوس : يحق لفيلسوف يضع المسألة في حدود شخصية أن يثير مثل هذا الاعتراض ؛ ولكني لست مجبراً أن أفعل مثله . . أن المعنى في نظري طعم نوعي يدركه الوعي عندما يتذوق مزيجاً من العناصر ، التي لا يستطيع أي منها أن يقدم نظير هذا الطعم ، لو أخذ بمفرده . .

* * *

جان بول سارتر : يرى سارتر في كتابه : — نقد العقل الجدلي — باريز ١٩٦٠ ، أن الوجودية هي (الأنطروبولوجيا) ، وهي تنشد لنفسها أساساً(١) ، وأن هذا الأساس هو الأكتشاف الحاسم للتجربة الجدلية في نظرة ، اكتشاف وساطة متبادلة ، الأنسان وسيط الأشياء ، والأشياء وسيطة الانسان(٢) . .

وذلك بفعل أن البراكسيس الفردية في تعددها مع الفرديات تحقق بالنسبة لكل منها جدلية أولية ، كما تحقق الأنسان خارج ذاته ، والعلائق الموضوعية في داخله . . أنها ، أي البراكسيس حركة أصيلة لأنشاء الكلية ، في وجوه التجربة المشخصة المتعددة ، وأنشاء الكلية هدف الأنطروبولوجيا البنيوية والتاريخية .

ولذلك قبل سارتر بالبنيوية شريطة أن تكون العلاقات التي تنصب عليها التحليلات علاقات جدلية ، أي علاقات تطرحها البراكسيس التي تكون سوتها ، ثم تقوم بتحليلها . .

وتلك هي فكرة سارتر في العقل المكون ، والعقل المكون التي استعارها من أندريه لالاند ، وطبقها على المجال الوجودي والجدلي . . أن العقل يخضع لمعقولية المعرفة من حيث هو مكون بكسر الواو ، ويعرفها من حيث هو مكون بفتح الواو .

---

(١) و (٢) نقد العقل الجدلي ، باريز ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٤ وص ١٦٥ .

إن العقل جدلي بموضوعه ، إنه يعيش حركته وتناقضاته . . إنه جدلي من حيث أنه حركة الواقع . . العقل الجدلي يحرك الثقافة ، ويقيم العلاقات ، والعقل التحليلي يفككها على اعتبار أنها منظومات طبيعية . .

إن الجدلية قانون تجميع يجعل هناك تجمعات وتاريخاً . . والحقائق لاتفرض نفسها على الأفراد ، ولكنها منسوجة بملايين الأفعال الفردية . . البراكسيس وحدهاهي الحقيقة العملية والجدلية ، والفرد شرط أولي ونهائي للمعقولية ، والمعرفة الأنسانية لاتصبح معرفة نظرية ، إلا بعد أن تحقق أصولها كمعرفة عملية(١) . .

البنيوية إذن منطق جدلي ، أوهي منطق الجدل . . ولكن هذا المنطق يحيل إلى فاعل عملي ، هو الإنسان . .

إلا أن (شتراوس) يرفض من جديد هذا الزعم ، لأنه لايعترف بهذا الأنسان ، ولا يعرفه . . والبراكسيس في نظره تستند إلى البنية ، وليس العكس . .

إن الغائية اللاشعورية تفوت في نظره التاريخ البشري تماماً ، رغم كونها تاريخية . . ويقول في اللغة بالذات : — لاتقوم اللغة بالعقل التحليلي الذي عرف به النحاة القدماء ، ولا بالجدل المكون عند علم اللغة البنيوي ، ولا بالجدل المكوِّن بالبراكسيس الفردية في مجابهتها للعملي قصوراً عمليا ، لكون هذه الوجهات الثلاث من النظر تفترض اللغة .

إن علم اللغة يضعنا أمام موجود جدلي مجمل ، لكنه خارج ، أو دون الوعي ، والأرادة؛ فاللغة إذن بوصفها مجملا مستقلا عن العقل ، هي عقل بشري له معقولياته ، وهذه يجهلها الأنسان(٢) . — .

---

(١) وهنا يظهر سارتر كيف أن العلاقات المتجاوزة للتاريخ ، والناتجة مباشرة عن البراكسيس تقوم وجوداً واقعياً قائماً ؛ وان التاريخ الكلي نتج عن تاريخ جزئي بفضل هذه العلاقات العملية ، كما حصل بالنسبة للتاريخ الغربي في علاقته بمجتمعات وتورايخ الشرق الأوسط — وهو تقريباً الموضوع الذي يبحثه ريكير من زاوية النواة الاسطورية للثقافة الغربية —؛ولذلك لابد أن نقف خارج هذه الحركة نعرف كي ماهو الانسان . وما هي انسانيته ؟ وكيف تحققت ملامحها في التاريخ ؟ . .

(٢) (٣) الفكر المتوحش ، باريز ١٩٦٢ ، ص ٣٣٤ و ٣٤١ .

وقد أنكر شتراوس أيضاً الكلية ، أو الجملة الجدلية ، وفي آخر كتابه – الفكر المتوحش – أخذ على سارتر أنه يعتبر هذه الجملة الجدلية هيمنة تاريخية . . – أن تاريخاً بكامله يبطل بنفسه ، لأن حاصل ضربه يساوي صفراً(٣) . –

وفي نظر شتراوس أن للتاريخ مدونة خاصة ، هي جدول الزمن . . أن التاريخ في نظر البنيوي وقائعي تطوري فحسب ؛ إذ أن البنيوي يرى في التاريخ نقاطاً حارة ، وأخرى باردة . . والمدونة التاريخية تقوم على زمرة من التاريخات ، وليس على خطوط تسلسلت خلسة ، لتعيد الاتصال التاريخي . .

وإذن ليس من جملة تاريخية يمكن تحليلها تحليلا جدلياً . . وأنما هناك تواريخ ، لاارتباط لها بالانسان ، تلك الذات التي في رأي البعض يغمرها التاريخ (النظرية الآلية) أو في نظر البعض الآخر تصنع التاريخ (نظرية أهل الجدل) . .

ولذلك أنكر شتراوس أن يستطيع العقل الجدلي أن يشرح نفسه ، أو يشرح العقل التحليلي : – أن العقل التحليلي يجب أن يشرح العقل الجدلي ، في حين هذا لايستطيع أن يشرح نفسه ، ولا أن يشرح العقل التحليلي(١) . –

بينما معقولية العقل الجدلي ، والعقل التحليلي في نظر سارتر واحدة : – أن الجدل يجب أن يكون لذاته معقولية متجاوزة ؛ . . أن العقل الجدلي هومعقولية العقل الوضعي ، التحليلي(٢) . –

اللغة وعلومها في التراث العربي :

إن المحاولات مستمرة اليوم في تأسيس (علم اللغة) في تراثنا العربي الحديث ، وعلى الخصوص في إتجاه تطوير فقه اللغة العربي القديم . . إن تجدد الحياة العربية العمرانية والثقافية يسمح اليوم بمثل هذا التطوير العلمي الأمين . .

---

(١) الفكر المتوحش ، ص ٣٣٥ .

(٢) نقد العقل الجدلي ، ص ١٣٢ و ١٣٦ ؛ وسبق في كتبنا أن عرفنا به ، وناقشنا العديد من مضامينه . .

ولئن فرق دوسوسور بين اللغة ، والمتكلم ، والقدرة على التعبير كما رأينا ، ففتح المجال أمام تبين أصالة الظاهرة اللغوية وتطورها ، سواء ما يتعلق منها بالصوت ، أو بالدلالة ؛ فيمكننا اليوم من أساس علمي تبين أحوال اللغة العربية عند المتكلمين بها ، أو في منظوماتها الصوتية والدلالية المختلفة . .

إن الجهود العربية في (علم اللغة) لاتزال إلى اليوم أولية . . والاشواط التي قطعها علماؤنا ولغويونا في ذلك لازالت عاجزة عن أن تلبي حاجات العلم والحياة الحديثين .. في حين أن علم اللغة الحديث عند الغربيين نهض نهضة علمية مرموقة بفضل المنهج البنيوي والشروح البنيوية ، والتي كما رأينا بلغت حد الترف والبداعة عندهم . .

إن اللغة العربية تحمل من التجربة العربية كثيراً من الوقائع النفسية والاجتماعية والطبيعية ، والتي لا بد من تقري أحوالها ؛ بمنهجية علمية ، وتحليلها بأمانة تامة .

مثل ذلك أن تصريف الأفعال في اللغة العربية يقوم على الأشعار بالذات الفاعلة وأيضاً المتكلمة ، على نحو قولنا : فعلت ، أفعل (أنا) ، فعلت ، تفعل (أنت) ، فعلنا ، نفعل (نحن) ، فعل ، يفعل (هو) ، فعلت ، تفعل (هي) . .

وقديماً لاحظ (ابن جني) على العرب - . تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة ، وذلك لقوة العناية به ، فقدموا دليله ليكون ذلك أمارة لتمكنه عندهم ، وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل ، أو كن دلائل على الفاعلين كيف هم ، وكم عدتهم ، نحو أفعل ، ونفعل ، وتفعل ، ويفعل .(١) -

بينما العديد من اللغات الأجنبية يستعمل حروفاً للدلالة على المتكلم ، هي ضمائر (Je , Tu , Il الخ . .) ثم تتصرف بنهايات الصيغة الدالة على الفعل ، لتدل على زمن الحدث في الماضي ، أو الحاضر ، أو المستقبل . . وهي عندهم ذات لونيات دقيقة تشعر بإنجاز الفعل ، أو استمراره ، أو المضارعة فيه ، مما لايوجد عندنا . .

يضاف إلى ذلك أن الأسناد في لغتنا مباشر ، ضمني ، ولا يعتمد على أفعال الوجود (être) ، أو الملك (Avoir) . . إن الجملة في اللغة العربية إما إسمية أو فعلية .

---

(١) الخصائص ، مصر ١٩١٣ ، ص ٢٣٣ ، جزء أول .

وفي كلتا الحالتين لارابطة غير المعنى تربط بين أجزاء الكلام فيها ، كما أن الأضافة فيها مباشرة بين المضاف والمضاف إليه ؛ ثم يشعر الأعراب بحركاته عن المعنى ، ودلالاته . .

علم اللغة وفقه اللغة :

نثبت هنا تعريف (علي عبد الواحد وافي) لعلم اللغة ، ثم فقه اللغة ، يقول :

— . . عرضنا في كتابنا (علم اللغة) لدراسة النواميس العامة التي تسير عليها اللغات الإنسانية في نشأتها ، وإنتقالها من السلف إلى الخلف ، وتكون مجموعاتها ، وفصائلها ، وصراعها بعضها ببعض ، وانشعاب الأصل الواحد منها إلى شعب ، وفروع ، وتطورها من مختلف الوجوه .(١) —

ثم يقول أن (فقه اللغة) هو بمثابة الجزء الثاني لعلم اللغة ، وأنه يدرس على ضوء حقائقه العامة فصيلة من فصائل اللغات الأنسانية ، هي فصيلة اللغات السامية ، ثم اللغة العربية بالذات فيها . .

وينص علي عبد الواحد وافي ، في كتابه : — علم اللغة — على أن هذا العلم : (يضم ثلاثة موضوعات تمثل أهم مشكلات اللغات ، وتنطوي دراستها على أهم ما تتناول البحوث ، وهي : نشأة اللغة عند الأنسان ، ونشأة اللغة عند الطفل ، ثم حياة اللغة .

وحياة اللغة تضم أموراً كثيرة من أهمها تفرع اللغة إلى لهجات ولغات ونشأة فصائل وشعب لغوية من جراء هذا التفرع ، وصراع اللغة مع لغة أو لغات أخرى ، وتطور اللغة العام ، وتطورها من ناحية أصواتها ، وتطورها من ناحية الدلالة .(٢)) .

وأغراض (علم اللغة) في نظره هي الوقوف على طبيعة الظواهر اللغوية ، والعناصر التي تتألف منها ، والأسس القائمة عليها ، والوظائف التي تؤديها ، والعلاقات التي تربط بعضها ببعض ، وعلى الخصوص بما عداها من الظواهر الاجتماعية والنفسية والتاريخية والجغرافية والطبيعية والفيزيولوجية والبيولوجية والانتروبولوجية ، والكشف عن قوانين ذلك كله(٣).

---

(١) فقه اللغة ، مصر ١٩٤٤ ، ط٢ ، ص ٣ .

(٢) علم اللغة ، مصر ١٩٥٠ ، ط٣ ، ص ٧٣ .

(٣) علم اللغة ، ص ١٤ — ١٥ ، وقد أطرى مجمع فؤاد الأول للغة العربية الكتابين برسالة بعث بها إلى المؤلف بتاريخ ٨ / ٦ / ١٩٤٥ ، ونشرت في علم اللغة ، ط٣ ، ص٣

هذا الاتجاه العلمي الاجتماعي النفسي في دراسة اللغة يجوز مبدئياً أن تطلق عليه مصطلح (علم اللغة) ، شريطة أن لايظل مجرد بحث علمي اجتماعي ، ونفسي ، وبعيداً عن اللغة وأحوال مفرداتها ، ومدوناتها اللغوية المختلفة . .

ناهيك بأن مصطلح (فقه اللغة) ، أي الفيلولوجيا ، والذي كان يدرس اللغة في أدبها وتاريخها ونقد نصوصها ، فيمكن اليوم أن يستمر في مدلول علمي حديث شريطة تطويره ، وتزويده بالمنهجية العلمية ؛ إذ المطلوب هو مضمون البحث اللغوي ، وتطويره . .

وبالفعل أن كتابي :-علم اللغة - ، و - فقه اللغة - لعلي عبدالواحد وافي يحويان على استطرادات في الفيلولوجيا ، وأيضاً علم الأساليب ، وهما بحثان قديمان استغنى عنهما البحث العلمي الحديث ؛ كما أنهما يضمان جداول موسوعية ، وتاريخية عن تطور المعارف والمناهج اللغوية عند العرب ، والأفرنج في ذلك كله ، يمكن أيضاً الاستغناء عنها . .

لنسجل أن علي عبدالواحد وافي ، رغم وضوح موقفه الاجتماعي والنفسي من ظواهر اللغة ، يرفض زعم (دوسوسور) اجتماعية اللغة ، وإنكاره أن تكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر في شؤونها . .

وموقفه هذا يشبه موقف أستاذه (هنري دي لاكروا) الذي أفرد الفصل الثاني ، من كتابه :- اللغة والفكر - الرد على دوسوسور ، كما رد عليه من اللغويين العالم دوزا في كتابه :- فلسفة اللغة -.

ان اللغة في نظر علي عبدالواحد وافي تخضع لشتى الظواهر المادية والمعنوية التي للبيئة والمحيط ، والظروف النفسية والحضارية والتاريخية المختلفة ؛ ويتسع علم اللغة في نظره لبحث ذلك كله .. ومع ذلك فقد خص اجتماعية اللغة بكتاب ، هو :- اللغة والمجتمع - ، مصر ١٩٤٦ ، كما درس نشأة اللغة عند الانسان ، والطفل في كتاب يحمل نفس العنوان ، مصر ١٩٤٧ .

مناسبة الحروف لمعانيها :

من أبرز البحوث اللغوية في (فقه اللغة) العربي القديم ، مناسبة الحروف لمعانيها ، أي كون الحرف يدل على معنى ، وهو بحث شغل ولا يزال يشغل اللغويين شغلا كبيراً . .

(ابن جني) يرى أن العرب جعلوا الصاد في (صعد) لأنها أقوى ، كما جعلوا السين (سعد) لضعفها ، الصعود في الجبل أو الحائط يشاهد بالحس ، في حين صعود الجد لايشاهد بالحس (١) ..

كما أنه يرى أن ازدحام الدال ، والتاء ، والطاء ، والراء ، واللام ، والنون إذا مازجتهن الفاء على التقديم أو التأخير ، فأكثر أحوالها ، ومجموع معانيها ، أنها للوهن والضعف ، ونحوهما ، كما في تالف ، ودالف ، ودنف ، وفاتر وغيرها (٢) ..

وبعد أن ينوه بالقيمة التعبيرية التي للحرف أذا وقع في اول الكلمة ، أو وسطها ،أوآخرها يقول :- أن في تقديم ما يضاهي أول الحدث ، وتأخير ما يضاهي آخره ، وتوسط ما يضاهي أوسطه سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب .-

فهل نفهم من هذا النص أن العملية لاشعورية ، هي سوق للحروف على سمت المعنى !. المناسبة بين الحروف ومعانيها تصبح اتفاقاً بعدياً ، أي نلاحظه بعد حدوث تجربته !.

إذا كان الأمر كذلك فالمناسبة ظلت بدون تعليل ، أو تفسير .. وبالفعل يضطر ابن جني إلى الاستعانة بالنظريات ، فينوه بأن البعض يرى أن أصل اللغات انما هو من الأصوات المسموعات ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد(٣) .

كما يورد رأي الخليل وسيبويه في الموضوع ؛ قال (الخليل) : كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا صر ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا صرصر . وقال (سيبويه) في المصادر التي جاءت على الفعلان أنها تأتي للاضطراب والحركة ، نحو النقزان ، الوثب ، والغثيان ، والغليان(٤) ..

ثم يذكر انه وجد من هذا الحديث أشياء كثيرة ، كالمصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير ، نحو الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، وغيرها ، وصيغة (فعلى) في المصادر والصفات تأتي للسرعة ، نحو امرأة بشكى ، خفيفة ،سريعة ، دابة حجزى سريعة (٥) الخ .

وهكذا نعود إلى التجربة الواقعية من أجل ربط الظاهرة اللغوية حروفها ، وكلماتها ،

---

(١) الخصائص ، جـ١ ، ص ٥٥٣ .

(٢) الخصائص ، جـ١ ، ص ٥٥٧ — ٥٥٨ .

(٣)و(٤)و(٥) الخصائص ، السابق الذكر ، ص ٥٤٤ .

ودلالاتها بالاستعمال،والاصطلاح .. والمعتزلي عباد الصيمري لايعدو هذا المعنى حين يقول :
— ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، قال ، وألا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح(١) ..—

وقد اهتم (.زكي الأرسوزي) بموضوعية الحدس ، في اتجاه عقلاني حيوي ؛ فوجد أن اللغة مثال فريد على التكامل بين المحسوس ، والمفهوم في بدوز المعنى ، والذي هو في نهاية الأمر شيء من أرادة الحياة ..

قال :— أن الكلمة العربية تتألف من صورة صوتية ، ومن خيال مرئي ، ومن معنى هو قوام تآلفهما . أنه إلى تكوين الكلمة العربية هذا يرجع الطابع البدء للرابطة الاشتقاقية في لساننا . فإذا كان المعنى يؤلف بين الصورة الصوتية ، والخيال المرئي في الكلمة ، فإن الحدس المنطوي في المصدر هو أيضاً قوام الرابطة بين المفاهيم العقلية ، والدلالات الحسية(٢).—

ان موقف زكي الأرسوزي من موضوع المناسبة الطبيعية بين الحروف ومعانيها ، يتميز بأنه يربط القيمة البيانية للحرف بمنظومة الكلمة الصوتية ، قال :

— يتمتع الحرف العربي بقيمة بيانية ، وان تحددت هذه القيمة بمنظومة الكلمة الصوتية ، إلا أن بعض الحروف يقوم في هذه المنظومة بمثابة نبرة الأيقاع في تعيين بيان معنى الكلمة ؛ ويفي الحرف الأول من الكلمة على الأغلب بهذه الوظيفة(٣) .—

ثم انه يربط الكلمات ، وصورها الصوتية بتجربة الحياة ، وتطورها .. حتى انه يخضع أصوات الحروف للارادة ؛ أي ارادة المتكلم ، وفي ذلك يقول :

— ان العبقرية العربية قد استندت في انشاء أداة بيانها إلى المداد (الايقاع) المنطوي في الصور الذهنية ، وإلى تعديل (تقويم) مظاهر الحياة المختلفة بالصوت الذي هو طوع إرداتها ، وبالرؤية التي هي ذات تلون ودقة .

(١) المزهر ، للسيوطي جـ١ ، ص ٤٧ .
(٢) المؤلفات الكاملة ، المجلد الأول ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٥١ . وانظر أيضاً ص ٢٣٥ . حيث يعيد التعاريف في شروح جديدة .
(٣) نفس المجلد ، ص ٨٦ .

وهل يختلف نهج العبقرية العربية هذا عن نهج الحياة ، اذ هي تعدل حركة الفم العضلية بالصوت ، والصوت بالرؤية ، متنقلة بهذا التعديل إلى مداد آخذ بالدقة ، مداد تقتصد به الجهد اللازم لانشاء درجات صعودها نحو الـسانية متكاملة ؟.

ان اللسان العربي ، بمبدئه (المعنى) ، وبتجلياته (الأصوات) هو على غرار البدن تجربة سحرية تامية أبداً ، جذورها في الملأ الأعلى ، وتجلياتها في الطبيعة(١) .

ان الكلمة العربية بصورتها ، وبما تنطوي عليه من معنى – تعبر عن تجلي بنيان الأمة في برهة من تطورها . وما اللسان العربي الا منظومة صوتية تتجاوب فيها هذه التجليات ، وهو يعكس صورتها ، ويتبع مصيرها(٢) .–

ومن أساس تبين عناصر البنيان النفسي ، والبنيان الاجتماعي ، والتطور التاريخي حلل الضمائر ، وظروف الزمان والمكان ، وصيغ التصغير ، والجمع ، والآلة ، والعديد من الكلمات الدالة على مواقف وجدانية وفكرية ووجودية مختلفة(٣) .. ناهيك بأنه رأى في الكشف عن مغزى القواعد النحوية ، مغزى تتضح فيه العقلية العربية ، ومراميها في الحياة(٤)..

واما ثبات الأصوات العربية ، وهو رأي محمد المبارك ، في كتابه :– فقه اللغة – ، دمشق ١٩٦٠ ، وتبعه في ذلك صبحي الصالح ، في كتابه :– دراسات في فقه اللغة – بيروت ١٩٦٢ ، فؤداه ان الكلمة العربية ذات أصوات تومىء إلى مدلولها ، وان هذه الأصوات ذات انساب لغوية معروفة ، وان القرآن الكريم بإيجاب ترتيله على نحو خاص كان السبب الجوهري في احتفاظ اللغة العربية بأصواتها ثابتة ، وانسابها صريحة ، وحروفها واضحة .

وأظن أن هذا الرأي مجرد حماسة للغة العربية ، ولا ينطبق الا على المدونات المعجمية ، بدليل أن ظاهرة الابدال ظلت تلازم عصور اللغة العربية وآدابها .. وان استعمال العامية أمس واليوم سواء في الأزجال ، أو في الشعر على اختلاف أنواعه يكشف لنا عن تبدل الأصوات في الكلمات العربية ..

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٢) نفس المجلد ، ص ١٢٦ .

(٣) المرجع المذكور ، ص ١٠٩ وما بعدها ، وص ١٥٠ وما بعدها .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٦٠ ، وص ٣٧٠

وقد أظهر علي عبدالواحد وافي في العديد من كتبه تطور الأصوات العربية ، ونص على حالات هذا التطور في اللهجات واللغات المحلية والعامية(١)..

مثالية وحضور جواني :

أصدر الدكتور (عثمان أمين) منذ عهد ليس ببعيد كتاباً في سلسلة المكتبة الثقافية ، في القاهرة ، العدد ١٤٤ نوفمبر ١٩٦٥ بعنوان :– فلسفة اللغة العربية – ، حاول فيه التدليل على الطابع الجواني للغة العربية .. فزعم أن اللغة العربية تحقق المثالية العقلانية ، والحضور الجواني ، وان الصدارة فيها للمعاني ؛ قال :

– هذه المثالية التي هي أصيلة في اللغة العربية أنما عبر عنها ديكارت بما اصطلح على تسميته بالكوجيتو الديكارتي ، وعبر عنها كانط فيما سماه بالثورة الكوبرنيقية ؛ ومعناهما أصلا ان الفكر هو المقياس الذي تقاس به الأشياء ، وان (عالم الاعيان) أي العالم المحسوس مقدود على قد (عالم الأذهان) أي عالم الوجدان .

وليس من شك لدى الباحثين في قضايا الفكر العربي أن هذه القضية بالذات قد انعقد لها لواء النصر ، لاعند فلاسفة العربية وحدهم ، كالفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، بل عند علماء الكلام كالنظام ، والخياط ، والجاحظ(٢) .–

وعلى الرغم من الفروق الشاسعة بين الفلسفة العربية الإسلامية ، وفلسفة ديكارت أو كانط – ناهيك بأن ابن رشد وهو ارسطاليسي النزعة يفترق كلياً عن الفارابي ، وابن سينا القائلين بالفيض عن العقل الأول – فأن عثمان أمين لايشرح كيف أن عالم الأعيان مقدود على قد عالم الأذهان . كما أنه لايبين أثر ذلك على اللغة ، مفرداتها ودلالاتها ..

ونحن نذكر أن أفلاطون الذي ميز الواقع عن المثال ، أظهر كيف أنه لاتوجد (لغة طبيعية) تعطي عن الموجودات صورة مثل الأصل ؛ كما انه رفض أن يعترف بأن اللغة ، هي فقط (لغة اصطلاحية) ، لأنه تظل فيها عناصر طبيعية .. ولكن عثمان أمين لا يوضح شيئاً من

(١) انظر فقه اللغة ، ط٢ ، مصر ١٩٤٤ ، ص ١١٤ – ١٢٠ ، واللغة والمجتمع ، مصر ١٩٤٦ ، ص ٦٠ – ٧٦ .

(٢) فلسفة اللغة العربية ، مصر ١٩٦٥ ، ص ٣٠ .

ذلك ، وينتقل إلى دليل نقلي غير واضح ، وضعيف ، يورده ، ويحمله محملا أفلاطونياً صريحاً في مثاليته ، قال :

– فإذا رجعنا إلى تأمل هذه الفكرة في فلسفة اللغة العربية وجدنا غالب الرأي عند علماء اللغة قد عبر عنه صاحب الطراز ، في قوله : (ان الحقيقة في وضع الألفاظ إنما هو للدلالة على المعاني الذهنية دون الموجودات الخارجية)(١) .–

ولا أحد من اللغويين القدامى قال بمثل هذا الكلام غير الواضح ، والذي لايجوز أن يعبر عن آرائهم ؛ على العكس كانوا يقولون أن الألفاظ منها ما يدل على ما يشاهد بالحس ، ومنها ما يدل على الوجدانات ، والمعاني كما رأينا ، ،.. ولكن صاحب الطراز يحاول التدليل على فكرته الخاطئة ، فيقول :

– إننا إذا رأينا شبحاً من بعيد ، وظنناه حجراً سميناه بهذا الاسم ، فإذا دنونا منه وظنناه شجراً فإنا نسميه كذلك ، فإذا ازداد التحقيق بأنه طائر سميناه كذلك ، فإذا حصل التحقيق بأنه رجل سميناه به . فلا تزال الألقاب تختلف عليه باعتبار ما يفهم منه من الصور الذهنية ، فدل ذلك على أن اطلاق الألفاظ إنما يكون باعتبار ما يحصل في الذهن ؛ ولهذا فإنه يختلف باختلافه(٢) .–

إلا أن هذا الدليل دليل عليه ، وليس له ، ويوضح أثر التجربة الواقعة في الذهن ، أكثر مما يدل على أثر العالم العقلي في مفردات اللغة ، أو أيضاً في الدلالات ووضعها ..

ويستمر عثمان أمين في النقل ، فيقول : – وينتهي صاحب الطراز إلى تأكيد ما نحن بسبيله ، وهو المعنى الذي أشرنا اليه في مذاهب كبار الفلاسفة من قدماء ومحدثين ، من أن تصور الأشياء في الذهن هو المرتبة الأولى في تحققها وثبوتها ، فيقول : (الأشياء في التحقق والثبوت على مراتب أربع : الأولى منها تحققها في الذهن وتصورها . وهذه الرتبة هي الأصل ، وعليها تترتب الوجودات الأخر ، لأن الشيء إذا لم يكن له تصور في الذهن وتحقق فإنه لايمكن وجوده في الخارج بحال) – الخ(٣) ..

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣١ ، نقلا عن الطراز ليحيى اليمني ، مصر ١٩١٤ ، ح ١ ص ٣٦ .

(٢) فلسفة اللغة العربية ، ص ٣١ ، عن الطراز ، ص ٣٦ .

(٣) المرجع المذكور ، ص ٣١ – ٣٢ ، عن الطراز ، ص ١١٢ – ١٢٣ .

وقد عاد (عثمان أمين) إلى نفس الفكرة في اتجاه مثالي متطرف ، فقال :

– ان الكينونة تبعاً لمنطق اللغة العربية هو الوجود الذهني ، والوجود الذهني متضمن في كل قضية صادقة كانت أو كاذبة . ومن أجل ذلك وجدت اللغة العربية من نافلة القول أن تؤكد على هذا الوجود بفعل الكينونة (الذي ليس في الحقيقة فعلا) : فهذه اللغة ترى أن كل ما يعرض الذهن ، كل فكر كائن ؛ وهذا يصير بديهياً لمجرد كونه مفكراً فيه ، وها هنا مزية الذهن على المادة(١) .–

والعكس تماماً هو الصحيح ، على الخصوص أن سبيل العرب إلى (عالم الأذهان) سواء عند القائلين بالفيض ، أو القائلين باتحاد الصورة والمادة ، هو المنطق الأرسطاليسي الذي يرقى من المحسوسات إلى الأفكار ..

وكان أولى بعثمان أمين أن يوضح لنا ما يسميه بالحدس الديكارتي ، أو الشروط الكانطية للتجربة ، وأثر ذلك كله في اللغة ، مفرداتها ، ودلالاتها .. في حين رأينا كيف أن (زكي الأرسوزي) يربط الحدس العربي ببداهته ، وتجلياته ، بربطه بينهما والعه النفسي ، والاجتماعي والتاريخي ، يربطه بالمعنى ، وإرادة الحياة ، بالملأ الأعلى والطبيعة كافة .–

يقول زكي (الأرسوزي) :– ان الأمة العربية التي اختارت بنيتها وفقاً لغايتها من الوجود قد اصطنعت هذه الصورة الصوتية المرئية ، مستندة على تعادل مدادها ، لتحقق بها هذه البنية (وبذلك تتضح حكمة أن الأسماء تنزل من السماء) فحدت بذلك من شطط الخيال الشخصي ، كما جهزت بدن الفرد بالغرائز فعينت له تعادل حاجاته ، وأنشأت كذلك كافة مؤسساتها (الأخلاق ، اللغة ، الفن) على ضوء هذه البنية تحقيقاً لها ، وبالانسجام مع تلك الغرائز(٢) .–

ولكن (عثمان أمين) لايوضح شيئاً من ذلك ويقفز إلى (الحضور الجواني) والذي يقصد في مصطلحه حضور عالم الروح ، أو العقل ، أو الوجود الذهني ؛ قال :

– تمتاز العربية بخاصية فريدة بين اللغات الحية ، وأعني بها خاصية ما سميته باسم (الحضور الجواني) للآنية الواعية . ومعنى هذا أن (الذات العارفة) أو الأنام المفكرة ماثلة في كل قضية صيغت صياغة عربية ، وحضورها حضور روحي داخلي يسري في الضمائر ، والأفعال

(١) نفس المرجع ، ص ١٠١ .

(٢) المؤلفات الكاملة ، المجلد الأول ، ص ١٠٨ ، وأنظر أيضاً ص ١٧٧ مقارنات في ذلك ..

الداخلية ، في بنية الألفاظ ، دون حاجة إلى اثباتها بالوسائل الخارجية كالرموز ، والعلامات الظاهرة(١) .–

وأقول اما أن تكون اللغة العربية تشعر بالذات الفاعلة ، وأيضاً المتكلمة كما رأينا فشيء ؛ وأما أن تكون الذات العارفة ، والأنا المفكرة ماثلة في كل قضية صيغت صياغة عربية كما هو يقول ، فشيء آخر .. وذلك أن هذا التعميم غير صحيح ، بدليل أمرين :

أولهما : وجود صيغة المبني للمجهول ، في اللغة العربية ، والتي تتحاشى الذاتية الفاعلة أو المفكرة حتى في صيغ الأمر ، كما في قولنا :– قتل العدو – ؛ أو – فليدحض الدليل – ؛ فالمتكلم هنا لاينسب الفعل لأحد ، أي لمعلوم ، والحضور صار إلى غياب في المبهم الجماعي ..

ثانيهما : كون الجملة الاسمية يمكنها أن تحل محل الجملة الفعلية في الأخبار ، أو الأمر ، فتتحاشى الذاتية ، نحو قولنا :– السفر آن – ، أي نحن نسافر ، أو – الصلاة جامعة ، أي لنصل جماعة ..

بقي أن (عثمان أمين) يعتبر الصدارة في اللغة العربية للمعنى ، وأن البلاغة العربية على حد تعبيره (جوانية) أي يدل بها الانسان عما في قلبه(٢) .. فلأذكر هنا كان البلاغيون يقولون من أن المعاني مطروحة في الشارع ، وأن البراعة في حسن التعبير ..

وبالفعل أن موسيقية اللغة العربية في حروفها ، وحركاتها ، وصيغها ، واشتقاقها هي الظاهرة التي تميز هذه اللغة ، حتى لقد سفرت سفوراً في صنعة أدبها ، وبديع بلاغتها .. وكان من أبرز صورها لزوم ما لا يلزم الذي نجده عند أبي العلاء المعري ، وسجع المقامات الذي نجده عند الحريري والهمذاني(٣) ..

هذا الحس(٤) للألفاظ ، وموسيقاها ، والجمل وايقاعها يمكن أرجاعه إلى التكامل بين المحسوس والمعنوي ، بين الطبيعة والثقافة ؛ ويعبر عن الجدلية الأولية التي للوجود العيني في اندماجه المصيري في مثل عليا ثقافية وفنية تحقق إرادته في الحياة ..

---

(١) فلسفة اللغة العربية ، ص ٣٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٦ ، عن الطراز ، ج١ ، ص ١٢٢ .

(٣) وقد أرخ شوقي ضيف لذلك ، واظهر تطور الصنعة في الأدب العربي إلى التصنيع ، فالتصنع .

(٤) وقد نوه عدد من الباحثين بهذه الظاهرة ، من أبرزهم عباس محمود العقاد في العديد من مقالاته ، وكتبه .

بلال الجيوسي

التفكير واللغة

تأليف : ل . س . فيجوتسكي ترجمة : الدكتور طلعت منصور

صدرت في «القاهرة» حديثاً الترجمة العربية لكتاب هام هو : «التفكير واللغة»(١) لعالم النفس السوفييتي «ليف سيميونيفتش فيجوتسكي» . يحتل «فيجوتسكي» (١٨٩٦ – ١٩٣٤) – كما يقول الدكتور طلعت منصور مترجم الكتاب في مقدمة مطولة عن علم النفس السوفييتي – «مكانة بالغة الأهمية ... فهو أبو المدرسة السوفييتية في علم النفس ، وأحد الرواد المبرزين في تطور الفكر السايكولوجي العالمي» . «قد اتضحت عبقرية «فيجوتسكي» عند ظهوره لأول مرة في المؤتمر الثاني لعلم النفس النيورولوجي عام ١٩٢٤ ، حيث كان من أنشط المدافعين عن مفهوم الوعي أو الشعور ضد النظريات التي تستبعد الوعي كموضوع للدراسة في علم النفس» .

وعندما قدم «لوريا» و «ليونتيف» في عام ١٩٥٨ الترجمة الألمانية لأعمال«فيجوتسكي» كتبا : «كانت أول مهام هذه الفترة وأعظمها : تحرير الفرد من السلوكية المبتذلة ، ومن الاتجاه الاستبطاني في دراسة الظواهر النفسية كحالات ذاتية داخلية مطلقة» . ويعلق «ج.س.

(١) التفكير واللغة ، تأليف «د. س. فيجوتسكي» ، ترجمة الدكتور طلعت منصور ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

(١) Vygotsky, L.S. Thought and Language The Massachusetts institute of Technology, u.s. A., 1962 .

برونر » في مقدمته للترجمة الانجليزية لكتاب « فيجوتسكي »(١) : « هذا لم يكن من الغريب أن تقمع أعمال «فيجوتسكي» عن التفكير واللغة في عام ١٩٣٦ ، بعد عامين من ظهورها ، حتى عادت إلى النور ثانية عام ١٩٥٦ .

تتألف الترجمة العربية للكتاب من ثلاث مقدمات وملحق ، بالإضافة إلى فصول الكتاب السبعة . المقدمة الأولى للمترجم ، الدكتور طلعت منصور ، يعرض فيها – بشكل عام – لاتجاهات علم النفس السوفييتي وتطوراته ، وموقع « فيجوتسكي » فيه . والمقدمة الثانية فهي ترجمة لمقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب « فيجوتسكي » كتبها « ج. س. برونر » . أما المقدمة الثالثة فهي بقلم اثنين من علماء النفس الروس البارزين : (أ. د. لوريا و « أ. ن. ليونتييف » ، وهي مقدمة الطبعة الروسية لكتاب « فيجوتسكي » عام ١٩٥٦).

وقد أضاف المترجم ملحقاً في نهاية الكتاب ضمنه ترجمة لأحد مقالات « جان بياجيه » التي يرد فيها على انتقادات « فيجوتسكي » له .

أما فصول الكتاب ذاته فيمكن تصنيفها على أساسين : طبيعة الفصول ، والمشكلات المطروحة : فمن حيث طبيعة الفصول ، يتألف الكتاب من فصل منهجي وفصلين نقديين : الأول منهما ينتقد « فيجوتسكي » فيه نظرية « جان بياجيه » في الكلام المتمركز حول الذات . وينتقد في الثاني الاتجاه العقلاني واللاتطوري في معالجة مشكلة اللغة عند أحد علماء النفس في أوائل هذا القرن « وليام شترن » .

تبقى أربعة فصول : اثنان منها يتصلان بعلاقة الفكر باللغة وأصولها ، ومشكلة الكلام الداخلي ، والآخران تجريبيان ينقلان إلى القارىء مجموعة تجارب عن مسألة تكوين المفاهيم . أما من حيث المشكلات المطروحة والمتصلة مباشرة بمسألة التفكير واللغة هي :

١ – علاقة التفكير باللغة وأصولها .

٢ – الكلام الداخلي .

وسوف نركز في هذا العرض على هاتين المشكلتين .

ه ه ه

١ ـ الفكرة والكلمة

هل نستطيع أن نفكر دون كلمات ؟ هل نستطيع أن نتكلم – كلاماً عاقلا – دون تفكير ؟ هل هناك انفصال بين الأفكار والكلمات ، أم أن بينهما اتصالا وثيقاً ؟ وإذا كانت الأفكار والكلمات منفصلة فكيف ترتبط ببعضها ؟ كذلك . إذا كانت متصلة ، فما هي طبيعة هذا الاتصال ؟

تلك هي بعض الألغاز التي يقع في اشراكها كل باحث في علائق التفكير باللغة ، والتي سننظر مع « فيجوتسكي » فيها .

يقول « فيجوتسكي » تأرجحت الحلول السابقة لهذه المشكلة – منذ أقدم العصور – بين قطبين متباعدين : تطابق الفكرة والكلمة وامتزاجهما من ناحية ، أو تباعدهما وانفصالهما الميتافيزيقي من ناحية أخرى .

يقدم « فيجوتسكي » اعتراضات أساسية على هذين الاتجاهين : فالاتجاه الأول – ونموذجه السلوكية الواطسونية – لايحل المشكلة وإنما يلغيها ، فهو يرد الفكر إلى الكلام ، ولا يرى في التفكير إلا كلاماً ينقصه الصوت . وعندما نرد أحد طرفي المشكلة إلى الآخر فاننا بذلك نلغيهـا .

على هذا الأساس يبدو أن النظريات التي تفصل التفكير عن الكلام في وضع أفضل طالما أنها تحافظ على طرفي المشكلة . « فمن يتناول الكلام كتعبير خارجي عن الفكرة ، كتوب لها ، ومن ينزع كممثلي مدرسة « فيورتسبورج » إلى تحرير التفكير من كل المكونات الحسية ، بما فيها الكلمات ، فإنه يتصور العلاقة بين الفكرة والكلمة علاقة خارجية محضة » . وإذا كان أصحاب نظريات المطابقة لم يروا – أساساً – عقدة كي يحلوها ، فإن أصحاب النظريات التي تفصل الفكر عن اللغة قد رأوا هذه العقدة ، لكنهم بدلا من حلها فرقوها ، ولكن كيف ؟

يوسع « فيجوتسكي » البحث هنا إلى مناقشة منهجية عامة . فهو يعتقد أن خطأ النظريات الأخيرة يكمن في أن أصحابها حللوا التفكير اللغوي إلى عناصره المكونة – من حيث علاقتها ببعضها – إلى الفكرة والكلمة ، ثم راحوا يدرسون الخصائص الجزئية للتفكير والكلام في عزلة عن بعضهما ، ثم راحوا يقيمون بين هذه الأجزاء علاقات أولية محضة . وهذا يعني أن الخطأ يكمن في طرق التحليل التي اتبعها الباحثون .

يميز « فيجوتسكي » بين نوعين من التحليل في دراسة البنى النفسية . التحليل إلى عناصر مفردة ، والتحليل إلى وحدات . التحليل إلى عناصر يفقد الكل وحدته، فلا يعود بالإمكان تركيبها إلا على نحو صيغي ، ولا نستطيع أن نفسر بخصائص العناصر طبيعة الكل . فالأوكسجين لوحده – على سبيل المثال – ، والهيدروجين لوحده لايمتلكان خصائص الماء ككل . « ويميل علم النفس نحو هذا الاتجاه الباطل الذي يجزىء التفكير اللغوي – كمحاولة لتفسير خصائصه المميزة له ككل – إلى عناصر مستقلة .

تؤدي هذه الطريقة إلى فصل اللغة عن التفكير ، والصوت عن المعنى ، مثل هذا الفصل يسلب التفكير ، اللغوي الانساني كل خصائصه . فالكلمة دون معنى ليست إلا صوتاً فارغاً ، والمعنى بدون كلمة لايمكن إدراكه .

علينا – إذن – أن نحافظ أثناء التحليل على الوحدة ، وهذا التحليل نطلق عليه اسم : التحليل إلى وحدات .

يعرف « فيجوتسكي » الوحدة Unit بأنها « نتاج التحليل الذي يتمتع بكافة الخصائص الأساسية المميزة للكل ، وهي الجزء الحي الذي لايقبل تفتيتاً أكثر من ذلك » . ونتساءل الآن في هذا الضوء المنهجي ، ماهي وحدة التفكير اللفظي التي لاتقبل مزيداً من التجزئة ، والتي تنطوي على الخصائص المميزة للتفكير اللغوي ككل ؟ يجيب « فيجوتسكي » على هذا السؤال : هذه الوحدة هي : معنى الكلمة ، ففي هذا المعنى يتحد التفكير والكلام في التفكير اللغوي .

يحدد « فيجوتسكي » معنى « المعنى » في الوظيفة التعميمية للكلمة ، « فالتفكير يعكس الواقع في الوعي بطريقة تختلف كيفاً عن الإحساس المباشر . وينحصر هذا الاختلاف في وجود انعكاس معمم للواقع في التفكير . ومعنى الكلمة بوظيفتها التعميمية عمل فكري . كما أن المعنى جزء لا يتجزأ من الكلمة ، فالكلمة بدون معنى ليست كلمة ، وإنما صوت فارغ » . « المعنى كلام وتفكير في نفس الوقت لأنه وحدة التفكير اللغوي » . بهذا التحديد يصوغ فيجوتسكي » طريقة البحث التي لا يمكن أن تكون إلا طريقة التحليل السيمانتيكي : دراسة نمو وعمل وتركيب هذه الوحدة التي تتضمن التفكير والكلام في وحدتهما المتبادلة » .

ملاحظتان تجدر الإشارة لهما هنا :

١- هل يشكل معنى الكلمة بوظيفتها التعميمية ، وحدة سليمة للتفكير اللغوي كما يقول : « فيجوتسكي » وهل يحمل التعميم في طياته كل العمليات الفكرية الأساسية على نحو يسمح لنا بالقول إن الوظيفة التعميمية للكلمة هي وحدة التفكير اللغوي التي تحمل في ثناياها البنية الكلية للفكر اللغوي دون أن تفتتها أو تشوهها ؟ بعبارة أخرى ، هل يلبي معنى الكمة بوظيفتها التعميمية شروط « الوحدة » التي وضعها « فيجوتسكي » نفسه ؟ هل يحمل معنى الكلمة - كوحدة للتفكير اللغوي - عناصر بمعنى الجملة على سبيل المثال .

٢ - تعني « دراسة نمو وتحمل وتركيب هذه الوحدة التي تتضمن التفكير والكلام في وحدتهما المتبادلة » هو تقديم نظرية العلاقة الفكر باللغة من خلال نظرية للمعنى ، فهل سينجح « فيجوتسكي » في تحقيق هذا المطلب الصعب . سنواصل قراءة كتاب « فيجوتسكي » الآن في ضوء هذه المشكلة .

العقلانية والتطورية :

يعارض « فيجوتسكي » بشدة النظرة العقلانية Intellectualistic الخالصة إلى الظواهر المادية والإنسانية ، التي ترى هذه الظواهر وكأنها بلا تاريخ ، تبزغ بدون مقدمات ، الأمر الذي يجعل كل نظرية عقلانية -- بهذا المعنى -- معادية للتطور كما يؤكد « فيجوتسكي » الذي يوجه نقداً حاداً إلى احدى النظريات العقلانية في تفسير نشوء اللغة وهي نظارية « وليام شترن » أحد علماء النفس الذين برزوا في أوائل هذا القرن .

يميز « شترن » كما تقول « فيجوتسكي » بين ثلاثة أصول للكلام : الميل التعبيري ، الميل الاجتماعي ، والميل القصدي Intentional . ويعرف « شترن » القصدية في هذا المجال على أنها « توجه نحو مضمون أو معنى معين » . فالإنسان كما يقول : « يكتسب القدرة-في مرحلة معينة من مراحل نموه النفسي - على أن يعني شيئاً من الأشياء عند تلفظه لأصوات معينة ، وعلى أن يشير إلى شيء موضوعي من الأشياء » .

وعلى الرغم من أن « شترن » يرى أن بعض علماء النفس يبالغون كثيراً في إسباغ الصفة المنطقية على كلام الطفل ، فانه يقوم إن القصدية تتضح في المنطق الطفل كما يصطبغ الكلام بالخاصة الإنسانية المميزة .

لا يعترض « فجوتسكي » على افتراض مستوى معين في نمو التفكير كشرط لاكتساب

كلام الطفل معنى موضوعياً . كما أنه لا يختلف مع « شترن » في أهمية العلاقة بين اللغة والتفكير المنطقي . ولكنه يأخذ عليه اعتباره « القصدية – وهي سمة من سمات الكلام المتقدم التي تتطلب تفسيراً تطورياً – أصلا من أصول النمو الكلامي ، وميلا فطرياً . » . على هذا الأساس يبدو أن « شترن » يعتقد أن الطفل عند سن معينة (عام ونصف إلى عامين) يكتشف فجأة معنى اللغة ووظيفتها الرمزية ، ويشكك « فيجوتسكي » في إمكانية وعي الطفل للوظيفة الرمزية للغة في هذه السن المبكرة ، كما يرفض هذه الفجائية واللاتاريخية في بزوغ هذه المرحلة قائلا : « إذا كان « شترن » يعتقد أن الطفل يكتشف معنى اللغة مرة لا تتكرر فإن هذه العملية، في الحقيقة ، عملية معقدة للغاية لها « تاريخها الطبيعي » (أي بداياتها المبكرة، وأشكالها الانتقالية على المستويات التطورية الأكثر بدائية) وكذلك « تاريخها الثقافي » (بما تتضمنه من سلسلة من المراحل الخاصة ، ونموها الكمي والكيفي والوظيفي ، وديناميانها وقوانينها) .

يشير « فيجوتسكي » إلى عجز النظريات العقلانية عن تقديم تفسيرات حقيقية . ويقول « إن شترن » يجيب على سؤال : لماذا يكتسب الكلام معنى ، وكيف ؟ بقوله : من الميل القصدي ، أي الميل نحو المعنى . ومثل هذا التفسير يذكرنا بتفسير طبيب « موليير » الذي فسر التأثير المخدر للأفيون بماله من خصائص مخدرة » .

احاديث القرود وافكارها :

هل ينبت الكلام والتفكير من جذر واحد ؟ هل يستلزما بعضهما بعضاً بالضرورة ؟ أم أن هناك تفكيراً لايستدعي الكلام ، وكلاماً لا يتطلب تفكيراً ؟

يجيب « فيجوتسكي » على هذه الاسئلة على نحو مباشر مستعيناً بالدراسات التي أجريت على القردة . « ففي الحيوانات ، ينشأ الكلام والتفكير من أصول مختلفة وينموان وفقاً لمسارات مختلفة » . ويستشهد في هذا المجال بأبحاث « كوهلر المعروفة ، وغيرها من الدراسات . « فقد أثبتت تجارب « كوهلر » أن أصل النشاط العقلي – أي التفكير بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى – يظهر لدى الحيوانات غير مرتبط بالكلام . فما تتوصل إليه القردة « من ابتداعات » في إعداد الأدوات واستخدامها ، أو في إيجاد طرق غير مباشرة لحل المشكلات ، بالرغم من أنها تمثل دونشك تفكيراً أولياً، يؤلف مرحلة ما قبل اللغة في نمو التفكير . » .

ولكن السؤال الذي يتطلب الإجابة قبل التوغل في فكر القردة وأحاديثها هو : هل تفكر القردة حقاً ؟ وهل تستطيع أن نسمي أصواتها وصياحها كلاماً ؟

أختلف علماء النفس في هذا المجال فكوهلر يرى أن بحوثه تثبت « أن قرود الشمبانزي تبدي استعداداً وبدايات للسلوك الذهني من نفس نوع ونمط سلوك الإنسان . ويعزو إلى نقص الكلام (تلك الوسيلة الفنية البالغة القيمة) ، ومحدودية التصورات ، (تلك المادة الذهنية الفائقة الأهمية) الفارق الهائل بين الحيوانات الراقية أشباه البشر والإنسان البدائي » .

وإذا كان « كوهلر » يثق بذكاء القردة إلى هذا الحد ، فإن هناك من يفرط في هذه الثقة ، مثل « يير كس » الذي يقول أن قردة « الأورانج شان » تتمتع « باستذهان راق على مستوى طفل في الثالثة من عمره » .

لا شك أن هذه مبالغة . و« فيجوتسكي » يرد عليها على أسس منهجية . فيير كس – كما يرى « فيجوتسكي » « يستنتج الاستذهان ideation من مجرد تشابهات سطحية بين القردة العليا وسلوك الإنسان ، ولا يوجد إثبات موضوعي بأن هذه القردة تحل المشكلات وفقاً لعمليات الاستذهان . ففي دراسة الحيوانات العليا قد يستخدم التشابه لأجل هدف سليم داخل حدود الموضوعية ، ولكن من الصعب أن يكون إقامة الافتراض على أساس التشابه إجراء علمياً » .

وما يزيد من ضعف موقف « يير كس » ما أكده « كوهلر » من أن القردة لاتستطيع حل المشكلات إذا لم تر عناصر الموقف على نحو متزامن ، أي أنها يجب أن ترى الموز والعصا معاً حتى تتمكن من إحضار الموز . ومصطلح « الاستبصار » الذي قدمه « كوهلر » لم يأت عفواً ، بل يبدو أنه يعني به – كما يقول « كوفكار » – الرؤية بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ورؤية العلاقات بصفة عامة ، أو التفهم كنقيض للأداء العشوائي » .

لكن بعض علماء النفس مثل « ثورنديك » ، لا يرون أي شيء في أداءات الشمبانزي يتعدى آليات الغريزة والتعليم بالمحاولة والخطأ .

يعي « فيجوتسكي » هذا التضارب في النتائج ويحاول أن يتبنى موقفاً متحفظاً فيقول : « والشيء الوحيد الذي نعرفه استناداً إلى التعيين الموضوعي ليس أن القردة تتمتع « بالاستذهان » ولكنها قادرة – تحت شروط معينة ، على اصطناع أدوات بسيطة جداً ، وعلى اللجوء إلى

« طرق بديلة » تحاول بها حل المشكلة ، وأن هذه الشروط تتضمن موقفاً مرئياً أو واضحاً تماماً » .

هذا في ما يتعلق بتفكير القردة ، ولكن ماذا عن كلامها ؟ يرى « فيجوتسكي » وغيره « أننا نجد لدى الشمبانزي لغة متقدمة نسبياً ، قريبة في بعض النواحي – وخاصة من الناحية الصوتية – من كلام الإنسان » .

ولكن يجب ملاحظة طبيعة هذه اللغة إذ أنها ليست إلا تعبيرات عن حالات ذاتية انفعالية ولا تمثل على الإطلاق إشارة Sign إلى أي شيء موضوعي .

ينقل « ييركس » تفاؤله بذكاء القردة إلى مجال الكلام فيقول : « فالاستجابات الصوتية وفيرة ومتنوعة للغاية عند الشمبانزي الصغير ، ولكن يختفي الكلام بالمعنى الإنساني » .

ويرى أن الجهاز الصوتي للقردة متطور وشبيه إلى حد كبير بالجهاز الصوتي عند الإنسان ، ولكن ما ينقص القردة حتى تنطق هو الميل إلى تقليد الأصوات . كيف يستخدم « فيجوتسكي » هذه النتائج للبرهنة على أن أصول الكلام والتفكير منفصلة ؟ إذا كانت القردة لا تستطيع أن تحل المشكلات إلا إذا رأت عناصر الموقف على نحو متزامن ، فهذا يعني أن أساس « تفكيرها » بصري ، ولكن اكتشاف الكلام لا يمكن أن يعتمد على أساس بصري ، بل يتطلب عملية عقلية من نوع مغاير . كما أن الأصوات التي يصدرها ذات طبيعة فيزيولوجية وانفعالية ويمكن أن تكون بداية الوظيفة الاجتماعية للكلام .

إن كل حجة « فيجوتسكي » مرتكزة على أن الحد الأدنى من التفكير عند القردة هو بدايات التفكير الإنساني ، وأن الاصوات التي تصدرها هي أصول الكلام . ولما كان ذا نزعة تطورية فإنه سيستخدم هذه الحجة ليبرهن على أن التفكير واللغة وهما منفصلان أساساً سيلتقيان في ما بعد في التفكير اللغوي .

وهكذا يميز « فيجوتسكي » – من ناحية تطور النوع مرحلة لما قبل اللغة في نمو التفكير ومرحلة لما قبل النشاط العقلي في نمو الكلام .

النظر والعمل :

عندما يناقش « فيجوتسكي » انفصال جذور التفكير والكلام عند القرد فإنه يستخدم حججاً شبيهة بتلك التي استخدمها في مناقشته المسألة من جهة التطور النوعي .

يقتطف ملاحظة من « شارلوت بيولر » تقول فيها : « لقد جرى القول بأن الكلام كان بداية الأنسنة ، وقد يكون الأمر كذلك ، ولكن قبل الكلام يوجد التفكير الأداتي أو الوسيلي Instrument القائم على أساس استخدام الأدوات ، أي فهم الارتباطات الآلية وابتداع وسائل آلية لأغراض آلية » .

ومن ناحية أخرى ، يبدأ الكلام عند الطفل قبل بدء نشاطه العقلي « فما يصدر عن الطفل من صياح ومناغاة ، وحتى كلماته الأولى ، يمثل مراحل واضحة تماماً في النمو الكلامي لا ترتبط بنمو التفكير » . كما أن الوظيفة الاجتماعية للكلام — كما يبدو من دراسات « شارلوت بيولر » تتضح تماماً خلال العام الأول ، أي في مرحلة ما قبل النشاط العقلي .

ولكن مع تقدم عمر الطفل يميل الخطان المنفصلان إلى اللقاء ليصبح الكلام عاقلاً والعقل ناطقاً من خلال الكلمات ، ولتظهر أمامنا مشكلة التفكير واللغة .

الفكرة والكلمة :

رأينا في البداية كيف أن « فيجوتسكي » اعتبر معنى الكلمة وحدة صالحة لتمثيل التفكير اللغوي . ولكنه لاينظر إلى معنى الكلمة على أنه شيء ثابت ، بل على العكس ، يرى المعنى ينمو ، وهو في هذا يرد على النظريات الثباتية واللاتطورية . فالتفكير اللفظي يرقى من التعميمات البدائية إلى المفاهيم الأكثر تجريداً ، وفي هذه العملية لا يتغير مضمون الكلمة وحسب إنما الطريقة التي يعمم بها الواقع وينعكس في الكلمة . بعبارة أخرى تتغير المعاني في بنيتها تغيراً داخلياً جذرياً .

يخالف هذا الرأي نظريات قديمة في علم النفس . فبالنسبة للمدرسة الارتباطية « تكون العلاقة بين الكلمة والمعنى علاقة ترابطية تنشأ خلال الإدراك المتأني المتكرر لصوت معين وموضوع معين . فالكلمة تستدعي مضمونها إلى العقل كما يذكرنا معطف برتديه صديق بهذا الصديق ، أو كما يذكرنا منزل بسكانه » . ويتغير المعنى في هذه النظرية تغيرات خارجية محدودة عن طريق تغير الارتباطات أو زيادتها ونقصانها ، ولكن دون أن تتغير طبيعته السيكولوجية

وهكذا فسرت هذه المدرسة نمو المعاني عند الأطفال بزيادة ارتباطاتها «لابالتغيرات النفسية والتركيبية الأساسية التي تحدث في نمو اللغة عند الأطفال» .

أما مدرسة الجشطالت فقد حاولت – بنزعتها الكلية المعادية للتحليل الذري وبالتالي للارتباطات الميكانيكية – أن تخضع التفكير واللغة لقوانين التركيب أو البنية . لكن «فيجوتسكي» يعتقد أن الجشطالت ايضاً لم تحقق تقدماً يذكر في نظرية التفكير والكلام . «فالكلمة تدخل في تركيب الأشياء، وتكتسب معنى وظيفياً معيناً بنفس الطريقة التي تصبح بها العصا لدى الشمبانزي جزءاً من تركيب الحصول على الفاكهة ، وتكتسب المعنى الوظيفي للأداة . فالارتباط بين الكلمة والمعنى لم يعد مسألة ترابط بسيط ، ولكن مسألة تركيب » .

يأخذ « فيجوتسكي » على هذه النظرة أنها تجعل « مبدأ التركيب ينطبق على كل العلاقات بين الأشياء بنفس الطريقة العامة غير المتميزة مثل ما كان مبدأ الترابط من قبل . وبذلك يستمر عدم إمكانية معالجة العلاقات المحدودة بين الكلمة والمعنى . فهما تعتبران منذ البداية متناظرتان متحدتان في المبدأ مع كل العلاقات الأخرى بين الأشياء » .

هذا التعميم في مفهوم « البنية » ، قاد مدرسة الجشطالت إلى إنكار وجود قوانين خاصة للتفكير ، ذلك أن هذا الاختزال العام إلى البنية يؤدي إلى عدم التمييز بين إدراك الدجاجة المنزلية والتفكير التصوري عند الشخص الراشد .

يلخص « فيجوتسكي » اعتراضه على مدارس علم النفس التي عالجت مشكلة التفكير واللغة بأنها أغفلت أن أي تفكير يمثل تعميماً ، وأن المعاني تنمو .

يؤكد « فيجوتسكي » كثيراً على مشكلة نمو المعاني . وحق النمو يعني بدوره تغيراً في العلاقات بين التفكير والكلام يواكب هذا النمو . لكنه لا يفحص مسألة النمو ، لأنه مادامت المشكلات الوظيفية تحل غالباً بالفعل بواسطة تفحص الشكل الأرقى للنشاط ، فإنه سيتجه رأساً إلى العلاقة بين التفكير والكلمة في العقل الناضج .

« علاقة التفكير بالكلمة ليست شيئاً ، ولكن عملية، حركة مستمرة إلى الوراء والأمام، من الفكرة إلى الكلمة ومن الكلمة إلى الفكرة ، وفي تلك العملية تخضع علاقة التفكير بالكلمة لتغيرات قد تعتبر ذاتها نمواً بالمعنى الوظيفي. والتفكير لا يتم بمجرد التعبير عنه بكلمات، ولكنه يأتي إلى الوجود من خلالها . . . . . وينبغي أن يبدأ تحليل تفاعل الفكرة والكلمة ببحث الأطوار والمستويات التي يجتازها التفكير قبل أن يتجسد في كلمات » .

يميز « فيجوتسكي » بين مستويين للكلام . فهناك المستوى السيمانتيكي المتصل بالمعنى

والمستوى الصوتي الخارجي . هذا التمييز لا ينفي الوحدة بينهما ، ولكنها ليست وحدة تجانس وإنما وحدة تركيب .

يتحرك هذان المستويان حركة مستقلة . فن ناحية الكلام الخارجي يتقدم الطفل من الجزء إلى الكل ، فهو يبدأ بكلمة واحدة ويتجه نحو الجمل . أما من ناحية المعنى فيسير في الأتجاه المعاكس . فالكلمة الأولى تمثل بالنسبة له جملة كلية ، ثم يأخذ في التمكن من الوحدات السيمانتيكية المنفصلة .

هذا التحليل يوضح ضرورة التمييز بين الجانبين الصوتي والسيمانتيكي ولكن هذا التمييز هو أساس وحدتهما « فتفكير الطفل ، الذي يكون في البداية كلا غير متميز ، ينبغي أن يجد تعبيراً في كلمة مفردة . وكلما صار تفكيره أكثر تمايزاً ، يقل ميل الطفل إلى التعبير عنه بكلمات مفردة ». ومن الناحية الأخرى « يساعد التقدم في الكلام إلى الكل المتميز للجملة أفكار الطفل كي تقدم من الكل المتجانس إلى أجزاء محددة بدقة » .

يستخدم « فيجوتسكي » هذا الاختلاف بين الفكرة والكلمة كي يقول « أن الفكرة والكلمة لا تقطعان من نموذج واحد ، ولكن توجد بينهما اختلافات أكثر من التشابهات . فبنية الكلام لا تعكس ببساطة بنية التفكير » .

ولكن السؤال الذي تستثيره مناقشة « فيجوتسكي » لهذه المشكلة هو : هل الكلمات الأولى التي ينطقها الطفل نتيجة « تفكير » ؟ هذه المسألة هامة فلكي نستنبط اختلاف التفكير عن الكلام من اختلاف اتجاه المستويات السيمانتيكية والصوتية علينا أن نقرر أولا أن هناك تفكيراً فعلياً على المستوى السيمانتيكي. وأغلب الظن أن الكلمات الأولى التي ينطقها الطفل ليست نتاج « تفكير » بقدر ما هي نتاج ارتباطات أولية من النوع الذي أنتقده « فيجوتسكي » ، ولا تصلح لتحليل علاقة الفكرة بالكلمة .

يقدم « فيجوتسكي » حجة ثانية ليوضح انفصال الجانب الصوتي عن السيمانتيكي هي أن النحو يسبق المنطق . فبياجيه يرى أن الطفل يستخدم بعض العبارات قبل أن يدرك معناها تماماً .

ومرة أخرى ، قد لا يفهم الطفل المعنى الكامل لعبارة ما ، ولكن يوجد في ذهنه دون شك معنى — قد يكون عملياً — لهذه العبارات . فعندما يقول الطفل : انكسر الكأس لأنه

سقط »، فقد لا يفهم بالضبط معنى العلية هنا ، ولكن هذا لا يعني أنه لا يمتلك أي فكرة – ولو كانت نتاج خبرة سابقة غامضة – عن هذه العلاقة .

إن « فيجوتسكي » في حماسه لإظهار اختلاف الفكرة عن الكلمة يتجاوز عن التحليل الدقيق لمفهوم الفكرة ومستوياتها ، ومفهوم المعنى .

الكلام الداخلي :

لا يمكن فهم العلاقة بين التفكير والكلام – في رأي فيجوتسكي – بدون فهم واضح للطبيعة النفسية للكلام الداخلي Inner Speech . لقد ظهرت عدة نظريات تحاول تفسير ظاهرة الكلام الداخلي . « فواطسون » – على سبيل المثال – يوحده بالتفكير ، ويعتبره « كلاماً لا صوتياً » أو كلاماً مكفوفاً .

وفهم بعض العلماء الكلام الداخلي على أنه الذاكرة اللفظية مثل السرد الصامت لشعر محفوظ عن ظهر قلب ... وفي تلك الحالة يختلف الكلام الداخلي عن الكلام الصوتي فقط على أنه فكرة أو صورة الشيء التي تختلف عن الشيء الحقيقي » .

يعرف « بختريف » هذا الكلام بأنه « إنعكاس كلامي يخضع الكف في جانبه الحركي » .

وإذا كانت هذه التعريفات ضيقة بعض الشيء ، فإن تعريف « جولد شتاين » واسع للغاية . فهذا المصطلح يغطي عنده « كل شيء يسبق الأداء الحركي للمتكلم وهذا يتضمن دوافع الكلام ، والخبرة الكلامية اللاقولية واللاحسية وغير القابلة للتحديد ، أي الجانب الداخلي الكلي لأي نشاط كلامي .

ينتقد « فيجوتسكي » هذه النظريات . فواطسون يعتقد أن الأطفال ينتقلون من الكلام الخارجي إلى الهمس فالكلام الداخلي ، ولكن « فيجوتسكي » يعتقد أنه « لا توجد أسباب حقيقية كي نفترض أن الكلام الداخلي ينمو بطريقة آلية معينة خلال التناقص التدريجي في إمكانية سماع الكلام » .

كما أن الذاكرة اللفظية ليست كل الكلام الداخلي . إنها أحد العناصر المكونة له ، ولكنها ليست كله . وبالنسبة لتعريف « بختريف » فهو غير كاف . « فالتلفظ الصامت للكلمات ليس مكافئاً للعملية الكلية للكلام الداخلي .

أما وجهة نظر «جولدشتاين» فهي تؤدي منطقياً إلى أن «الكلام الداخلي ليس كلاماً على الإطلاق ولكنه نشاط ذهني ووجداني إرادي طالما أنه يتضمن دوافع الكلام والتفكير الذي يعبر عنه بكلمات .

ما الكلام الداخلي إذن ؟ « الكلام الداخلي كلام للذات ، والكلام الخارجي للآخرين . الكلام الخارجي هو تحويل التفكير إلى كلمات ، أما بالنسبة للكلام الداخلي فإن العملية تنعكس : يتحول الكلام إلى تفكير داخلي . ومن ثم ينبغي أن يختلف تركيبهما . » .

يناقش « فيجوتسكي » طبيعة الكلام الداخلي على ضوء نقده لعالم النفس السويسري « جان بياجيه » . فبياجيه يتحدث عن مرحلة في نمو الطفل النفسي يسميها « التمركز حول الذات » . هذه المرحلة تقع بين مرحلة تسبقها هي التفكير اللاواقعي ، ومرحلة لاحقة هي المرحلة المنطقية . إن الوظيفة الأساسية للتفكير المتمركز حول الذات هي إشباع الحاجات الشخصية . ولكن هذه المرحلة تنقضي في حوالي السابعة ليبزغ التفكير المنطقي والاجتماعي . » وإذا كان الكلام المتمركز حول الذات هو تعبير عن تفكير متمركز حول الذات ، فإنه يختفي مع اختفاء هذا التمركز » فتاريخ هذا التمركز عند بياجيه إنحساري ، وهو بلا مستقبل .

أما « فيجوتسكي » فيفسر هذه الظواهر على نحو مختلف . فاختفاء الكلام المتمركز حول الذات لا يعني نهايته ، ولكن استدخاله . إن ما يغيب فعلا هو التصوت . فبين الثالثة والسابعة تنمو الخصائص الوظيفية والتركيبية للكلام المتمركز حول الذات بشكل يعزلها عن الكلام الخارجي ويصبح التصوت غير ضروري وليس له معنى . ولكن غياب هذا التصوت لا يعني فناء هذا الكلام .

ما هي الخصائص النمائية التي تحول الكلام المتمركز حول الذات ، وهو كلام موجه للذات ولا تكون مهمته الأساسية التواصل الاجتماعي ، إلى كلام داخلي ؟ سنذكر خاصيتين في هذا العرض . الأولى هي « الاختزال » ، وتعني أن حديث المرء لنفسه مختصر للغاية من الناحية اللغوية والنحوية . ففكرة كاملة يمكن التعبير عنها ، — في الكلام الداخلي — بكلمة واحدة . تتضح هذه الخاصية أحياناً في الكلام الخارجي . فعندما يتحدث شخصان يعرفان بعضهما معرفة وثيقة ، فإنهما يفهمان بعضهما بسرعة وبعدد قليل من الكلمات ، أو كما تقول في العامية (عا الطاير)، وهذا نتيجة الخبرة المشتركة السابقة . وبطبيعة

الحال ، تصل هذه الميزة إلى أقصاها في الكلام الداخلي ، وبالتالي يصل الاختزال إلى أقصاه أيضاً .

هذا التقلص في النحو يصاحبه – وهذه هي الخاصية الثانية – غلبة المغزى Sense على المعنى Meaning . والمغزى هو – كما يقول « بولهان » : « مجموعة الأحداث النفسية التي تبدى في وعينا بواسطة الكلمة » . أما المعنى فهو أكثر تحديداً وفقراً ، إنه المعنى القاموسي على السبيل المثال . ففي الكلام الداخلي يغلب المغزى على المعنى ، لأن الشخص يفهم مباشرة مغازي ودلالات الكلام البعيدة وتتضح هذه الصفة أيضاً في الكلام الخارجي أحياناً عندما يصل التواصل إلى درجة ممتازة .

الكلام الداخلي – كما يراه « فيجوتسكي » « ليس الجانب الداخلي للكلام الخارجي ، ولكنه وظيفة في حد ذاته . إنه يبقى كلاماً ، أي تفكيراً مرتبطاً بالكلمات . ولكن بينما يتجسد التفكير – في حالة الكلام الخارجي – في كلمات ، فإن الكلمات تحدث في حالة الكلام الداخلي كي تولد الفكرة . الكلام الداخلي – إلى حد كبير – تفكير في معان نقية خالصة ! ! . إنه عملية ديناميكية متغيرة ، غير ثابتة ، ترفرف بجناحين بين الكلمة والفكرة » .

ويمكن سبر غور مسألة الكلام الداخلي أكثر حين نفحص مستوى أعمق من مستوى الكلام الداخلي وهو ، التفكير . ولا يوجد تطابق جامد بين وحدات التفكير والكلام . ويبدو هذا واضحاً – في رأي « فيجوتسكي » – حين تضل عملية التفكير طريقها ، حين « لا تدخل الفكرة – كما يقول دوستويفسكي – في كلمات » .

ولأن الفكرة لا تتطابق دوماً وبشكل آلي مع الكلمات ، فلابد من وسيط يحقق التطابق . هذا الوسيط هو – عند « فيجوتسكي » – المعنى . « الاتصال المباشر بين العقول ليس مستحيلاً من الناحية الفيزيقية وحسب ، ولكن سايكولوجيا . وإنما يتحقق الاتصال فحسب بطريقة غير مباشرة . فالتفكير ينبغي أن يمر أولا خلال المعاني ، ثم خلال الكلمات » .

أما أعمق المستويات جميعاً في تحليل التفكير اللفظي فهو المستوى الدافعي . فالتفكير « يتولد بالدافعية ، أي برغباتنا وحاجاتنا ، اهتماماتنا وانفعالاتنا » . ووراء كل تفكير يوجد « الميل الوجداني – الإداري » الذي يفسر لنا التفكير في مستواه العميق . « والفهم الحقيقي والتام لتفكير الآخر يكون ممكناً فحسب حينما نفهم الأساس الوجداني – الأرادي لتفكيره » . وهكذا اتجهنا من الخارج إلى الداخل : الكلمة فالمعنى ثم الفكرة وبعدها الدافع .

○ ○ ○

يمكن أن نختتم هذا العرض ببعض الملاحظات على كتاب « فيجوتسكي » . إن أول ما يجب الانتباه إليه هو أن الكتاب قديم ١٩٣٤ . ولكن القدم . بطبيعة الحال – لا ينفي الأهمية . فبعد أكثر من عشرين عاماً ، ظهرت أعمال فيجوتسكي إلى النور من جديد ، وترجمت ١٩٥٨ إلى الألمانية و ١٩٦٢ إلى الانكليزية . وأي فهم حقيقي لمشكلة التفكير واللغة يجب أن يكون « تطورياً » ، يتعقب المشكلة من أصولها .

والملاحظة الثانية هي أن منية « فيجوتسكي » لم تتأخر كثيراً ، فقد توفي عام ١٩٣٤ عن ثمانية وثلاثين عاماً ، ولا شك أنه كان سيسير إلى آفاق أبعد في تطوير وإنضاج أعماله حول هذا الموضوع لو أن حياته امتدت أكثر .

أما الملاحظة الثالثة فهي أن الكتاب ليس مجلداً موحداً ، وإنما هو جملة بحوث مستقلة. لهذا قد لا يعثر القارئ على الوحدة والاستمرار بين فصول الكتاب .

لقد عالج « فيجوتسكي » مشكلة الأصول التطورية الفكر والكلام ، ومشكلة الكلام الداخلي على نحو مفصل ، وأفرد فصلين نقديين لشترن وبياجيه . ولكن المشكلة الحقيقية مشكلة علاقة باللغة في التفكير اللغوي ، ظلت إلى حد بعيد مستعصية . وهو لا ينكر هذا . يقول : « لقد ظل المعنى والجانب الداخلي للغة ، الجانب المتحول نحو الشخص وليس نحو العالم الخارجي ، منطقة غير معلومة بدرجة هائلة » .

وعندما كان يقترب من صلب المشكلة فإنه عبر عن آراء غريبة بعض الشيء .

لم يوضح مثلا طبيعة العلاقة بين مستويات التفكير والكلام (الكلمة ، المعنى ، الفكرة، الدافع) ماهي طبيعة هذا الترتيب ؟ هل هو منطقي نستكشفه بالتحليل اللاحق ؟ أم أنه زمني ؟

وهو يفصل – أحياناً – بين التفكير والكلام على أسس غامضة . إن استنتاج هذا الانفصال من عبارة « الفكرة تضل طريقها أحياناً » ضعيف . لأنه يوحي أن الفكرة صحيحة في ذهن المتكلم ولكنها لا تجد الكلمات المناسبة . أليس الأصح هو القول إن الفكرة تضل ليس لأنها لا تجد طريقها إلى الكلمات ، ولكن لأنها أيضاً مضطربة ولم تستقم بعد ؟

يتحدث « فيجوتسكي » – أثناء شرحه للكلام الداخلي – عن « تفكير في معان نقية خالصة » هل هناك معان نقية لا تتجسد في كلمات ؟ إن « فيجوتسكي » ذاته يقول إن معنى وحدة التفكير اللغوي ، فكيف يعود ليتحدث عن المعاني النقية الخالصة ؟

لعل ترجمة هذا الكتاب إلى العربية تشجع وتستثير البحث في هذه المشكلة ، وهي مشكلة بعيدة الأهمية من النواحي النظرية والعملية على حد سواء .

القاهرة

تجربتي مع اللغة

وجهت « المعرفة » السؤال الآتي إلى مجموعة من الشعراء والقصاصين وكتاب المسرح ، وذلك من أجل سبر واقع العلاقة بين الكاتب العربي المعاصر واللغة العربية على صعيد الممارسة العملية للأجناس الأدبية الثلاثة :

القصيدة والقصة والمسرحية

هل تعتبر الاسلوب الموروث في التعبير نموذجاً يحتذى به أم أنه نمط من أنماط التعبير يمكن أو ينبغي تجاوزه؟

الشعراء	القصاصون	كتاب المسرح
سليمان العيسى	د. عبد السلام العجيلي	علي عقلة عرسان
شوقي بغدادي	هاني الراهب	سعد الله ونوس
أحمد دحبور	رشاد أبو شاور	وليد اخلاصي
بندر عبد الحميد	صلاح دهني	رياض عصمت
أحمد يوسف داود		

كيف يفكر الكاتب العربي المعاصر باللغة؟

[دراسة تقويمية لاستفتاء المعرفة]

خلدون الشمعة

ملاحظة : تم ترتيب الاسماء حسب ورود الاجابات عن الاستفتاء .

• سليمان العيسى •

التعبير الموروث . . هذا التعريف الجديد لمضمون هائل يشمل اللغة والتراث بكل أبعادهما الحضارية والتاريخية . لفظتان ضئيلتان نطلقهما – واخشى أن أقول بشيء من عدم المبالاة – على هذا العالم الواسع الضخم الذي مازلنا نلوذ بجدرانه الصامدة على الزمن لكي نقي أنفسنا كارثة الاضمحلال والزوال .

لقد ورثنا عن الأجداد تركة ضخمة من التعبير . أعني اللغة التي هي وعاء الحضارة، ما في ذلك شك . ثم قضمتنا عصور الغربة والضياع والانحلال عن هذه التركة الضخمة عصوراً طويلة . . ثم شاءت دورة الحياة أن نستيقظ ونبعث . فإذا نحن نفتح عيوننا على حالة مفزعة حقاً . بنيان أمة عظيم ينهض من بين الأنقاض ليستعيد صحته وعافيته ، ويعود بشراً سوياً . وتراث يقف أمامه الباحثون والدارسون في هيبة وإجلال لا يدرون من أين يبدؤون في تناوله ودراسته وإلى أين ينتهون . أقول هذا وأنا أقلب بعض صفحات الجزء الأول المترجم من موسوعة « بروكلمان » في الأدب العربي ، هذه الموسوعة الرائعة التي تربو على خمسة وعشرين جزءاً ، وتضخم آلاف الصفحات . والتي تم حتى الآن ترجمة بعض أجزائها إلى العربية ، ولا أدري في أية ليلة من ليالي القدر السعيدة سنفرغ من ترجمة مثل هذه الشوامخ التي تتحدث عنا ، ونحن في غياب عنها وعن أنفسنا حتى الآن .

وننظر ما حولنا فنرى العالم يتحرك بخطا الصواريخ ومراكب الفضاء . ومرة أخرى نقف أمام معضلة تواجه مصيرنا . هل نترك وراءنا موروثنا العظيم من التعبير عن وجودنا ونحاول أن نلحق بركب الإنسانية التي اتخذ لغة السرعة والتطور المذهل بأية وسيلة كانت ؟ أم نلجأ إلى هذا الموروث نحتمي به ونكتفي بما حقق من منجزات ؟

يخيل إلي أن الموضوع ذو شقين أو ينبغي أن يكون في شقين :

١ – التعبير في ميدان العلم والتقنية الحديثة . (التكنولوجيا) .

٢ – والتعبير في ميدان الأدب والفن والعلوم الإنسانية .

أما الشق الأول فما أتردد في أننا يمكن أن نتجاوز ، بل يجب أن نتجاوز الموروث في هذا الميدان ، ونأخذ بأحدث أساليب التعبير . والتي وصل إليها العقل والعلم . ذلك لأن التعبير هنا يتجسد بالدرجة الأولى في معادلات وقوانين ونظم علمية لاتستطيع منجزاتنا الماضية أن تغني عنها ، ولا أن تسد شيئاً من فراغها الهائل الذي نشكو منه . التعبير الذي تتخذه الرياضيات الحديثة وسيلتها في البحث والكشف مثلا لابد أن يكون هو نفسه النموذج الذي يحتذى به عندنا وعند غيرنا . لاجدال في هذا الميدان إذاً في رأيي . فلننتقل إلى ميدان الأدب والفن والعلوم الإنسانية .

وهنا أراني مضطراً إلى أن أقسم الموضوع إلى قسمين لا مندوحة عنهما أيضاً :

١ - القسم الأول كل ما يتعلق ببنيان التعبير (أعني اللغة) .

٢ - القسم الثاني كل ما يتعلق بالأداء والبيان والإيصال . وأعني الأسلوب الذي يتخذه الأديب أو المفكر وسيلة للتعبير .

أما بنيان العبارة - اللغة - فإنها أشبه بمنظومة الجسد تتضافر خلاياها في أداء الوظائف التي تتسق بها الحياة . وقد بلغت لغتنا العربية في هذا الاتساق حداً مدهشاً في الدقة والكمال . هناك قواعد لا نستطيع أن نعبث بها دون أن نخل باللغة ونحرفها عن وظيفتها الأساسية : البيان والايصال . فالفاعل مرفوع لأن الرفع وظيفة وليس عرضاً طارئاً . أنه كوظيفة التنفس في المنظومة الجسدية . وكل ما يتصل بهذه الوظيفة يجب أن يحفظ ويصان ، والمفعول به منصوب لأن النصب وظيفة أيضاً وكل ما يتصل بها يكملها وإذا خطر لأحد منا أن يتجاوز مثل هذه الوظائف فإنه يكون كن يحمل سكيناً وهو لايفقه من الجراحة شيئاً ويمزق أوصال الجسد على هواه . أن القانون لابد أن يعاقب مثل هذا العمل ويوقفه فوراً بتهمة الجريمة .

الأسس التي بنيت عليها اللغة يجب أن تصان وتحفظ في رأيي.وأن نلتمس كل يوم طريقة جديدة لعرضها عرضاً ممتعاً جذاباً لأبنائنا الذين يتكلمون هذه اللغة ويعبرون بها عن حقيقتهم ووجودهم . ان أول خطوة نخطوها يجب أن تكون إتقان هذه الأسس . وهذا لا يعني أنها غير قابلة للتشذيب والتسهيل وفقاً لمقتضيات العصر . أنا لا أؤمن مثلا بشيء اسمه « الممنوع من الصرف » ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين . لم هذا الترف اللغوي ؟ ان اللغة قادرة على أن تتجاوزه دون أن يمس ذلك شيئاً في كيانها ووظائفها الأساسية . وهكذا قل في أمور كثيرة ليس هنا مجال سردها وتحديدها .

لنتقن قواعد لغتنا إذاً . أعني لنتعرف بنيتها وأسسها . . ثم ننتقل بعد ذلك إلى ما نريد . وإذا لم نفعل هذا كنا كمن يبدأ ممارسة مهنة الطب قبل أن يعرف شيئاً عن تشريح الجسم وعلم وظائف الاعضاء . بهذه المناسبة أخشى أن يكون الكثير من أدبائنا الشباب قد وقعوا في هذا الخطأ الجسيم . وحملوا مبضع الجراح ، قبل أن يفتحوا أي كتاب من كتب التشريح . هنا نأتي إلى صميم الموضوع الذي طرح من أجله السؤال في رأيي . وهو كل ما يتعلق بالأداء والبيان والإيصال . هل يمكن أن نطلق على هذا كله الكلمة القديمة « الأسلوب » بأوسع وأشمل معانيه ؟

في هذا الميدان يجب أن يتجدد التعبير كل يوم كما تتجدد الحياة كل لحظة إذا كان ذلك في مقدورنا . ولاحدود هنا للتجديد والتغيير . ولكن حذار أن نظن أننا قادرون على أن نخطو خطوة واحدة في هذا المضمار قبل أن نكون قد وضعنا يدنا على قواعد اللغة وأسسها الراسخة ، وأصبحنا قادرين على أن نحمل المبضع ونرتدي لباس الطبيب .

لقد أدرك أجدادنا هذه القاعدة جيداً حين كانوا يوصون تلامذتهم بحفظ الموروث حفظاً مدهشاً في سن مبكرة ، ثم نسيانه بعد ذلك ، لتبدأ مرحلة العطاء المتخصص الذي يحمل كل مزايا صاحبه وكل قدراته على الإضافة والتجديد . تحضرني قصة ذلك الشاعر الناشيء – لعله أبو نواس – وقد آنس في نفسه موهبة الشعر فذهب إلى استاذ كبير من أساتذة اللغة والأدب في عصره ، فإذا الاستاذ ينصح لتلميذه أن يحفظ أربعة عشر ألف ارجوزة من شعر العرب قبل أن يقول بيتاً واحداً . ويصدع التلميذ بأمر استاذه ويحفظ هذا « الموروث » العظيم ثم يعود إليه ليفاجئه الاستاذ بقوله : « الآن . . . عليك أن تنساها كلها كأنك لم تحفظ حرفاً منها . . بعدئذ تبدأ ممارسة موهبتك . . تبدأ قول الشعر . » أنها دعوة صريحة إلى التجديد ، إلى تجاوز « الموروث » . . ولكن بعد هضمه وتمثله ليأخذ منه الجسد ما يحتاج إليه من غذاء .

الوان التعبير . . الوان الأداء . . الوان الإيصال يمكن أن تتجدد كل لحظة ، بل يجب أن تتجدد وتتغير بدءاً من الكلمة التي تستطيع أن تحمل كل يوم شحنة جديدة ، وطاقة جديدة ، حتى العبارة التي تستطيع الموهبة القادرة أن تلون وتبدع فيها ما تشاء . وفي ذلك وحده الدليل على شباب اللغة وحيويتها ومدى قدرتها على الصمود والبقاء .

لم أذكر شيئاً عن اللغة العامية لقناعتي أنها لم تخطر على بال السؤال في شيء . أننا نتحدث عن الصحة والعافية . . أما المرض فله حديث آخر .

• شوقي بغدادي •

حين يؤمن أحدنا بالتطور قانوناً يسري على جميع الكائنات الحية تصبح الإجابة على السؤال المطروح بديهية لا ضرورة للمطالبة بها والتأكيد على صحتها. فما دامت اللغة كائناً حياً فهي إذن خاضعة لهذا القانون ولا يمكن اعتبار الاسلوب الموروث نموذجاً يحتذى به أبد الدهر وإنما هو فعلا نمط من أنماط التعبير اخترعه البشر في فترة تاريخية معينة ومن الممكن تجاوزه بل ينبغي ذلك مادام التاريخ يتحرك ويتطور باستمرار.

ولكن ما هي طبيعة المشكلة المطروحة أولا؟ إذا كان المقصود بالأسلوب الموروث في التعبير هو هذا النوع من طرائق التعبير الذي حال مع الزمن إلى تراكيب جاهزة جامدة يتوارثها الكتاب جيلا عن جيل فإن تطوير هذه التراكيب يتم عملياً بشكل مستمر. وإذا كانت الشكوى ما تزال قائمة، فالسبب في رأينا أن عملية التغيير هذه لم تكن جذرية متكافئة مع المستوى الذي وصل إليه تطور العصر.

ولكن لماذا حدث ذلك؟. ولماذا لم تتطور اللغة العربية تطوراً طبيعياً شأنها شأن جميع اللغات الحية في العالم؟ إذا لم نواجه في إجابتنا على هذا السؤال الأسباب الحقيقية العميقة التي عاقت مسيرة تطور اللغة فإن كل محاولة للتطوير سوف تظل جهداً فوقياً لا يمس الجذور ولسوف يبقى مجرد رغبات مخلصة عاجزة عن تجاوز السطح إلى أعماق المشكلة.

إن اللغة العربية – وحدها دون سائر اللغات – تشكل ظاهرة فريدة في نوعها. فهي اللغة الوحيدة التي بقيت طوال القرون ثابتة على أصول معينة لم يتبدل فيها شيء أساسي، ومعظم التغيرات التي طرأت لم تتناول سوى نوعية المفردات المستعملة إذ سقط بعضها من الاستعمال واستحدث بعضها الآخر ولكن طبيعة التركيب البياني والنحوي ظلت ثابتة دون أي تغير يذكر. ومعظم الدعوات التي تتصاعد من حين لآخر في سبيل تعميق هذا التطور لا تقصد في واقع الأمر أكثر من المطالبة باجراء هذا التغيير في التركيب البلاغي. ومن الممكن القول هنا أن أسس البلاغة في تركيب البيان العربي قد اهتزت إلى حد كبير، وإذا لم يتح لها أن تظفر بأسس جديدة معاصرة حقاً كل المعاصرة، فهذا راجع في طبيعة الحال إلى الترابط العضوي الكائن بين أسس البيان وأسس النحو العربي التي ظلت مقدسة لا يجرؤ أحد على مسها.

فاللغة العربية إذن – على غناها – لغة ستاتيكية ، ومرد ذلك يعود إلى نوع القداسة التي اكتسبتها من خلال ارتباطها بنشأة الدين حين نزل القرآن الكريم بها ، وصار أي مساس بقواعد اللغة وأصول بيانها مساساً بالقرآن والدين نفسه . وإذا كانت البلاغة القرآنية هي ذروة البيان العربي فإن هذه النظرة انسحبت بالتالي مع الزمن على أصول النحو كما انسحبت على طرائق التعبير وما دامت الصلة جدلية بين الاثنين – وأعني أصول النحو وطرائق التعبير – فإن هذا ما يفسر من جهة ثبات الأساليب البيانية ردحاً طويلا من الزمن على نمط واحد مستوحى في أبعد طموحاته من بلاغة التركيب القرآني ، كما يفسر من جهة ثانية طبيعة الاشكال الذي نشب فيما بعد مع تطور الزمن حين وجد العرب أنفسهم يواجهون تحديات العصر ، ويكتسبون الجرأة شيئاً فشيئاً على المطالبة بأسس بلاغية حديثة مغايرة .

ولكن ماذا حدث ضمن إطار هذا الاشكال الخاص بنا ؟ . . إننا نريد الحفاظ على أسس النحو العربي التقليدية خشية المساس بلغة القرآن ، ولكننا في الوقت ذاته نطمح إلى لغة حية متطورة الأساليب معاصرة الطرائق . ومما زاد هذا الإشكال صعوبة أن العصور الحديثة حملت معها أخطاراً جديدة راحت تهدد الأمة العربية وتحاول تفتيتها ، ووجد العرب أن اللغة الواحدة المتوارثة هي ضمانة أساسية في الحفاظ على وحدة أمتهم حيال أخطار التجزئة التي كان يسعى إليها الاستعمار العالمي وما يزال بمختلف الوسائل والاغراءات . وهكذا اكتسب الحفاظ على وحدة اللغة وأصولها المتوارثة بعداً قومياً أضيف إلى البعد الديني فصارت اللغة بهما أكثر مناعة ضد تيارات التطور المعاصرة .

إذا فهمنا القضية على هذه الصورة فما هي إذن الامكانات المتاحة في الوقت الحاضر لتطوير الأساليب الموروثة ؟ .

يبدو لي أن هذه الامكانات محدودة جداً، ولسوف تبقى زمناً طويلا محدودة حتى يفهم العرب أن المساس بالنحو ليس اعتداء بالضرورة على الدين ، وأن العملية حين تتم باجماع العرب فلن تشكل بالتالي خطراً على وحدتهم . ولكن هذا لا يعني أننا يجب أن نقف مكتوفي الأيدي في انتظار هذه القناعة . إن إيقاع العصر السريع لا يرحم ولا يسمح بانتظار من هذا النوع . ومن الممكن البدء بعملية التطوير هذه والتي ابتدأت بالفعل ولكن بشكل عفوي على الأغلب وغير منظم وذلك بنقلها من حالة العفوية ، والاجتهادات الفردية ، والمحاولات غير المبرمجة، إلى مستوى التخطيط الواقعي المنظم، وإضفاء صفة التعميم على الاجتهادات الفردية الناجحة ..

ولا ريب أن هذا العمل الكبير لا يقوم به المختصون وحدهم سواء أكانوا أفراداً أم مؤسسات ، وربما كان دور الجماهير العادية في هذا المضمار لا يقل أهمية عن دور هؤلاء إن لم يكن يزيد عليه في بعض الأحيان . أما دور الأدباء فإنه يأتي في الطليعة . ومن خلال نماذجهم الأدبية الناجحة من الممكن أن تتلامح إلى حد بعيد قسمات هذا التطور الحقيقية . إن أدباء اللغات الأوروبية المعاصرة مثل الفرنسية والإيطالية والإسبانية هم الذين فرضوا لغة الحياة الجارية بعد أن كانت اللاتينية هي اللغة الرسمية المعتمدة في معظم مرافق حياتهم . ومن المؤكد هنا أن ما نسميه باللهجة أو اللغة العامية يمكن أن يكون رافداً كبيراً في هذا المجرى المفتوح . والحصانة الوحيدة ضد الابتذال ، أو التقعر على السواء هو جو التفهم الواقعي المتحرر الذي لا يخشى أن يتبنى أي تغير كان مادام ذلك في مصلحة التطور الصحيح والمواكبة المنسجمة مع ركب المعاصرة المتدفق .

ومن الممكن أن يتم هذا على جميع المستويات سواء أحدث في استخدام المفردات المستحدثة – معربة كانت أم منحوتة – أم في الاشتقاقات الجريئة ، أم في التراكيب المبسطة على أن يتم هذا العمل بشكل متلاحق مستمر ومنظم ضمن نشرات دورية عربية الاجماع ، وقواميس متطورة ، وكتب مدرسية تشرف على إصدارها مؤسسات عربية ثورية التفكير وذات صلاحيات فعالة .

كل هذا ، وغيره ممكن وضروري إلا أن جدواه سوف تظل محدودة وسطحية مالم نتخلص أولا من سلطان المحرمات التوتمية ، ونواجه الواقع بروح عصرية متحررة من العقد والغيبيات . في مثل هذا المناخ الأمثل يمكن لنهر التطور أن يجري سريعاً بلغتنا العريقة دون عائق مصطنع كأعرق وأعمق ما تكون عليه الأنهار الطبيعية الكبرى . .

إن اللغة ليست إلا من صنع البشر . ومادام البشر الذين صنعوها يتطورون فإن لغتهم يجب أن تتطور معهم وإلا انقطعت عن الحياة وصارت عقبة في طريق التقدم بدلا من أن تكون قوة دافعة تعين على المضي قدماً في هذا السبيل .

• أحمد دحبور •

أرجو ألا أبدو متلاعباً بالألفاظ ، إذا كان جوابي الأولي عن الأسلوب الموروث في التعبير ، هو أن هذا الأسلوب نموذج يحتذى ، ولهذا بالضبط أرى من الضروري تجاوزه . كيف ؟ لنتفق أولا أن الأسلوب هو الشكل الذي لا يمكن بدونه التعبير عن أي فكرة أو موضوع ، بل لا يمكن لما يسمى بالمضمون – وأنا هنا ماأزال أستعمل الاصطلاحات التقليدية – أن يوجد أصلا دون الأسلوب . بعد هذه البدهية أريد أن أصل إلى أن الأسلوب منبثق عن المضمون وتابع له ؛ ولهذا فبقدر ما يكون الواقع والوعي متحركين ، أي بقدر ما يستجد من الهموم والقضايا والأسئلة على المبدع أو المفكر ، تستجد – أو ينبغي أن تستجد – الأساليب والأشكال التعبيرية الملائمة ، وهذه العلائق التبعية بين المضمون والأسلوب ليست علاقة ميكانيكية ، وليس لها أن تكون كذلك ، فقد يتبثق عدد من الأساليب عن مضمون واحد . إن الفخر في الشعر العربي القديم مثلا موضوع محدد ، شكلته علاقات تاريخية اجتماعية ثقافية معينة ، ومع ذلك فنحن نميز بسهولة بين طريقة عنترة في فخره ، وطريقة المتنبي في الموضوع نفسه .

فإذا كان موضوع كالفخر ، له طبيعة شبه سكونية ، كشف عن طرق مختلفة في التعبير ، فماذا عن القضايا الإشكالية التي تطرح أسئلة جدية على وعي المبدع والمتلقي ؟ إنه من المستحيل أن نضع تراثنا في كيس واحد، وننظر إليه كجملة تراكات ثابتة ، ولكننا إذا أخذنا الخطوط العريضة لما هو ثابت في هذا التراث (وأنا هنا أقصر كلامي على الشعر) فإننا نجد نظاماً تنسيقياً يشتمل على أبواب وتبويبات ، باب الفخر ، باب المديح ، باب الغزل ، باب الرثاء ، باب الهجاء ، باب الوصف ، باب التأمل . . الخ ، وهذه الأبواب غالباً ما تفضي إلى غرف خاصة بها ، قد يفتح شاعر ما نافذة بين غرفة الغزل وغرفة الفخر مثلا ، لكن هذه النوافذ مرهونة جميعاً لدى عمود الشعر الممتد منذ « هل غادر الشعراء من متردم » في الجاهلية ، إلى « أكل فصيح قال شعراً متيم » في مرحلة الأفول العباسي ، صحيح أن بعض الشعراء الشجعان اخترقوا هذا النظام ، لكن حتى هؤلاء كانوا عند اللزوم يلتمسون عمود الشعر ، فبشار بن برد لم يصل إلى مدح « عقبة الخير مطعم الفقراء » إلا بعد أن حذر صاحبيه من أم العلاء وعينها الحوراء ، وبعد أن أسهب في وصف رحلته الصعبة ، حسب

الأصول . . ومنذ الأفول العباسي إلى ما نسميه بعصر النهضة ، امتد موات فني وإبداعي لا يعنى به السلفيون أنفسهم ، أما مرحلة النهضة فهي لم تبدأ بالبحث عن أشكال جديدة في التعبير تستجيب للنهوض المقترح ، بل شهدت عودة حماسية إلى التراث ، على أن هذه الحماسة لم تحمل بطبيعة الحال مساهمة نقدية أو حتى محاورة ، لقد كانت مجرد محاكاة ، وأصبح من مفاخر البارودي مثلا أنه فاق جريراً برثاء « حليلته » ، أما شوقي فلعل رفاته ماتزال تتساءل إذا كانت نهج البردة قد تفوقت على بردة البوصيري أم قصرت عنها . بهذا المعنى كان الأسلوب الموروث في التعبير نموذجاً يحتذى ، ولكن ليس بالضرورة أن يكون « مايحتذى » مثالا ومقياساً ، كما ليس بالضرورة أن يحمل قيمة إيجابية ، ولقد كان السؤال دقيقاً حين تحدث عن الموروث لا عن التراث ، ومرة ثانية أشير إلى أن هذا ليس تلاعباً بالألفاظ ، فالفرق كبير بين الموروث كقوة ضاغطة بفعل التراكم والسكونية ، وبين التراث كتفاعل بين لحظات تاريخية ماتزال متلاحقة ، وإن الفهم الإنشائي التبويبي للفن يدخل في جملة الموروث ، بل إنه قوامه الأساسي ، حتى لتبدو الإضاءات التي قدمها التراث كمجرد عروق من الذهب في جذع جبل ضخم .

والآن ، ونحن بصدد علاقات جديدة ، اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، تتداخل فيها ، وتسهم في صيغتها علاقاتنا بالعالم ، موقفنا من تفاصيل هذا العالم ، وموقفها منا ، كما تتداخل فيها وتسهم في صيغتها أيضاً موروثاتنا التاريخية أو بعضها ، الآن . . تجد من الطبيعي أن الشعر لم يعد يقاس بالموضوعات والأبواب ، بل أصبح رؤيا شمولية تقدم تصور الشاعر العالم ودوره فيه ، وهكذا تهدمت أوتاد بيت الشعر ، واستبدل البيت نفسه بالبناء المتكامل الذي يشكل القصيدة الحديثة ، لقد انكسر إيقاع الحياة البدائية مع ضجيج العصر ، فانكسر إيقاع القصيدة السلفية ، وأتيحت اللغة فرصة المغامرة والبحث بعد أن كانت مجرد أداة تعبير ، وهذا استبعد مفردات كثيرة وكشف عن مفردات كثيرة ، والشعر العربي المرتبط بالمناسبات تاريخياً ، أصبح له تناوله الخاص وفهمه الخاص للمناسبات. الشاعر الآن ليس مطالباً أن يرثي أخاه ، لكن موت أخيه يشكل مع عدد آخر « من المناسبات » ضمن معطيات وتحولات وأسئلة كثيفة ، قصيدة حديثة تسهم في تقديم تصور الشاعر للمرحلة ، وربما للزمن ، في الوطن ، وربما في العالم .

لكن هل يعني هذا إحراق أطنان من الورق حبرها أسلافنا ، والاكتفاء بنسخ عنها في مكتبة الظاهرية ؟ .

صحيح أن عروق الذهب هي مجرد عروق في جذع الجبل الضخم ، ولكنها ذهب ، وإذا كان شعراء الانحطاط ، والشعراء النهضويون بعدهم ، معنيين بهذا الذهب لترصيع بيوتهم وتزيينها ، تضميناً واقتباساً وما إلى ذلك ، فإن الشاعر الحديث يطلب هذا الذهب لتحقيق مهمات أنبل وأهم بكثير ، فلقد أنجز الشاعر الحديث اكتشاف الكيمياء ، وهو يدرك بالتالي أهمية التفاعلات بين العناصر التي وفرها العصر وبين العناصر القديمة القابلة للتفاعل ، ثم إن الشاعر الحديث لا يكتفي بالتفاعل ، بل يهمه التركيب الذي يفضي إليه هذا التفاعل .

وفي هذا السياق ، لابد من التشديد على ضرورة إثراء العقل النقدي وتغذيته ، فقد وصل إلينا الموروث الشعري لابنصوصه فقط ، بل بالأحكام المرافقة ، . هذا أمدح بيت ، وهذا أغزل بيت ، وهذا أهجى بيت إلخ .. إن الأحكام هذه تشكل بدورها جزءاً من الموروث ، بل إنها أخطر ما فيه ، بسبب الإرهاب الذي تلحقه بنا سلفاً فنبدأ بالتنقيب عن « الذهب » في الجبل غير المقصود .

إن الذهب المتوخى « في الموروث الشعري العربي خاصة » ليس كمية من النصوص الجميلة ، لأنه من العدل القول إن النصوص الجميلة والغنية في تراثنا العربي أكثر من أن تستوعبها بضعة مجلدات ، ولكنها ليست الذهب المقصود بالضرورة ، إن الذي يهمنا هو تلك الإضاءات الجريئة والمغامرة التي استطاعت أن تفعل شيئاً ، حتى لو كان هذا الفعل هو الاختناق (من المفارقات في شعرنا العربي أن تنطوي مدرسة أبي تمام لتسود مدرسة البحتري ، مع أنهما كشاعرين فردين موجودان) ويجب الاعتراف أن عملية التنقيب ، بهذا المنطق ، صعبة وغير آمنة ، ولكن من قال إن طريق الإبداع سالكة دائماً ؟

ثم أن عملية الإفادة من هذا « الذهب » لاتقل صعوبة عن البحث عنه ، إن العروق المبعثرة في جذع الجبل بحاجة إلى الصهر من جديد ، وإلا بقي الشاعر الحديث تقليدياً بمواصفات التقليدية ، فالشاعر الذي يجعل البحتري مثله هو تقليدي ، وكذلك الذي يجعل مثله أبا تمام ، لكن الذي يطرح على نفسه عذابات أبي تمام وجهده ، بين عذابات وجهود معاصرة ، هو الشاعر الحديث .

أحسب أني – إلى هنا – أجبت بضرورة تجاوز الأسلوب الموروث ، لكن هل هذا ممكن ؟ طبيعي أنه ممكن مادام ضرورياً ، ولكن الصعوبات التي تواجه الشاعر الحديث ، في طريقه إلى التجاوز صعوبات جدية ومضنية ، فالشعر العربي ، تاريخياً ، فن سماعي ، بل إن خطباء

المنابر يزينون خطبهم ، أو مواعظهم ، بأبيات من الشعر ، وهذا الوضع أسهم تاريخياً في تكوين الأذن العربية تكويناً تطريبياً ، والتطريب يميل إلى الاستسهال ؛ بينما الشعر الحديث يتجه إلى التركيب فالصعوبة . ليس بالضرورة أن يكون الحديث صعباً ، ولكن لم لايكون ؟ لم يحال بينه وبين البحث لأن في وعي صاحبه سلفاً أنه سيواجه جمهوراً ذا طبيعة خاصة ؟ ألا يكفي الشعر العربي شهيد عظيم بحجم أبي تمام ؟

هذه الأسئلة توصلني إلى أهم مايعنيني ، وهي أن ثورة علم الجمال تحتاج إلى ثورة المجتمع وتكملها ، ومن الظلم أن يكون المبدع هو المسؤول الوحيد عن تطوير المجتمع أو تثويره ، لأن سؤال الثورة يتجه إلى ممثلي الطبقات ذات المصلحة في الثورة .

على أن المبدع ، بنسبة ما ، مسؤول أيضاً .

● بندر عبد الحميد ●

أتصور أن الإنسان البدائي كان يعوي كالحيوانات ، كان محروماً من اللغة ، تماماً كما كان محروماً من المعرفة — مع المعرفة تطورت اللغة .

ونحن لانستطيع أن نخترع لغة ، وهذه ليست مهمتنا ، فاللغة شجرة قديمة تتجدد ، مع الحياة ، تحمل التراث الثقافي وتتقدم به ، تخلع أوراقاً قديمة ، وتثمر بأوراق جديدة .

ونحن لانستطيع أن نتجاوز الموروث ، بالاهمال ، وانما نتجاوزه بالفهم ، والاستيعاب ، فهم الماضي والحاضر ، لأننا نريد لغة متفتحة على العصر تستوعب معطياته ، فكل تقدم في العلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية ، ينعكس على الحياة ، وينعكس بالتالي ، على اللغة ، يخلق علاقات جديدة معها .

اننا نعجب بأسلوب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي والهمذاني ، نثراً ، ونعجب بالمتنبي ، شعراً ، ولو استطاع أحدنا أن يكتب بلغتهم ، بالمستوى نفسه ، لما كان له هذه الأهمية . فاللغة مشروطة بعصرها ومعطياته . بقدر ما نقترب أو نبتعد عن الثقافة الموروثة نقترب ونبتعد عن اللغة الموروثة .

السؤال المستمر هو : ماذا يمكن أن نخلق بهذه اللغة من ثقافة ؟ وهذه مسؤولية الكتاب ، وليست مسؤولية المؤسسات الأكاديمية ، فالمجامع العلمية والجامعات تحنط اللغة ، أكثر مما تعمل على تحديثها ، ونحن نتذكر أن المويلحي ومحمود تيمور وطه حسين ساهموا في صياغة مصطلحات جديدة ، كبديل للمصطلحات الأجنبية التي « تتسلل » إلى لغة الناس . ولكن أكثر هذه المصطلحات كان ميتاً أو حبيس القاموس . بعضها كان يدعو إلى الضحك ، لأنه كان صحيحاً في اشتقاقه ، صعباً في اللفظ والتداول، فالمهم في اغناء اللغة بالجديد هو المتانة والبساطة ، تتغير العلاقة مع اللغة بتغير شروط الحياة ، وهو تغير مستمر .

ثمة علاقات عاطفية مع اللغة تنشأ منذ الطفولة ، وتتغير . كلمة ما تفتح باباً إلى الفردوس أو الجحيم ، ليس لأنها تحمل هذا المعنى ، وانما لأن الإنسان يبني علاقة خاصة مع الكلمات ، ومع اللغة .

• احمد يوسف داود •

يثير التعبير باللغة مشكلة حيوية حادة ، ليس بالنسبة للأدب والفكر ، بل وللحياة أيضاً. ولست أريد بهذا أن أشير إلى ظواهر سطحية ، كاختلا ف فهم عبارة بين شخصين مثلا ، بل أريد أن أشير إلى ذلك الفعل المتبادل بين اللغة والحياة ، اللذي تفرضه كل منهما على الأخرى فتؤثر فيها تأثيراً مباشراً وغير مباشر ولكنه تأثير معقد على كل حال .

إننا في لحظات الخلق الأدبي ، نحس بنوع من التحدي تفرضه اللغة علينا ، ونحس بتواطؤ الفكرة واللغة ، للخروج من أسر القيود التي تكون قد وضعناها لهما في داخلنا بشكل غامض .

إننا نحس أن عبارة ما ، تفرض نفسها ، رغم أننا كنا نفضل ، أو ربما نستهل — عبارة أخرى . وهذا يعني أن اللغة تطوع الفكرة قليلا أو كثيراً وبقدر ما عملت الفكرة من جانبها على تطويع اللغة . وعند هذه اللحظة تكون الفكرة المعبر عنها بنمط تعبيري ما ، قد استقلت عنا ، وأصبحت خارج إرادتنا .

لقد اكتسبت وجودها الفاعل الخاص ، وراحت من جديد تساهم في إيضاح نفسها لنا ، نحن اللذين تكونت هي في داخلنا . واكثر من ذلك ، راحت تفتح دائرة جديدة من الأفكار

– الاحساسات ، المرتبطة بها ، في أعماقنا من جديد . وتستحثنا على استكمال خلقها لتكون لها دورة حياة كاملة متكاملة ، كأي مخلوق حي .

ان اللغة ، هكذا ، حياة تتكون فينا كما تكونا نحن في الطبيعة .

ومثلما خضع تكويننا الظروف الموضوعية في الطبيعة والبيئة والمجتمع ، كذلك يخضع تكوينها لجملة من العوامل الموضوعية المتعلقة بنا ، عبر صيرورة حياتنا .

وكما لم نأت نحن فجأة – هكذا – إلى الواقع .. بل خضعنا لسلسلة من التطورات الهائلة البالغة التعقيد ، عبر مجمل حياة أسلافنا الماضية ، وورثنا أهم ما تركته الحياة الانسانية المتطاولة في الماضي ، من آثار .. فكذلك هي اللغة لم تأت مصادفة – هكذا – منبتة عن إرثها التاريخي . ونحن حين نريد التعبير بها لانستطيع تجريدها من هذا الإرث العظيم .

غير أننا بالمقابل لانستطيع أن نمنعها من تحقيق طاقتها الحيوية الخاصة التي لايمكن أن تتوقف . وإلا قتلناها نستطيع بعبارة أخرى ، أن نقول : إن اللغة كإبداع انساني تملك في داخلها ، وعبر علاقاتها الذاتية ، امكانيات الكائن الحي وقدراته وفعله . وهي تؤثر فينا بمقدار ما نؤثر فيها .

وتحت هذا التأثير المتبادل تتولد أنماط التعبير الجديدة التي هي – كما نرى الآن بوضوح – معطى معقد لديالكتيك العلاقة بين الذاتي والموضوعي .. التاريخي والراهن .. الواقع والحلم ...

إن أولئك الذين يريدون تحويل اللغة إلى هيولى قبل التعامل معها ، يصلون إلى نفس المواقع التي يصل إليها من يريدون إيقاف حيوية التجدد في بنيتها ... إنهم جميعاً : يقتلونها ! !

إن اللغة تفرض علي بمقدار ما أفرض عليها ، عندما أستعملها ... ولهذا لم أعد أجد السؤال المطروح : « هل تعتبر الأسلوب الموروث في التعبير نموذجاً يحتذى به ، أم أنه نمط من أنماط التعبير ، يمكن أو ينبغي تجاوزه ؟ » سؤالا ذا أثر كبير خاص ، أو أهمية خاصة . لأن طبيعة اللغة ، الحية ضمن شروط وجودها المعقدة ، تفرض تجاوز الأنماط التعبيرية الموروثة ، مستقلة إلى حد كبير عن رغبتنا في ذلك أو عدمها .

• د. عبد السلام العجيلي •

تطرحون هذا السؤال في صيغة توحي بأن الإجابة على أحد شقيه بالإيجاب تستدعي نفي الشق الآخر . وانا أرى انه يمكن للمرء ان يقول بإيجابية الشقين دون أن يقع في التناقض . فالاسلوب الموروث في التعبير نموذج يحتذى ، وهو في نفس الوقت نمط يمكن تجاوزه وينبغي تجاوزه .

الأسلوب الموروث في التعبير نموذج يحتذى في أسسه وفي منطلقاته ، لا في شكله الظاهري أو في صيغ بنائه التي حولها اللاحقون إلى قوالب جامدة . لندع الأسلوب القرآني جانباً . فعلى ان الاقتباس من الكلام المنزل والاستشهاد به قد جرى عليهما الأولون بكثرة ، فانهم قد تباعدوا عن تقليد الأسلوب نفسه في التعبير ، الا ما كان في حالات نادرة مثلما فعل أبو العلاء المعري في « الفصول والغايات » . وانما نعود إلى أسلوب التعبير الموروث عن العرب فيما ما وصل الينا من كلامهم في جاهليتهم وفي العهد الاسلامي العربي الممتد حتى أوائل الحكم العباسي . الأساس في هذا الأسلوب ان يكون وافياً بالبيان عما يراد ان يعبر عنه دون الوقوع في فضول الكلام أو الهذر ، ومنطلقه الصدق ومجانبة التكلف والتصنع . ولقد وصلت الينا من هذا الأمد الزمني مقطعات شعرية قصيرة ، ومطولات ، وآثار نثرية مختلفة ، تحمل كلها ما ذكرت من خصائص . لنأخذ مثلا المعلقات . انها قصائد طويلة ولكن البيان فيها محكم واللفظ مفصل على قدر المعنى ، والتطويل في بنائها تابع لتعدد المواضيع وليس جعجعة فارغة حول موضوع واحد أو مواضيع قلة . ثم ان الصدق في التصور وفي التعبير صفة أساسية في هذه الآثار الأدبية . فقد اعتمد قائلوها في تجويدهم الفني على ملاحظات مقتبسة من واقعهم ، أدوها بلغة يفهمها من يعيشون معهم هذا الواقع . وصف امرؤ القيس الليل والبرق والجياد والنساء وصف من عاش حياة التشرد المترف في صحارى جزيرة العرب ، مستخدماً صوراً اقتبسها من جوانب تلك الحياة ، وبمفردات وأخيلة قريبة من ادراك من هم مهيأون لسماع معلقة امرىء القيس في زمانه وفي بيئته . ومثل امرىء القيس في معلقته الشعراء الآخرون في مطولاتهم أو في مقطعاتهم القصيرة ، والخلفاء الراشدون في وصاياهم لقادة جيوشهم ، ومعاوية وزياد والحجاج في خطبهم ، الى أن نبلغ الجاحظ في مؤلفاته الكثيرة المتعددة المضامين .

من هذه النواحي يمكننا اعتبار الأسلوب الموروث في التعبير نموذجاً جديراً بأن يحتذى .

فالصدق ووفاء الشكل بالمضمون بدون سفسطة ولا تحذلق ، إلى جانب الموهبة الفنية ، أعطيا الآثار البيانية الموروثة قيمتها عند أبناء الزمن الذي قيلت فيه ، واكسباها ديمومة انتقلت بها عبر الأزمان المتلاحقة حتى وصلت الينا في الزمن الحاضر . ولابد لنا من القول بأننا نفتقد هاتين الخصلتين في كثير من نتاجنا الأدبي المعاصر ، واننا نرد إلى هذا تجانف الجماهير عن هذا الضرب من النتاج الذي يعتمد على التكلف وقول مالا يفهم والابتعاد عن واقع من يكتبونه .

على أن الأسلوب الموروث في التعبير هو في نفس الوقت نمط يمكن تجاوزه . ولم لا ؟ ان الذين أورثونا هذا الأسلوب ليسوا مخلوقات فوق البشر ليكون بنيانهم العبقري مما لاتستطيع مواهبنا البشرية ان تأتي بمثله أو بخير منه ، ولا كانوا مشرعين لطرق التعبير رسموا لنا بما انتجوه حدوداً يحظر علينا تخطيها . بما كان في تناولهم من أدوات وبمواهبهم الفنية عبروا عما في تفكيرهم وفي احساسهم بالنتاج الذي وصل الينا ، وما خطر لهم ان يجعلوا من ذلك النتاج سوراً يمنع لاحقيهم ان ينفذوا منه إلى آفاق جديدة . وقد غبرت قرون تعدت فيها الهمم عن الإبداع وأصبحت فيها صيغ الأولين الحية قوالب جامدة رأى فيها الناس الحدود التي لاتتخطى . تلك كانت قرون الانحطاط ، فإذا وجد اليوم بيننا من يقول بأقوال تلك القرون فعصر هذا القائل ليس عصرنا الحاضر ، وعقليته ليست عقلية أبناء هذا الزمن .

ذلك ان تجاوز الأسلوب الموروث في التعبير اذا كان ممكناً في كل الأزمان ، فإنه في هذا الزمن حاجة لابد منها : في هذا الزمن ينبغي ، حتماً ، تجاوز ذلك الأسلوب ، حسب تعبيركم في الشطر الأخير من السؤال . فالآفاق الواسعة والمتعددة التي تفتحت في أيامنا للحياة وللتفكير وللإبداع خلقت حاجات جديدة تستدعي التعبير عنها ، كما خلقت امكانيات جديدة للتعبير بها ، بل اننا لو رجعنا إلى الأسلوب الموروث نفسه لوجدنا انه لم يكن واحداً في كل أزمانه . لقد تطور وتوسع مع توسع أفق الناس الذين أورثونا إياه . ففي الأدب كان الشعر مقطعات قصيرة فأصبح قصائد طويلة ثم معلقات ، وكان النثر مثلا أو خبراً فأصبح سيرة ثم تاريخاً . ذلك كان حين كان توسع الآفاق يسير ببطء مع الزمن . أما وقد أصبح هذا التوسع يثب وثباً ، فكيف يمكن للمعبر ان يحصر تعبيره في حدود الأساليب القديمة ؟ ليس بدعاً اذن أن تخلق في التعبير الأدبي أساليب مطورة عن الماضي أو مبتكرة ، فينشأ المقال وتنشأ القصة والمسرحية ، وتكون الكتابة للتلفزيون والسينما . ليس كل هذا بدعاً ، بل هي الحاجة الماسة التي تفرض نفسها وتستدعي المزيد في تخطي الأساليب الحاضرة ، فكيف بالغابرة ؟

هكذا ترون اني أجبت على شقي السؤال بالايجاب . على ان ثمة أمر ألفت الانتباه إليه ،

وهو وجوب احسان الاحتذاء بالأسلوب القديم عندما يُراد متابعته ، واحسان تجاوزه اذا أريد تخطيه . علينا ان لانخلط بين هذا وذاك ، وهو ما أراه حادثاً في كثير من أساليبنا المعاصرة في التعبير ، باسم التجديد أو الرفض أو الثورة التي كثيراً ما تكون تغطيات للعجز أو التكلف أو لتقليد من هم ليسوا منا ولسنا نحن منهم . ثم اني عنيت ، فيما تكلمت به ، الإبداع الأدبي بين الفنون عامة ، وهو ما اجدني مؤهلا للتحدث عنه . وما اعتقده ان ما يصح في الأدب يصح في الفنون الأخرى ، وان كان غيري ممن هو اكثر لصوقاً بتلك الفنون اقدر على ابداء الرأي واعطاء الحكم فيما يختص بها من هذا السؤال .

• هاني الراهب •

هذا الموروث لم يورث لي بأنه طريقة منهجية أو علمية . وهذه في رأيي مسألة بالغة الأهمية . ففي عشرين السنة الأخيرة ، انحط مستوى اهتمامنا بالتراث الأدبي واللغوي إلى درجة لايحسدنا عليها أحد ، بل وربما صرنا نستحق الرثاء بسببها .

ليس القصد من الملحوظة السابقة التشهير بأجهزة الدولة الثقافية والتربوية ، بل توكيد مسلمة أساسية بسيطة هي أن اللغة العربية في حياتنا المعاصرة أهمية قومية ونضالية حاسمة . وأنا أنظر إلى اتقانها وإجادتها نظرة سياسية بالدرجة الأولى ، ثم أدبية بالدرجة الثانية . وفي تصوري أن عبارة « الأسلوب هو الشخصية » صحيحة وضرورية ، بمعنى جماهيري نضالي ، وليس فقط بمعنى فردي .

الحديث عن أسلوب موروث ، إذن ، حديث ذو شجون . والسؤال الذي وضعته مجلة (المعرفة) أمامنا ، في إطار الغرض الخاص الذي تستهدفه ، سيكون مع الأسف موضوعاً لإجابة بتراء تستمد مضمونها من جهد شخصي ، وليس مما يكتسبه المرء في المدرسة والجامعة والمراكز الثقافية . فإذا كان اهتمام المرء قوياً بالتراث ، يكون عليه أن يتتبعه على طريقته ، وبحسب الوقت المتوفر له ، وهو وقت قليل – ودونما منهج متكامل يفضي إلى معرفة استقصادية واستيعابية وآراء نقدية من نوع أحكام القيمة .

وفي هذا المضمار ، أجد أن معرفتي بأسلوب فيلدنغ وجورج إليوت ودوستويفسكي

وبلزاك أكبر وأرسخ من معرفتي بأسلوب ابن المقفع والجاحظ وكتاب المقامات وعصر النهضة. وربما كان السبب الرئيسي في عدم التكافؤ هذا، يعود إلى أن كتب المجموعة الأولى من الأسماء متوفرة أكثر من كتب المجموعة الثانية. وتلك خطورة سياسية وأدبية تضاف إلى الخطورة الأصلية: عدم المعرفة الكافية بالأسلوب الموروث نفسه.

مقدمة طويلة، ولاشك. وأرجو ألا تضني قارئها. الجواب مباشرة هو: الأسلوب الموروث نمط من أنماط التعبير يمكن، وينبغي، أن نتجاوزه.

ألا يمكن أن يحتذى به؟ إلى حد ما فقط. إذا قسمنا عصور الأدب العربي إلى خمسة (الكلاسيكي حتى نهاية القرن الهجري الأول، التجديد في العصر العباسي، الكلاسيكي الجديد بقيادة أبي تمام، والانحطاط، النهضة) فيمكننا أن نلتقط مبادىء عامة ذات أهمية خاصة في المرحلة التأسيسية الراهنة. المبدأ الأول هو أن أسلوب التعبير يتبدل ويتطور: وربما كان مضحكاً إثبات هذا القول، فهو يبدو تحصيل حاصل بالنسبة لعدد من الناس على الأقل. لكن السلفيين من الأدباء والكتاب يجدون في هذا التطور تنويعاً على أصل واحد. وأنا أعتقد أنه لايمكن القول بأن أسلوبي امرىء القيس وابن الرومي ينتميان إلى مدرسة شعرية واحدة. حتى أبو تمام وابن الرومي لاينتميان إلى مدرسة شعرية واحدة. وإن نثر ابن المقفع شيء آخر غير نثر الجاحظ، وهما معاً يختلفان تماماً عن الغزالي وكتاب المقامات.

المبدأ الثاني هو أن هذا التطور في أسلوب التعبير كان استجابة فرضها تطور أعم وأحق أخذ بالمجتمع العربي (والدولي) في كل عصر من هذه العصور. وأننا يمكن أن نستجيب لتطلبات حياتنا الراهنة بالمبدأ نفسه، وليس بالطريقة نفسها.

المبدأ الثالث هو أن الأسلوب الجديد يفرض نفسه دائماً على الأسلوب القويم، مهما قارعه المتخشبون واحتقروه.

هناك إذن ينابيع عديدة «ننهل» منها: خمسة عصور أدبية، بما أنجزته من رائع التعبير ومبتكره وأصيله، سواء في تركيب الجملة وشحنها أم في انتقاء اللفظة، أم في اعتماد الكلمة الدارجة. ولكن أن «نحتذي بها» يعني أن نتصلب كأقزام في قوالب لم تخلق لعقولنا ولا لحساسية عصرنا ومشاكله. من يقرأ بدوي الجبل في هذه الأيام؟ قليل. إنه شاعر كبير، غني الاحساس والخيال والعبارة، لكنه ليس من عصرنا. وشعره مكتوب ليسمعه هارون الرشيد أو سيف الدولة، لا ليسمعه «هو ثي منه» عربي.

لماذا نلح هذا الالحاح على عصرنا ، وحساسيته ؟ ألأننا لرجسيون ؟ ألأننا « قليلو أصل » نتنكر لتراثنا ؟

كلا . سبب الالحاح هو أننا مطالبون بأن نتكون ونتشكل على نحو ما . وإذا لم نفعل بإرادتنا ووعينا ، اضطررنا إلى ذلك بفعل قوى خارجية عنا وغالباً معادية . وللأمر الاخير محاذير : قد يكون تشكلنا شائهاً ، جزئياً ، أو مرضياً ؛ وقد يكون معادياً لمصالح الجمهرة الغفيرة البائسة من الشعب ؛ وقد يكون صيرورة لم نسهم فيها نحن إلا بعنصر الاستجابة – الطوعية أو الكرهية – وبالتالي بقي مالدينا من قدرات على الإبداع إما كامناً أو « محتذياً » بإبداع آخر ، معاصر أو قديم .

لنأخذ على ماسبق مثلا : كيف نكتب جملة ، بالأحرى ، كيف نعبر عن فكرة ؟ هل نقول : « اشتهيت الأذاذا وأنا ببغداذا » ؟ أم هل نصغي لخطابات تلقى في المجالس النيابية والنقابية ونعتبرها مثال الدقة والبلاغة ؟

في تصوري أن التعبير عن فكرة عملية خلق ، لاعملية اقتداء . وهي عملية خلق محاطة بظروف صعبة للغاية . فالذهن العربي المعاصر – بصورة عامة – غير متبلور . المفاهيم رجراجة ، ويمكن لها – إذا استدرجت بالنقاش والتفاصيل – أن تناقض نفسها أو تصير شيئاً آخر أو تتكشف عن سديم . ماهي الطبقة الكادحة ، مثلا ؟ ماذا تعني الثورة ؟ ماذا تعني الامبريالية ؟ ماذا يعني تحرير فلسطين ؟ إلخ ..

كذلك فإن معاني الكلمات لم تكتسب بعدصفة معجمية ، وهي غالباً مثار اختلاف : فلا المعنى الموروث هو نفسه ما نتفق عليه ، ولا نحن نتفق على معنى معاصر اتفاقاً جماعياً (إلا في الكلمات التي تتعامل مع الواقع المادي المحدود) .

كذلك ، ليس في الأسلوب الموروث ما يمكن أن نقتدي به بالنسبة لصياغة الجملة ، ورسم حدودها ، وتعيين ارتباطاتها الشكلية والمعنوية بما يسبقها وما يتبعها . فقديماً لم يكن ثمة اهتمام كاف بالفاصلة ، والنقطة ، والنقطة الفاصلة ، والنقطتين المتعامدتين وغيرهما . كان يكفي للتعبير من نهاية جملة وبدء أخرى ، إيراد حرف العطف (و) والانتقال به إلى فكرة جديدة تماماً . وهذا كله لاتقبله ظروفنا الراهنة . إننا في حاجة إلى التحديد ، وإلى الاتفاق على وظائف تنسب للاشكال (النقطة والفاصلة والفقرة وغيرها) كي يغدو التخاطب (السمعي والبصري) ممكناً ومجدياً . وفي الحالة هذه ، لايمكن أن نتبنى الجملة الانكليزية أو

الفرنسية – وهما أقوى المؤثرات الأسلوبية غير العربية على كتاباتنا – لأن لهما طبيعتين مختلفتين تماماً عن طبيعة الجملة العربية .

التجاوز إذن ضروري . وخلق أسلوب جديد ضروري . والأديب ، بصفة خاصة ، مطالب بكلا التجاوز والخلق لأسباب كثيرة . فنحن – كما سبقت الإشارة – في طور تكويني ، وإن أدنى شعور بالمسؤولية سيلزم الأديب بأن يكون صادقاً مع تجربته وتجربة شعبه ، وأميناً على تطلعات هذا الشعب إذ يحاول التعبير عنها فلا ينقص منها أو يشوهها . ونحن منكوبون ببعض المثقفين الذين يصيغون الجمل صياغة غائمة أخطبوطية، ويقولون المعاني بطريقة عمومية تمط وتتسع حتى لا يغدو لها مدار محدد ، ويعبرون عن تجربة الشعب وهم يتفرجون عليها فيزيدونها تشوشاً واضطراباً . ونحن أيضاً نواجه عصراً حضارياً مثقلا بانجازاته وأطروحاته ، قوياً إلى درجة قاتلة ، سريعاً إلى حد منهك ، ودامياً بصورة مروعة . هذا كله يتطلب منا أن نعرف أين نقف ، وكيف : على رؤوسنا أم على أقدامنا ؟ في المكان الصحيح أم في المكان المميت ؟

والأسلوب في الأدب يستطيع أن يفعل فعلا إيجابياً في هذه اللجمة الطاحنة . ان رسم حدود الجملة ، يرسم معه أشياء كثيرة تتعدى نطاق الفصاحة الأدبية . فهناك من يقول لنا في هذه الأيام إن المبتدأ منصوب والخبر مرفوع ، والمطلوب من الأدباء أن يقولوا لقرائهم ما إذا كان هذا صحيحاً أم خطأ . في تصوري ، إن هذا الرسم مرتبط برسم حدود القضية الفلسطينية ، وشقيقاتها : الحرية والاشتراكية والنضال الطبقي الوحدوي . ليس هو كل شيء ، لكنه جزء حاسم من استجابة كلية لتحد تاريخي .

● رشاد أبو شاور ●

يقال بأن الأسلوب هو الكاتب . فإذا اقتنعنا بهذه المقولة ، أو الخاصة أو الحكمة الأدبية ، فإننا حتماً ، لن نكتب بأساليب الأجداد وبلغتهم . نحن أبناء عصرنا ، وحياتنا بكل ما فيها من تعقيدات ، وبكل ما بلغته من منجزات تقنية ، حضارية ، فكرية .

نحن العرب ، لم نعرف المسرحية ، فهي لم تصل الينا عن طريق الأجداد ، ولكنها تعرضنا

اليها ، عن طريق الترجمة . وكذا الرواية . هذا يعني أن (أساليب) كتابة الرواية والمسرحية ، ستكون حديثة بالنسبة لنا ، لأنها لم تكن معروفة .

أما القصة القصيرة — فإذا اعتبرنا أن المقامات ، والتي هي فن أدبي مختلف عن القصة القصيرة — فأنا أرى أنه لايمكن كتابتها ، والتعامل معها ، بأسلوب المقامة ، لاختلاف العصر ، وتطور اللغة .

الإنسان يتطور في الزمن ، واللغة تتطور معه .

أما بالنسبة للشعر ، فإن الشاعر العربي المعاصر (يجب) أن يستفيد من الشعر العربي القديم ، الجاهلي أو شعر العصور الأخرى . لقد حقق الشاعر العربي انجازات كبيرة ، نتيجة (لتراكم) الفجوات ، على مدى المرحلة الشعرية والحياتية العربية .

ترى ، هل يكون رفض التراث ، رفضاً قاطعاً ، هو الشرط الأول للتطور ؟

لقد بدأ في فترة ، وكأن الأمر كذلك .

لقد تعلمنا في المدرسة كيف نكتب موضوع الانشاء ، وكيف (نبصم) قواعد اللغة ، ولكننا لم نتعلم كيف نحب اللغة ونحترمها .

ولقد تسربت الينا — نحن الشبان الذين كانوا (يدوزنون) أنفسهم للكتابة — عدوى الاستهتار باللغة ، وعدم احترام التراث . بل أن السمة الأساسية للكثيرين من المثقفين كانت ، وربما لاتزال ، احتقار اللغة ، وعدم احترام التراث ، وكنا نعرف عن (رامبو) واشعاره ، وسيرة حياته ، أكثر بكثير مما نعرف عن المتنبي ، والبحتري ، وأبي تمام ، والحمداني ، وغيرهم .

وكنا نعرف قصص سارتر ، وكامو ، أكثر بكثير من معرفتنا بمقامات الحريري ، والهمذاني ، وألف ليلة وليلة .

وكنا نعرف عن الفلسفة الوجودية ، أكثر بكثير من معرفتنا بالفلسفة العربية الإسلامية ، لابن رشد ، وابن خلدون ، والمعتزلة ، الخ .. الخ .

وفي ذات فترة هبت رياح الانعزالية ، والاقليمية ، متقنعة بحجة تسهيل اللغة ، فاقترحت تلك الانعزالية ، الكتابة بالحرف اللاتيني . نعم . إذن ليس صدفة أن الانعزالي ، الاقليمي ،

عدو العروبة سعيد عقل ، الداعية الكبير لهذه البدعة الاجرامية ، قد بلغ هذه الأيام حالة الجنون . هذه نهاية طبيعية لاعداء الأمة .

علينا أن نربط ، هنا ، بين تجهيلنا بتراثنا ، وبين الاقليمية الطائفية ، وبين الدعوة لاستخدام الحرف اللاتيني . بل ، وأيضاً ، أن نعود لنقرأ واقع تدريس اللغة العربية ، المتوارث منذ أيام التخلف .

° ° °

النحات ، لايمكن أن يعمل ازميله في الصخر ، الا إذا عرف (نوع) ، ذلك الصخر ، أو المادة .

الفنان التشكيلي ، يختار القماش ، والألوان ، كي تتحمل الضوء والرطوبة ، والحرارة ، الفنان لايبدد مادته في الفراغ ، انه يطمح أن تظل بين الناس ، وأن تدوم ليراها الناس ، ولتحمل روح انسان ، ووجهة نظره في الحياة .

الكاتب أيضاً كذلك . وهو يجب أن يكون كذلك . اللغة ، في أحد التعريفات ، وسيلة تفاهم . فكي يكون التفاهم سليما ، يجب أن تكون الوسيلة سليمة .

وكي يكون التفاهم جميلا ، يجب أن تكون الوسيلة جميلة . وعند هذه النقطة ، يقع بعض الكتاب في الخطأ ، أنهم يظنون أن (جمال) اللغة ، يأتي من المفردات التي تنتقى بعناية ، ومن ثم ترص متجاورة ، على الورق .

مرة ، تساءل أحد الفنانين ، ماذا لو احضرنا أجمل أنف لامرأة ، ووضعناه في أجمل وجه ، وركب الوجه والرأس على أجمل عنق ، والعنق بين كتفين انيقين ، وهكذا ، يعني تجميع كل القطع الجميلة ، من نساء جميلات (لصنع) أجمل امرأة في الكون ، فماذا تكون النتيجة ؟ لقد (طلع) مع الفنان ، أن النتيجة ، ستكون محزنة ، لأننا سنشاهد أمامنا أبشع امرأة .

اقرأوا بعض القصص القصيرة ، والروايات ، ثم تمعنوا في (اللغة) إن استطعتم ، ألا ترون أن عملية التجميع ، والانتقاء ، يقصد بها إبهار القارئ ، وأن النتيجة ، في النهاية لن تكون لصالح الكاتب ، لأننا سنقرأ (اغرب) لغة ، في أسوأ قصة ؟

أيها العربي اعرف نفسك . !

ولكن كيف يعرف هذا العربي نفسه ؟ .

يجب أن يعرف لغته قراءة وكتابة ، كي يستطيع قراءة تاريخه ، ويجب أن يطلع على تراث هذه الأمة . وهذا التراث هو شعرها، وفكرها ، وأساطيرها ، ومكونات حياتها النفسية ، والاجتماعية ، والروحية . أننا هنا نستطيع أن نستبدل الشعار ليكون ، احترم تراثك أيها العربي ، وكي لا يغضب بعض الكتاب الثوريين والمتمردين ، نقول : تعامل مع تراثك أيها العربي ، وبعدئذ قرر ، ما هي الجوانب المفيدة في هذا التراث .

لقد رأينا في دمشق ، قبل ثلاثة أعوام ، العرض المسرحي الذي قدمه الطيب الصديقي ، مقامات بديع الزمان الهمداني ، اليست المقامات من التراث ، ثم ؛ هل المقامات مسرح ؟ إنها ليست من المسرح ، ولكن هذا المخرج الذكي،غير المعقد من التراث، استطاع أن يجعل من المقامات عرضاً جميلا ، شيقاً ، موحياً ، عصرياً .

هذا هو التعامل مع التراث . وهذه هي الاستفادة من التراث .

° ° °

ما هو دور اللغة في الحفاظ على (الشخصية) العربية ؟

قال لي احد الأصدقاء ، ان المكتبات منتشرة في البيوت العربية ، في الأرض المحتلة ، وقال ، وهذا صحيح ، أن المعدل الوسطي لطبع أي كتاب عربي يبلغ العشرة الآف نسخة ، وأن بعض الاعمال الشعرية المبكرة لمحمود درويش ، وسميح القاسم ، وراشد حسين ، وتوفيق زياد ، قد بلغت العشرين الف نسخة. التشبث باللغة ، والحفاظ على الشخصية ، يصون اللغة . هذا ما يحدث هناك .

إذن ، وهذه نتيجة ، غير مبنية على فرضية باطلة ، الشعر والأدب يسهمان في الحفاظ على الشخصية . اللغة ليست وسيلة ، بالمعنى الاستهلاكي للوسيلة المادية .

° ° °

عندما بدأت أكتب ، كان يهمني أن أكتب ، ولم أكن، اعني ، مثل الكثيرين ، باللغة ، وقد كنت ابرر عدم العناية باللغة ، بالثورية ، ولم أضع هذا السؤال أمامي ، مادمت أثور على اللغة ، ولا أهتم بقواعدها ، فلماذا أتعامل معها ؟ ولماذا ، أيضاً ، أهتم بترتيب الجمل والفقرات ؟ .

كانت سذاجة ، ما في ذلك شك ، كانت نوايا طيبة ، ولكن الابعاد ، والخلفيات تكشفت تماماً ، وانكشف التخريب .. تدمير اللغة ، وسيادات اللهجات المحلية ، يعني تكريس الحدود ، وخلق الكيانات التي ترتبط مع دول السوق الأوروبية ، أكثر مما ترتبط مع الوطن الأم . لقد كتب سعيد عقل بالحرف اللاتيني ، ولكنه عاد الى العربية ، وهو يشتمنا بعربية فصحى ، نقية وجميلة الشكل ، وأن كانت ساذجة المضمون .

المهم ، بعد فترة اكتشفت ،أو اكتشفنا أن تدمير اللغة،شرط لتدمير الإنسان العربي . ربما عرفنا هذا من أعمال العدو الصهيوني التجهيلية . وأيضاً من أساليب الاستعمار الفرنسي في الجزائر . ولكننا عرفنا أن اللغة تحارب . وأن (بعض) شيوخ الدين كانوا يصعدون إلى الجبال ، أو يختفون بين الأشجار ، ويعلمون الصغار لغة الأجداد . اللغة تقاوم إذن .

لقد تعلمت من ناقد عربي أن الكتابة بلغة صحيحة هي التي تخدم القضية ، ولقد عمدت منذ ذلك الوقت ، وحتى الآن إلى تطوير أدواتي .

مرة قال أحد النقاد : بدأت تسيطر على لغتك. والحقيقة أن هذا الاطراء ضاعف من حماسي (للسيطرة) أكثر على لغتي . اللغة بحر ، إذا لم تجد السباحة، فإن دوامات البحر تقتلك .

علمت مرة ، أن أحد الكتاب ، إذا سمع كلمة جديدة ، فإنه يدونها في دفتر صغير ، ويتخذ قراراً باستخدامها في مقالة ، اوقصة جديدة.وياها من لغة تلك التي يكتب قصصه بها ، ياالها من مفردات ، متراصة ، متلاحقة ، متضادة ، متنافرة .

لقد جنحت لاستخدام العامية في الحوار ، وان كنت ضد العامية، وربما نتيجة الوضع الفلسطيني الخاص ، لالى الحوار حماساً ، ولكنني استخدمت الحوار بحذر ، ومازلت أؤمن أن الفصحى هي الأساس ، وأن استخدام العامية يمكن أن يحدث ، ولكن بحذر شديد ، وعلى أن يكون الأمر استثناء لاقاعدة .

لقد قال الشاعر حسن البحيري : إذا كنت صاحب قضية ، إذا كنت فلسطينياً فعلا ، إذا كنت عربياً ، وتريد لقضيتك أن تصل فتعلم أن تكتب بلغة عربية صحيحة وسليمة وجميلة .

أنني اتعلم ، وأنني مصر على التعلم ، لأنني ، فعلا ، أريد أن (أنقل) قضيتي إلى الناس، وأريد ، أيضاً ، أن تصمد (مادتي) أطول فترة ، في وجه الرطوبة ، والحرارة ، والمسافة الزمنية .

• صلاح دهني •

إذا كان الكثير من مشكلات التعبير لم يعد مطروحاً في نظر كتاب العربية الجدد ، فلأن تلك المشكلات وجدت لها حلولا. وباتوا هم يأخذون بالحلول ولا يهتمون بالظروف التي وجدت فيها ولا بما عانى اللذين أوجدوها . إنهم يشعرون بأن ما يلزم لهم ، وللأعمال الأدبية التي سيغذونها بتجربتهم الحياتية المبكرة ، لغة طيعة يصوغون بها أفكارهم ويقدمونها للجمهور .

ولكن كما أنه ليس هناك لغة بدون فكر ، كذلك ليس هناك من فكر بدون لغة . وفي سبيل أن يمتلك الكاتب اللغة عليه أن يرتبط بماض ما ، بتقاليد في التعبير ، وأن يذهب إلى الينابيع الأصلية والأصلية والثرة فينهل منها .

أن هذا الأمر يطرح نفسه على كل لسان وعلى كل كاتب أينما وجد . وهو يطرح نفسه بحدة أعظم في اللغات التي تشهد عصر انبعاث جديد بعد قطيعة طويلة مع ماض لامع وتراث قديم غني ، شأن حال العربية . وإذا كان عصر المراحل الحادة والصدامات العنيفة بين الآخذين بالأسلوب التقليدي في التعبير والآخذين بالأسلوب (أو الأساليب) المحدثة قد انقضى أو هو في سبيله للاندثار ، فإن طرح الأمر مرة أخرى الآن يعتبر من قبيل وضع النقطة النهائية في ختام صراع طال واحتدم ثم بات في أيامنا ذكرى ماضية . فإذا وجد في أيامنا من كاتب ما ينفك يأخذ بالأسلوب الموروث الذي يعتمد الجزالة وفخامة اللفظ والتكئات وما إلى ذلك فيما يكتب ويدبج قبل أي شيء اخر ، فيغلب أن يكون من ذلك الجيل المنغلق أو ذاك الذي بلغ شيخوخة العمر أو الفكر دون أن يمر بالحياة . وبات من المرعب المرء أن يتخيل بأنه كان عليه أن يحيا حياته كلها في رفقة ذلك الكاتب وأمثاله لو أنه عاش قبل خمسين أو ستين أو مئة عام حين كان هذا الأسلوب الموروث عن عهود الإنحطاط هو السائد في لغة بدون فكر تحمل بذاتها ولذاتها صفاتها الجمالية الاكتفائية .

وضمن هذا المقياس يسعنا القول إن اللغة عندنا تطورت تطوراً كبيراً إذا ما قارنا حالها في أوائل القرن مع ماآلت إليه في عصرنا الراهن من جهة التعبير والأسلوب.وبذا باتت مشكلة الأجيال تطرح نفسها اليوم بنحو جديد كلياً إذ لم تعد المشكلة محصورة ، في الحقيقة ، بين جيل يأبى الخروج على أنماط البيان القديمة ، وجيل يتطلع إلى تجاوز لغة القرن الرابع

ودخولها ميادين الحياة الفسيحة بلغة طيعة ، مبسطة . باتت المشكلة الآن – بعد إيجاد الحلول الأساسية لمشكلات التعبير – بين كاتب يسخر قلمه لخدمة رسالة اجتماعية ، وكاتب يصور الحياة من خلال مواقف ذاتية أو فردية ينقصها زخم الولاء للجماعة .

كيف جاءت هذه الحلول ؟ من أين جاءت ؟ تحت أية ضغوط حدثت ؟ كيف تم تجاوز اللفظية في التعبير ، إلى مزيد من الالتصاق بالحياة وبالواقع ولو على حساب جمالية لغوية موروثة ومعترف بها ؟

ما كان لهذا كله أن يحدث لولا أن الأمة ، تتقدمها طلائع مثقفيها وكتابها ، بدأت منذ منتصف القرن الماضي عملية الاختراق الكبرى لدخول العصور الحديثة والخروج من غياهب الظلمات ومتاهات الجهل .

وأن المرء ليشعر في أحيان بالموقف المفزع بل والرهيب الذي عاشه الكاتب العربي المتفتح للحياة ، الراغب في التجديد ، في فترة الانتقال الأساسية بين أواخر القرن الذي فات وأوائل القرن الذي نشهد نهاياته . ففيما بين كاتب متفتح ومجدد وآخر ميرائي بنحو أعمى معاصر له ومساو في السن ، مرت حوالي عشرة قرون . فما من صلة تربط بين هذا وذاك وحتى القارئ المستنير آنذاك كان ممزقاً بين لغة هذا ولغة ذاك ، واسلوبية هذا واسلوبية ذاك..ومع أن المنتمين الى الطرفين من كتاب كانوا أبناء لآباء فكروا بالطريقة ذاتها ، فقد كانوا لهم أخوة غرباء لا يفهمون الأمور قط بالطريقة التي يفهمها بها الآخرون . فإذا ما تكلم المجددون وكتبوا أخذوا ، من قبل زملائهم في الصف الآخر ومن قبل جمهرة القراء ، على أنهم أبناء عالم آخر غير عالمهم وأطراح فكر آخر لا ينتمي إلى فكرهم .

إن هذا الأمر في أيامنا قد بت به نهائياً ، وقال التاريخ فيه كلمته وانتهى . وإذا كان ثمة من مريدين ومن حفظة للاساليب الموروثة المتجمدة ، فهم قلة لم يعد لها من وزن في الحياة الأدبية والفكرية الحديثة . وارجو ألا تستشم من وراء هذا القول شماتة ، وألا يؤخذ على أنه تجمد في التعصب للحديث مقابل تجمد المتعصبين القديم . فلغتنا كنزنا الكبير ، وجامعة لواء أمتنا ، وهي تتسع لاجتهادات المحدثين كما وسعت عطاءات الأقدمين ، وستظل إلى أبد الآبدين تلين وتنصاع لهؤلاء واولئك من المجربين والمبدعين والقائلين في كل لون ، وتظل تستوعب وتعي وتخرج دوماً سليمة معافاة متجددة ، وتنبعث أغنى وأجمل وأذكى .

إن اللغة – أية لغة – كائن اجتماعي حي ، فهو بالتالي يحمل القدرة على التطور

والتكيف ولعل أعظم ما أثر في اللغة وعجل في تطويرها في زماننا هي وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة ، إذ أن جيلا واحداً شهد في مجال السينما والاذاعة والتلفزيون والصحافة ثورة لا سابقة لها في التاريخ العربي والعالمي إطلاقاً . كما يرجع بعض الفضل إلى التلاقح الحاصل بين أساليب لغتنا العربية وأساليب اللغات الأجنبية التي تعلمناها وأتقناها . وهو تلاقح تم مثله في العهد العباسي مع اللغات الفارسية والرومية والسريانية وسواها فجنت لغتنا منه أطيب الثمرات .

وقد يسع المرء أن يتوقف طويلا عند دور الإذاعة أو دور الصحافة اليومية أو سواهما في مجال التأثير في لغة العصر وتطوير أسلوبية الكتابة . ومن جهتي ، أعتقد بان التقطيع السريع في لغة الصحافة المصرية وما يماثلها في الصحافة اللبنانية الأكثر تأثراً بالأساليب اللغوية الأجنبية ، كان لهما تأثير مؤكد في كتاب العربية الجدد ، وكذلك شأن السينما بقطعاتها القصيرة وانتقالاتها السريعة وديناميكيتها . ويلقى تأثير السينما هذا اعترافاً دولياً ليس في اللغات وأساليبها وفي فنون الكتابة عامة فحسب ، بل كذلك في الإذاعة وفي طرائقية الإخراج المسرحي ، وبالطبع الإخراج التلفزيوني بنحو خاص ، وهي فنون ترتد بدورها بالتأثير في كتاب العصر ونهجهم الكتابي .

وما من ريب في أن مختلف أنواع وصنوف المؤثرات والتأثيرات تلك باتت تنسف الأسس الأولى التي ينهض عليها بناء الجملة العربية التقليدية الموروثة لتحل محلها أسساً جديدة أكثر تناسباً مع مقتضيات العصر وفنونه من صحافة دارجة وحوار مسرحي وسينمائي وإذاعي ، متخففة من أعباء الصنعة اللفظية والمحسنات الشكلية القديمة والمترادفات ، والإعادات ، متميزة بمزيد من الفعالية والإحكام والمقدرة على الاداء الدقيق بأكبر قدر من التقشف ، مع سهولة لدى الكتاب في التعامل مع اللغة ، لئن كانت أشد تكيفاً وأكثر قدرة على الحركة ، فإنها قد تبلغ في أحيان حد الإستخفاف الأرعن والتبذل المؤسي .

بذلك تعود اللغة إلى وظيفتها الأساسية: أن تكون وسيلة لنقل الأفكار وإغناء الحياة، لا أن تكون حلية بديعية بذاتها فارغة المحتوى ، هزيلة المادة ، لا يحتاج إليها المرء لا كيما يحيا ، ولا كيما يفكر ، ولا كيما يحلم . إن زمن الألعاب اللفظية والزخارف والبلهوانيات الشكلية مضى وانقضى ، وبتنا حتى في السخرية أو في الخيال نبتغي وجه التجربة الحية وما في تضاعيفها من طعم معاناة أو أخاذ ، ونرنو إلى العمق الإنساني ، وإلى كل ما يجعل الفنان يلج إلى المادة الذهنية والعاطفية التي تميز عصرنا ، وإلى الصراعات الأساسية التي تهز مجتمعاتنا من الأعماق وتعيد تشكيل الحياة .

• علي عقلة عرسان •

اللغة أهم أداة تعبير ملكها الإنسان . وهي تواكبه في مراحل تقدمه وتراجعه ، وتسهم في صنع حضارته وحفظها ، ويعبر بواسطتها عن أفكاره وأحاسيسه وأعماله وعلومه .وهي بالنسبة له قديمة حديثة . . لها جذورها الضاربة في عمق الزمن والتاريخ ، ومهابتها وثقلها الحضاري الذي يفرض نوعاً من السطوة .. ولذلك يجد نفسه مكبلا بها وهياباً منها أحياناً . ولغتنا العربية من اللغات الحية التي تتمتع بغنى في المفردات ، ودقة في التعابير والمدلولات ، وطواعية وقدرة على الاستيعاب والتلاؤم مع كل جديد . وقد يبلغ ثراؤها حدود الفرادة بين لغات العالم من بعض الجوانب .

وأنا من أولئك الذين يؤمنون بقيمتها وقدرتها على مواكبة التقدم واستيعاب مصطلحاته والتعبير عن أوجهه وأبعاده في كل العصور . ولكنها لاتشق طريق التقدم ، وتعيش المعاصرة بعيداً عن الناطقين بها ودون الحاجة إلى جهودهم التي تضعها في تلك الطريق وتسير بها فيها . . فلا تستعصي أو تتخلف أو تكبو . وأنا لا أتمسك بالعربية لكونها دعامة أساسية من دعامات وحدتنا وقوميتنا ، ولأنها حفظت لنا تماسكنا كشعب منذ آلاف السنين فحسب . . ولكن لأنها قادرة على البقاء ، وقادرة على الإفصاح إن وجد الفصحاء .. وأمينة على مايودع فيها من كنوز وتجارب وأحاسيس ، من علم وحكمة ومنطق .

وأنظر إلى لغتنا ككائن حي . . ينمو ويتطور ويستوعب الحياة وتجارب الناس . . يعطيهم ويأخذ منهم . . يغنيهم ويغتني بهم . . ولا تكون له أصالته وشخصيته وهويته المحددة الملامح ، مالم يكن متماسك البنية . . يصرف ماضيه ويوظفه لتحسين حاضره . . ويتطلع إلى الارتقاء ويعمل له . . مفتوح على الحياة . . يميل مع نسائمها . . ولكن ثباته يحول دون أن تقتلعه ريح من جذوره . ولذلك أنظر إلى الأسلوب الموروث في التعبير ، نظرتي إلى جزء من الكيان الحي للغتنا العربية . له دوره ووظائفه التي تقوم بها والتي لا بد من تواجد فاعليتها ، لاستمرار حياة اللغة وثباتها واستقرارها وترابطها . وهو أسلوب لاأشك في أنه مفيد ومكثف ودقيق في كثير من مراحل تاريخ التعبير في اللغة العربية . ويحتوي على

جمل واضحة موجزة محددة ، تنقل المعنى والإحساس والصور الجميلة في الأدب ، وتحفظ للعلم دقته وبيانه ، وللمنطق والفلسفة أبعاد كل منهما . . إن غوراً في أعماق النفس وأسرار الوجود ، وأن صعوداً في معارج التعبير عن « الماورائيات . » .

وأرى في جملة العرب المنطوقة ، تلك التي نعثر على نماذج منها في الأحاديث والخطب الأولى وفي الأغاني وسواه من كتب التراث ، أرى فيها إيجازاً معجزاً ودقة وكثافة ووضوحاً لا مثيل له في طرائق التعبير المختلفة . وتزدهي فوق أكوام التعابير والأساليب الإنشائية التي سادت في عصور الإنحطاط .

وأسعى جاهداً للاستفادة من هذه الجملة الأخاذة ولا ستيعاب حدودها وتمثلها لأفيد منها في الحوار على الخصوص . . وفي الوصول إلى متانة التعبير ووضوحه دون إسراف في استعمال الكلمات .

وأظن أن أسلوباً حفظ لنا خلجات الحياة في الحواضر والبوادي منذ آلاف السنين ، ونقل بدقة متناهية صورة عن حياة الإنسان وأساليب معيشته وتفكيره ومعاناته . . وسمى ووصف ، بأدق الأسماء والأوصاف .. كل شيء وكل حي وجماد على مر قرون ورافق كل نأمة حياة وحركة وعبر عنها . . وسجل فيه العرب والمسلمون آراءهم وعلومهم ومكتشفاتهم وفلسفتهم وتاريخهم ومذاهبهم المختلفة ، ووسع ذلك كله وفاض عنه . هو بمثابة منهل فريد لابد من وروده والتزود منه بالكثير . ولكن وروده لايعني التجمد والانحصار في دائرته ، ولا الانقطاع عن الحياة التي نعيشها والعصر الذي نحن فيه . إنه من ذلك النوع من التفاعل والتعامل بوعي وإدراك مع تراث غني هو بحد ذاته قيمة ومصدر وقيم . . ويساعد على تثبيت وبناء وتطوير وتجديد قيم أيضاً .

ولا أريد أن أفهم من « يمكن أو ينبغي تجاوزه » التي وردت في صيغة السؤال ، معنى القفز فوقه . . وإذا كان ذلك هو المقصود ، فإنني لست معه بالتأكيد . إنني مع العودة الواعية المدركة لمعنى وأهداف ما تقوم به ، ولقيمة ما نتعامل معه . ولما نريد أن تحققه من أهداف . دون أن تذهلنا العودة إلى الأسلوب الموروث ، عن عصر « الأتمتة » الذي نحن فيه ومتطلباته ، ولا عن واقعنا المعقد المتشابك وما يتطلبه من تعامل مع العلم والتقنية ومن تعبير عن أحاسيس وانفعالات وأفكار هي وليدة هذا التكامل . حتى نتمكن من مواكبة عصرنا في كل شيء ، ولنبعث في لغتنا طاقة التجدد والحياة التي هي بأمس الحاجة إليها . .

ولا تستمدها إلا منا نحن ، ومن تعاملنا الواعي معها – في كل مراحل تاريخها – من جهة ، ومع العصر المتقدم من جهة اخرى .

إنني مقتنع بضرورة تجديد شباب لغتنا . . وهذا أمر يتعلق بحياتنا وعصريتنا ومعيشتنا في قرننا هذا قبل أي شيء آخر . ومقتنع أيضاً بضرورة استيعاب اللغة العربية لكل تعبير ومصطلح جديد وبقدرتها على ذلك . ولكن لابد من توافر سرعة التجاوب مع العصر وإيجاد المصطلح ووضعه في التداول مع تداول الحاجة أو انتشار الفكرة . ولغتنا كما قلت قادرة على ذلك . إنها حية بقدر ما نكون نحن أحياء ، ومتطورة مرنة بقدر ما نكون نحن متطورين مرنين مطلعين . . وبقدر فهمنا ومعرفتنا لها ولما نريد منها أن تستوعبه . اللغة نحن . . فقرها فقرنا وغناها من غنانا . . والأسلوب نحن . . هو في الموروث موروثات وملامح هوية . . وفي الحاضر تواجد وتفاعل وقدرة على صنع الحضارة وتغيير الواقع .

وسبق أن أعطت العربية للأولين أسلوباً عبر عن عصرهم ، وكان عصر تقدم علمي وثقافي واجتماعي وسياسي لا مثيل له في العالم ، وعبرت عن ذواتهم التي كانت كالوتر المشدود بين الأزل والأبد،وكان لجهودهم الفضل الأكبر في إغنائها والاغتناء منها،دون أن يركبوها المركب الصعب أو يخرجوا بها عن أصولها ، أو يغربوها عن ثوبها وعصرها وأناس العصر . أفلا نستطيع نحن ، وقد وضعوا بين يدينا تجربتهم تلك ، أن نفيد منها ، وننجح فيما نجحوا هم فيه ؟ !

إن هذا يتوقف على أبناء العرب في هذا العصر ، الذين عليهم أن يستوعبوا عصرهم وعروبتهم . . وأن يسجلوا وجودهم في سجل الحضارة بأسلوب ملائم يحفظهم ويحفظ لغتهم وليس ذلك على القادرين بعزيز .

• سعد الله ونوس •

١ –

سأبدأ بنقد السؤال الذي هو موضوع هذا الاستفتاء . فالسؤال يفترض أن هناك « أسلوباً » واحداً في التعبير ، يتكثف فيه الماضي والتراث ، ثم يطلب أن نحدد موقفاً من هذا الأسلوب ، احتذاءاً أو تجاوزاً . ولكن هل هناك حقاً أسلوب واحد ؟ وكيف يمكن

أن نموضع هذا الاسلوب في سياق التاريخ العربي ؟ أهو أسلوب الشعر والخطابة في الجاهلية . أم في صدر الإسلام ، أم في العهد الأموي ، أم العباسي . أم في الأندلسي . أم في عصر الانحطاط ؟ ويمكن تعداد المزيد من الأساليب تبعاً لعصور التاريخ من جهة ، وتبعاً للشعراء والكتاب من ناحية ثانية ، أما من ناحية العصور التاريخية ، فنحن نعلم أن اللغة وكل تعبيرات الأدب تنعكس فيها ، وتعكس البنية الاجتماعية – السياسية القائمة . وبما أن هذه البنية خضعت لتطورات ، بل انقلابات عنيفة وشاملة عبر حركة مد وجزر تاريخنا ، فان اللغة ، وبالتالي الأسلوب ، كلاهما خضعا ، ومثلا بشكل أو آخر تلك التطورات والانقلابات . إن أسلوب العصر العباسي في فترة ازدهاره واستقراره يختلف كثيراً عن أسلوب ما نسميه بعصور الانحطاط . فكما فرض عهد المأمون التنويري ، واتساع الشرائح الموسرة بازدهار التجار ، وزيادة عدد الراغبين في التعلم إلى سيادة أسلوب سلس ، بدأ يتخلص كثيراً من التقعر ، ويغتني بأفكار ومعاني جديدة يصوغ ما يلائمها من الألفاظ والتراكيب اللغوية ، فان عهود التشرذم ، والتفكك ، وما سادها من ظلام ، وخمول عقلي ، أجبرت الأسلوب على أن « ينحط » هو الآخر ، ويتحول أكواماً من التراكيب الإنشائية الجوفاء . فأين نموضع « الموروث » في هذا التعدد ؟

ثم إن « الأسلوب هو الرجل » . وأهمية كل كاتب هو أن يحدد خصوصيته الاسلوبية في سياق الفكرة السابقة . أي في سياق عصره وموقفه من هذا العصر . ولذا لا يمكن الحديث عن أسلوب واحد عند ابن المقفع ، والجاحظ ، وابن رشد ، وبديع الزمان مثلا . والشيء نفسه ينطبق على الشعراء . فما من وحدة أسلوبية تجمع بين النابغة ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، وأبي العلاء مثلا . إلا أن يكون شكل القصيدة هو الاسلوب ، وهذا لا يصح ، لأن للأسلوب مفهوماً أشمل وأوسع من مجرد الشكل .

إذن ، أي أسلوب من أساليب أسلافنا هو «الموروث» ؟

٢ —

ولكن لنفرض أن بالإمكان – وهذا مجرد فرض وهمي – تحديد قاسم مشترك أعظم يجمع بين هذه والكثرة من الأساليب المتباينة في تراثنا . فهل يسعنا أن نعتبر نموذجاً ، أو مثلا جمالياً أعلى ، على كل تجربة أدبية أن تتوازن معه ، أو تبحث عنه ؟ . . يقيناً لا . . لأن هذا الأسلوب المجرد لا يمكن أن ينفعنا في شيء . فكما قلت سابقاً . ليست الأساليب التعبيرية أبنية مشيدة خارج حركة التاريخ ، وموقف الكاتب الإبداعي . وهي لا تكتسب

أي كثافة حقيقية إلا بترابطها مع عصر ، ومجتمع ، وقيم فكرية وجمالية واضحة . والتغيرات السريعة ، في أساليب الكتابة منذ بداية هذا القرن ، لم تكن تلبية لنزوة ، أو مجرد رغبة ذاتية في الإنفصال عن « الموروث » ؛ بل كانت ضرورة أملتها التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدها الوطن العربي في هذه الفترة . إن انهيار سيادة الإقطاع بتكوينه المغلق ، وظهور بورجوازيات محلية ، مرتبطة في نشأتها بالبورجوازيات الغربية ، أدى إلى تغيير أساسي في بنية التفكير . وألحت الحاجة إلى أساليب جديدة تستوعب الأفكار الجديدة ، وتتيح تواصلا أوسع وأسهل ، وتتلاءم إضافة إلى ذلك مع فنون أدبية جديدة كالمسرح والرواية والقصة . . . .

باختصار ، كان متعذراً تجنب هذا التطور ، أو التجاوز . وما كان بوسع الرواية أن تظهر إلا إذا تخطت أسلوب المقامات . وما كان بوسع المفكرين العرب ، أن يعبروا عن « أفكار » جديدة ، وأوضاع مختلفة إلا إذا تحرروا من قيود نثر القرن التاسع عشر . والتخطي هنا ليس انسلاخاً عن التراث ، وإنما هو ضرورة تاريخية .

لهذا فإن تصور أو فرض أسلوب ، نموذجي واحد « موروث » ، إضافة إلى استحالته ، ما هو إلا محاولة سطحية لتأكيد الاستمرارية التاريخية .

٣ —

هذه الملاحظة الأخيرة تطرح أمامنا مشكلة العلاقة بيننا وبين التراث . إن نهضتنا الحديثة اشتملت منذ البداية على مفارقة مربكة ، أو على تمزق يبدو أن التئامه عسير . فقد كان جوهر هذه النهضة هو استعادة الماضي ، وبناء المستقبل على صورته وبمعطياته . بمعنى آخر أردنا أن نهرب من ضغط التاريخ بالارتداد إلى الوراء والاستقرار في فردوس مفقود يعيد لنا الثقة بالنفس ، ويمنحنا دفعة واحدة القوة والازدهار والمركز الحضاري ، اللائق . ولكن هذه المحاولة ، كانت محكومة بالإخفاق . أولا لأنها لاتستطيع أن تبرر نفسها إلا إذا تجاهلت حركية التاريخية . بحيث تيبس الماضي في زمن تام ومثالي وقابل للاستعادة أو التكرار . وثانيا لأنها تعجز عن التوازن مع الحاضر أو مع المستقبل . وترد كل الخيبات والهزائم إلى خيانتنا ذاك « الزمن التام » ، أو كما يقول عبدالله العروي ، إلى عدم طواعية التاريخ .

في هذا المنظور تبدو إشكالية العلاقة بيننا وبين التراث . فبسبب تجاهلنا لحركية التاريخ ، خنقنا هذا التراث ، أو قددناه في صورة مثالية ، مكتملة ، ومتماثلة الأصالة . بمعنى آخر نزعنا من التراث تاريخيته ، ثم حصرنا أنفسنا في اختيار مستحيل . إما أن

تستعيده بتمامه ، واما أن تخونه بصورة مطلقة . وهذا الاستفتاء لا يفعل إلا أن يضعنا من جديد في هذا الحصار الزائف .

إن التراث أو « الموروث » هو بالذات تاريخي ، ولكن هذا التاريخ لايستعاد ، وإنما يمكن تمثله وإدراجه في صلب التجربة الحاضرة . وهذا التمثل هو موقف نقدي ، وتجاوز بآن واحد .

من هنا أعتقد أن « نمذجة » الأسلوب ، تعبر عن رؤية ساكنة للتراث ، كما أنها تفرض على التجربة الأدبية جموداً وغربة عن صراعات وتطورات مجتمعها . وينبغي ألا ننسى أن الأسلوب ليس البيان والبديع فقط ، بل هو قبل ذلك نمط من أنماط التفكير . والمفهوم الديالكتيكي للفكر ، يستوعب بصورة حتمية ، فكرة التجاوز المستمر على صعيد الأساليب أيضاً .

• وليد اخلاصي •

يطل علينا شكسبير بعد حوالي أربعة قرون ببلاغة ما زالت تبهر أجيالا من القراء والمتفرجين . ويخطر لي السؤال التالي :

« ما الذي كان يحدث لبلاغة شكسبير يوم أبدعها لو ان أعماله المسرحية العظيمة قدمت على خشبة مسرح حديث توفرت له الإضاءة الكاملة والوسائل التكنيكية الحديثة ولم تكن الشموع هي الوسيلة الوحيدة لابراز الشخوص » .

ويمكن صياغة السؤال على النحو التالي :

« هل للبلاغة علاقة بتطور البيئة المحيطة بالأدب ، وبخاصة الوسائل التكنيكية » .

شرط المغني قبل عصر الكهرباء ان يكون قوي الصوت ، والآن ما عاد هذا الشرط قائماً ، فقد لعب الميكروفون دوراً أساسياً في التوصيل . ويبدو ان اللغة الأدبية أو الأسلوب له علاقة بالعصر ، لذا بات من الواجب ان نعترف بارتباط الأسلوب بالعصر .

ليس هناك أسلوب موروث ، هناك لغة موروثة ، فالأسلوب هو الكاتب ، و الكاتب

يصنع لغة تخصه من خلال لغة سابقة ، ولكن تلك اللغة السابقة هي تاريخ لغة الكاتب ، والكاتب بلاتاريخ أمر افتراضي مستحيل ، ومن الافتراض الطبيعي ان يكون الكاتب دوماً حاضر اللغة ومستقبلها أيضاً .

في البداية ، كانت الكتابة عندي اتكاء كاملا على اللغة الجاهزة التي تتعدد مصادرها : الجمل المنقولة من الكتب الأدبية ، والذاكرة المعجبة بالبلاغة القرآنية .

كان التقليد هو الأسلوب الموروث الذي تجلى في البدايات الأولى ، ثم لعب التمرد الاجتماعي والسياسي دوره في التمرد اللغوي ، فكاد الرفض يكون شاملا للغة الجاهزة . ثم جاءت مرحلة الاستقرار النفسي ، فبدأت اللغة تأخذ شكل الأفكار الأساسية التي اعتمدت عليها أعمالي الادبية ، واذا اجزت لنفسي التصنيف فاني اتصور نفسي وقد مررت في علاقتي باللغة بالمراحل التالية :

أولا — مرحلة الوعي الفطري ، والتي كان التقليد هو ابرز ما فيها ، اذ ان أي تركيب لغوي في تلك المرحلة كانت له أصوله في ذاكرتي أو قراءاتي . ان اول احساس بالمرأة آنذاك كان يرتبط بالقمر ، فلا ضير اذن من استخدام التشابيه الموروثة «وجه كالقمر» أو «مستدير كالبدر» أو «اشرقت على حياتي كايشرق القمر في الليل» وغير ذلك من الأوصاف التقليدية التي لم يلعب فيها الخلق دوراً فعالا .

لقد كانت العلاقة فطرية ، فاللغة العربية لاتملك قوتها الذاتية فحسب بل وطا سحرها الآسر الآمر الموجه ، ولكن محاولة فهمها والاحاطة بسحرها ستكون أول خطوة نحو الخروج من قوالبها لصنع قوالب جديدة . وهذا التوالد المنطقي من رحم اللغة كان لابد غالباً في تلك المرحلة .

ثانياً — مرحلة الوعي المفكر ، حيث بدأ التفكير في البحث عن لغة معادلة للافكار والمواضيع ، ويبرز التصميم المسبق في العمل الأدبي أساساً في تلك المرحلة ، مما أسبغ عليه طابع العقلانية الباحثة والتي كثيراً ما تقف ضد الإبداع وتحد من الانطلاق الروحي للغة . هذه المرحلة القصيرة أشبه ما تكون بمرحلة التدريب المقننة التي يمر فيها أي صائغ أو فنان يبحث ويتعلم ، فيغلب على الانتاج الأدبي طابع التصميم الهندسي ، إذاك أصيبت اللغة بجفاف لم يصلح من شأنه سوى الدخول في المرحلة الثالثة .

ثالثاً – مرحلة ما زالت مستمرة ، لأنها تتم بالتجريب اللي لاقواعد له ، ويمكن ان نطلق عليها مرحلة الاشراق ، حيث تلعب الخبرة الذاتية الدور الرئيسي في صياغة العمل الأدبي ، لغة وموضوعاً أي أسلوباً . في هذه المرحلة يختار الموضوع كلماته ، وذلك التمازج الكامل بين الفكر واللغة هو الذي مهد لخروج الأسلوب من أرض الفطرة ومن ثم التقنين ليكون كائناً يحمل شخصيته. في هذه المرحلة يمكن القول بانهما اشراقياً قد ابتدأ لكيمياء اللغة . وقد أدى التاريخ اللغوي مع التدريب العلمي في تفاعلهما إلى بداية المرحلة الاشراقية التي لايمكن ان تنتهي إلى شكل ما فهي ضمن الروح التجريبية للأدب . المرأة ، الوطن ، الجمال ، العدل ، الفقر ... وغيرها بات لها لغة خاصة بها ، فالمرأة أحياناً تصبح أرضاً والوطن يصير إلى مجرة ، ولاتعود اللغة الموروثة باصطلاحاتها بقادرة على استيعاب الأفكار .

بالنسبة لي : نهج البلاغة للإمام علي نموذج مدهش في الكتابة ، وقصص تشيكوف القصيرة ومسرحياته نموذج رائع في الأفكار ، ولكن الشيء الذي ظل هاجساً لي هو البحث عن شيء خصوصي وصميمي ، فاللغة كالعاطفة الصادقة لامرأة تحبها فلا يشاركك فيها أحد . قد يعلمك تاريخ العشق سلوكاً ولكنه لايعطيك أسلوباً كاملاً في تعاملك مع من تحب ، لأن الذي تحب يلعب أيضاً دوره الجدلي في تكوين اسلوبك .

اللغة كائن حي يعيش مع خالقه ، وعندما تصبح أسلوباً لايعود هناك فرق بين الكلمات المكتوبة والفكرة التي يراد التعبير عنها . وأية محاولة لاستعارة أسلوب سابق تعني العودة باللغة إلى انفصام الشكل عن المعنى . وكل جهد لتطوير الأسلوب الذاتي يؤدي إلى تلاحم أكبر بين الشكل والمعنى . الأسلوب الموروث نموذج ولكن الاحتذاء به يؤدي إلى تحويل الأسلوب إلى انشاء . اللغة هي الشكل المرئي للفن الذي يتجسد في الأسلوب ، واية محاولة لاستعارة أسلوب آخر تؤدي حتماً إلى تكرار الفن ومن ثم القضاء عليه ، ويصبح الكاتب آنذاك كناسخ اللوحات ، ومهما بلغت دقة التناسخ فإنه لن يصبح فناناً خالقاً بأي حال من الأحوال .

التجاوز لايعني الانسلاخ عن التراث ولايقف ضده ، إنه يغنيه ، ويجعل منه تراكماً مستمراً للجهد الانساني في الحفظ والتطوير ، لذا يمكن اعتبار التجاوز بمثابة هرمون حيوي للابقاء على التراث نفسه والفن أيضاً .

• رياض عصمت •

لنبدأ بموضوع المسرح . إن علاقته المباشرة بالناس تفترض لغة تساعد على الإيصال : لغة بسيطة حية . كما تفترض ضرورات الأداء التمثيلي جملا مركزة ، خالية من الاسهاب في الوصف ، خصوصاً وأن روحاً من الزمن قد مر على عهد شكسبير ، أيام كانت اللغة هي الوسيلة شبه الوحيدة لتصوير الزمان والمكان ، فقد أصبح الديكور والإضاءة والمؤثرات الصوتية تلعب دوراً كبيراً في تكثيف اللغة المسرحية . كل هذا ، إلى جانب الصراع القديم بين العامية والفصحى ، يشير إلى أن لغة المسرح نمط من أنماط التعبير يمكن بل يجب تجاوزه باستمرار ، طالما أن المضامين الجديدة تفرض أشكالا جديدة ، أو أن الأشكال تتطور لتعمق المضامين القديمة . هذا بالإضافة إلى نقطة فريدة هي أننا لا نملك في المسرح تراثاً أدبياً مكتوباً ، بل نقتصر على نصوص شفوية قديمة ، وبالتالي فإن مسألة الأسلوب الموروث غير واردة أصلا .

بالنسبة لي شخصياً ، لم أجد أية ضرورة واقعية أو مسرحية للكتابة بالعامية . على العكس فإن الفصحى اذا تحلت بصفات معينة أقدر على حمل رسالة المعنى بايجاز ووضوح وجمال . كما انها أقدر على الانتشار في أرجاء الوطن العربي ، والتعبير بلسان قومي يفهمه جميع العرب من المحيط إلى الخليج . (« لعبة الحب والثورة » مثلا عرضت في مهرجان الحمامات بتونس دون أي تعديل في نصها ، ولا قت فهماً من الجمهور هناك) . لكن الفصحى المسرحية يجب ألا تكون لغة مقعرة قديمة . ولا أقصد الكلمات الصعبة التي قل استعمالها فحسب ، وإنما أشير على وجه التحديد إلى بناء الجملة اللغوية بطريقة تشبه الكلام المحكي ، كما أشير إلى استخدام الاسم الموصول والأحرف المشبهة بالفعل .

إن البيئة تلعب دوراً كبيراً في التأثير على اللغة . وليس جديراً أن نذكر كم اسماً يوجد للأسد أو للسيف في الشعر الجاهلي القديم . لذلك فإن اللغة مطواعة لحياة الناس وتجاربهم ، ولا شيء في الأدب والنقد يمكن أن يفرض عكس ذلك . بل انني أزيد فأقول : إن كثيراً من الفنون الأدبية (الشعر ، القصة ، المسرح) لم تفقد جماهيرها إلا بسبب اللغة ، وبالتالي أصبحت فنوناً بورجوازية ، تتوجه إلى قطاع محدد ، وليس إلى عامة الناس ، كما كانت في الماضي . لقد أصبحت فنوناً غير شعبية ، وذلك بسبب حاجز رئيسي هو اللغة .

ليس هناك أصلا أسلوب موروث في التعبير في الآداب العالمية . هناك تجدد دائم وعطاء مستمر . أما إذا كان المقصود هو انماط التعبير الأدبي ، حيث نمت مؤخراً دعوة لإذابة الحواجز بين الأنماط المختلفة ودمجها في فن واحد ، فأنا ضد هذه الدعوة ، لأننا مازلنا بعد نحبو في مرحلة الطفولة وتكوين أدب عربي حديث له صفتي الأصالة والمعاصرة ، وبالتالي فإن أي تطلع من هذا النوع هو تطلع متعال ، طوباوي ، ومخرب . إن المطالبة الحقيقية يجب أن تتركز حول ضرورة استفادة الفنون من بعضها لخلق فن شعبي راق ، سواء في المسرح أم القصة أم الشعر أم الرسم أم الموسيقا . وبقدر ما يستفيد الأدب بوجه خاص من الفنون البصرية والسمعية ، يغتني ويزداد شاعرية وكثافة وقدرة على التعبير .

كيف يفكر الكاتب العربي المعاصر باللغة؟

[دراسة تقويمية لاستفتاء المعرفة]

خلدون الشمعة

– ١ –

« الأسلبة » أو سيطرة الصيغة الأسلوبية المسبقة على لغة الثقافة العربية المعاصرة ، هي المحور الأساسي الذي يستقطب الاستفتاء الذي وجهته « المعرفة » إلى مجموعة من الكتاب العرب في الفنون الثلاثة : القصيدة والقصة والمسرحية . وقد استهدفت « المعرفة » من بين مااستهدفته من هذا الاستفتاء ؛ استكشاف الطريقة التي يفكر فيها الكاتب العربي المعاصر باللغة ، أو بالأحرى سبر الطريقة التي يتعامل بها مع اللغة. وبهذا المعنى فإن موضوع الاستفتاء يتحرك مساره بين حد التلقين الذي تتسم به علاقة الكاتب العربي المعاصر باللغة باعتبارها مسبقة الصنع ، وبين حد المغامرة الفنية الذي ترسمه تجربته الابداعية. وهذان الحدان اللذان يتحرك الكاتب العربي بينهما إنما تؤكدان على أن جوهر الاستفتاء يتمركز

حول تجربة « الحرية » مع اللغة . وقد يكون من المفيد ان نورد الصورة التالية التي توضح أحد جوانب هذه التجربة :

يرى بعض علماء التربية ان من الممكن جداً تعليم طفل فقد حاستي السمع والنطق ، العزف على البيانو . ولنتصور مثل هذا الطفل الأصم والأبكم وقد جلس إزاء جهاز (بيانو) وأمامه نوطة للعزف . إذا أخطأ الطفل في العزف فسرعان ماسيلحظ على ملامح معلمه تقطيبة شديدة وبالتالي فإنه سيعاود محاولة العزف مرة أخرى . ولكن هذه التجربة لاتومىء بالتأكيد إلى معرفته لما يفعله أو حتى إلى السبب الذي يجعل أي عازف يكرس الساعات من وقته لممارسة تمرين خارق على غرار هذا التمرين على العزف . لقد أتقن الطفل تقليد الموسيقى في نهاية الأمر . ولكنه سيظل يشعر بالرهبة تجاه « البيانو » . ومهما تعاظم الخطأ الذي يرتكبه في العزف فإنه يبقى غير مدرك له على الإطلاق . إنه يقوم بدور الببغاء المقلدة فحسب .

إن العازف في هذه الصورة هو الكاتب العربي. وجهاز « البيانو » هو جهاز اللغة . والمعلم الذي يقطب تقطيبته الشديدة هو ملقن الأسلوب الذي يشغل منبر الخطابة . وأما النوطة الموسيقية فإنها تمثل الصيغة الأسلوبية المسبقة الصنع .

— ٢ —

وهكذا يمكن القول ان جوهر التجربة الابداعية لدى الكاتب العربي في تعامله مع اللغة ينطلق من منطلقات تلقينية تتغلب فيها الثوابت على المتحركات . وبعبارة أخرى فإن سيطرة الصيغة الأسلوبية المسبقة الصنع أو ماأسميته بـ « الأسلبة » ، سواء أكانت هذه الصيغة تراثية أو

معاصرة إنما تمثل فعلاً من أفعال سلب الكاتب العربي حريته وبالتالي تعزيز شعوره بالاستلاب . وقد صيغ استفتاء المعرفة على نحو يبدو معه وكأن ثمة أسلوباً موروثاً واحداً في التعبير ليس لأن واضع السؤال لايدرك ان ثمة أساليب متعددة موروثة في أدبنا العربي ، كل منها يرتبط بمرحلة معينة وبكاتب معين ، وإنما لأنه يدرك ان ثمة أسلوباً موروثاً في التعبير تفرضه كل فترة ثقافية مثلاً أعلى لها باعتباره حصيلة لتمازج ثلاثة عوامل :

١ . الأسلوب بصفته خصيصة دالة على مؤلف .

٢ . الأسلوب بصفته خصيصة دالة على فترة تاريخية معينة .

٣ . الأسلوب بصفته خصيصة دالة على جنس أدبي معين كالقصيدة أو القصة أو المسرحية .

وكلما ازداد الإلحاح على العنصر التلقيني في الثقافة واعتبر التقليد أساساً للابداع ، ضعفت دلالة الأسلوب في بعده الأول والثاني والثالث ، فأصبح أولاً : أسلوباً غير شخصي كما هو الأمر عليه في لغة التحليل السياسي السائدة أي انه لم يعد يدل على مؤلف بعينه ، وأصبح ثانياً : أسلوباً غير زمني أي غير دال على مرحلة تاريخية معينة وبالتالي فإنه بعيد عن التأثر بالمحيط السائد كما هو الشأن في اللغة التي تنسج على منوال فترة ماضية نسجاً حرفياً ، فتقردها ، باعتبار ان التقليد الحرفي يستحيل تقريداً يكون فيه المشبه أضعف من المشبه به بكثير ، وأصبح ثالثاً : أسلوباً غير عصري أي غير دال على درجة متقدمة من التطور الذي طرأ على الجنس الأدبي الذي يتحرك الشاعر أو القاص أو المسرحي ضمن حدوده .

والأزمة التي تتجلى في أسلبة اللغة العربية ، أو سيطرة الصيغة الأسلوبية المسبقة ، إنما تكمن في مانلاحظه في ثقافتنا العربية المعاصرة من ضيق في رقعة الحرية التي يسمح للكاتب العربي بالحركة فيها ، وهي الحرية التي تتصل بالأسلوب بصفته خصيصة دالة على مؤلف ، بصفته فتحاً لباب موصد ، تحطيماً لشرط حديدي ، مغامرة في مجهول ، قفزة نشوانة في الظلام .

ومن جهة أخرى فإن ظاهرة الأسلبة هذه إنما تكرس الطابع التلقيني لثقافتنا العربية المعاصرة سواء كانت تجربة الملقن حامل النموذج اللغوي المسبق الصنع دائرة في فلك أسلوب قديم ، أو كانت دائرة في فلك أسلوب جديد . فالعلاقة الوثيقة بين الأسلوب وبين التفكير وثيقة إلى الحد الذي لايمكن معه تمييز هذا من ذاك . حيثما يوجد استلاب للحرية تسود أسلبة للغة مخططة وفق نموذج مرسوم . وحيثما يوجد تقنين في الفكر تسود مصادرة على الأسلوب تكرس لزوم مالايلزم . وحتى في الحالات التي يكون فيها الأسلوب أداة للتعبير عن أسلوب وفكر لغة أخرى كما هو الشأن في تجربة الترجمة ، نلاحظ سيطرة الأسلبة أو طغيان الصيغة الأسلوبية المسبقة. خذ على سبيل المثال نصاً للروائية الانكليزية « فرجينيا وولف » . إن الجمل القصيرة المتلاحقة لديها كضربات البيانو السريعة قد تنقلب عندما تترجم إلى العربية بفعل سيطرة أسلبة نموذجية معينة إلى جمل طويلة موصولة بحروف العطف وبالتالي فإن الفكر المتشظي والمؤلف من حجيرات صغيرة معزولة تعبر عن حالة عقلية معينة سرعان مايستحيل إلى فكر متسق ظاهرياً ولايعبر عن درجة التوتر النفسي التي يصدر عنها الكاتب . وبعبارة أخرى يكون الفكر

المعبر عنه قد أصبح فكراً آخر . قد يحتج محتج بأن الابداعية العربية المعاصرة قد تجاوزت في تطورها الحدود التي يوحي بها هذا المثال . هذا صحيح . ثمة دلالات تشير إلى مثل هذا التجاوز . ولكن ماذا عن تلك السلطة التلقينية العمياء التي تسيطر بمفاهيمها الوسطى على مختلف الأنشطة العربية ؟

إن هذه السلطة التلقينية إنما تصدر عن قيم مناهضة للحرية . ولهذا فهي تكرس الامتثال مقابل الابتكار . ويصبح الإذعان الفكري رديفاً للإذعان الأسلوبي . وكما ان الأسلوب فكر فإن الفكر أسلوب . يقول « كانط » :

« خذ الإنسان الذي لديه ذاكرة جيدة وليس لديه قدرة على الحكم . إن هذا الانسان ليس أكثر من قاموس يمشي على قدمين . » (*):

هذا القاموس الذي يمشي على قدمين ، يكاد يشكل الصورة الأشد وضوحاً من أية صورة أخرى في حياتنا الثقافية المعاصرة . ذلك ان جزءاً غير يسير من عمليات التلقين الفكري لدينا يجري على غرار عملية حفظ جدول الضرب . ومادام الفكر يلقن فإن أسلوبه لابد أن يلقن في الوقت نفسه أيضاً .

— ٣ —

ولكن ماهو موقف الكاتب العربي من عملية التلقين هذه . ؟ . ماهو موقفه من مسألة اعتبار الأسلوب الموروث في

(*) انظر كتابه : Education , Translated by Annette Churton, Ann Arbor Paperbacks

التعبير نموذجاً يحتذى به . ؟ . . أم أنه يعتبره نمطاً من أنماط التعبير يمكن أو ينبغي تجاوزه . ؟ . .

الدكتور عبدالسلام العجيلي والشاعر أحمد دحبور مشتركان في رؤية تؤلف بين مايبدو أنه يشكل خيارين متنافرين :

يقول العجيلي : « تطرحون هذا السؤال في صيغة توحي بأن الإجابة عن أحد شقيه بالإيجاب تستدعي نفي الشق الآخر . وأنا أرى أنه يمكن للمرء أن يقول بإيجابية الشقين دون أن يقع في التناقض . فالأسلوب الموروث في التعبير نموذج يحتذى وهو في نفس الوقت نمط يمكن تجاوزه وينبغي تجاوزه » .

ويقول دحبور : « أرجو ألا أبدو متلاعباً بالألفاظ إذا كان جوابي الأولي عن الأسلوب الموروث في التعبير هو أن هذا الأسلوب نموذج يحتذى به ولهذا بالضبط أرى أن من الضرورة تجاوزه . »

ويستغرب (سعدالله ونوس) السؤال أصلاً . فهو يرى ان ثمة أساليب مادام الأسلوب مرتبطاً بالعصر . ويقول : « في هذا المنظور تبدو إشكالية العلاقة بيننا وبين التراث . فبسبب تجاهلنا لحركة التاريخ خنقنا هذا التراث أو قددناه في صورة مثاليةمكتملةومتماثلة الأصالة.بمعنى آخر نزعنا عن التراث تاريخيته ثم حصرنا أنفسنا في اختيار مستحيل.إما أن نستعيده بتمامه وإما أن نخونه بصورة مطلقة.وهذا الاستفتاء لايفعل إلا أن يضعنا من جديد في هذا الحصار الزائف . »

مرة أخرى تبرز الصبوة إلى التأليف بين مابدا أنه يشكل خيارين

متنافرين للوهلة الأولى . ولكن السؤال الذي طرحته « المعرفة » ينطلق أساساً من منطلق التشخيص وليس التبرير أو التسويغ . فالحياة الثقافية العربية تنطوي على ممثلين لكل من هذين الخيارين المتنافرين . بل إن البرامج التعليمية تفترض دائماً وجود فكرة نمطية موحدة عن الأسلوب ، تتسم بالقداسة التي تحول دون أي لون من ألوان المراجعة . وهذا النموذج يتبدل في قليل أو في كثير بين ملقن وبين آخر . إلا أن نزعة تفسير الكلمة العربية على أساس معنى المصدر الذي اشتقت منه دون أن يؤخذ بعين الاعتبار تاريخ الكلمة ، ربما انعكست بدورها على مفهوم خيالي للأسلوب فاعتبر في معظمه خاضعاً للثوابت .

خذ كلمة ثقافة على سبيل المثال . معظم المثقفين العرب يلجأون في تعريفهم للثقافة إلى المعجم اللغوي وذلك جرياً على عادتنا في العودة إلى الجذر اللغوي للكلمة بهدف تفسيرها . وهكذا يهمل المعنى التاريخي الذي اكتسبته كلمة ثقافة ؛ يهمل المعنى الشامل الذي تقدمه الأنثروبولوجيا ، وينتصر للمعنى اللغوي المحدود بالاشتقاق . ومقابل هذا المثال الذي يكشف عن تكريس ثوابت في معاني بعض الكلمات ، تبرز أمثلة تكرس ثوابت في الأسلوب قد تفرض على الكاتب الذي يلجأ إليها قول أفكار لم يكن يريد قولها . مثال ذلك التعبير الشائع الذي يصر على وصف الفقير بأنه « لايملك شروى نقير » . هل يعقل أن يوجد في عالمنا فقير (لايملك شروى نقير) ؟ .

قد نكتشف ان الأمثلة على حالات من هذا الطراز نادرة وانها بالتالي غير ذات موضوع . غير اني أردت من التعرض إليها أن

أشير إلى أنها بمثابة عكازات للغة يتوكأ عليها الكاتب عندما لا يكون لديه ما يقوله. وقد خلق موروث اللغة المحدث عكازاته هو أيضاً . وبالتالي فقد تشكل لدينا نوع من الأسلبة أو سيطرة الصيغة الأسلوبية المسبقة والمستمدة من كليشيهات معاصرة أصبح شئنا أم لم نشأ ، النموذج التعبيري الذي يحتذى به. ولنأخذ لغة السياسة مثالاً . ألا تبدو الكتابة السياسية التي تتجنب الكليشيهات الجاهزة والمقددة ، على ندرتها ، ناشزة عن إيقاع الفكر العام وبالتالي مستحوذة على قدر عظيم من الصعوبة سببه ان القارىء يصطدم بها فلا يجد فيها فكراً يعرفه سلفاً ويريحه من عناء التفكير في فكر لايعرفه . ؟

إن إخفاق محاولة عصر النهضة العربية في تجربته مع اللغة إنما يعود أصلاً إلى رغبته في التكرار كما يرى سعد الله ونوس . ولهذا فإن وليد إخلاصي لايرى ان ثمة أسلوباً موروثاً وإنما يلاحظ وجود لغة موروثة : « الأسلوب هو الكاتب » والكاتب يصنع لغة تخصه من خلال لغة سابقة . ولكن تلك اللغة السابقة هي تاريخ لغة الكاتب ، والكاتب بلا تاريخ أمر افتراضي مستحيل . ومن الافتراض الطبيعي أن يكون الكاتب دوماً حاضر اللغة ومستقبلها أيضاً . »

ولكن إلى أي مدى يمكن المضي في اعتبار الكاتب العربي مقياساً ، أو بالأحرى مغامرة الكاتب العربي مع الموهبة حتى لو كانت هذه المغامرة مشروطة بشرطها التاريخي ؟ . . . .

أليست للغة العربية فرادتها الخاصة . ؟ . . . وإلى أي حد يمكن للأسلوب أن يتخلص — إذا هو أراد ذلك — من بعض عادات اللغة

التي تشكل بدورها جزءاً من اللغة الموروثة التي تحدث عنها وليد إخلاصي . ؟ يشير على عقلة عرسان صراحة إلى أن تجربة اللغة العربية تجعلها ذات فرادة . وبالتالي فإنه « لايتمسك بالعربية لأنها أداة قومية فحسب وإنما لأنها قادرة فعلاً . » .

ومقابل ذلك ينظر هاني الراهب إلى إتقان اللغة العربية وإجادتها : « نظرة سياسية بالدرجة الأولى ثم أدبية بالدرجة الثانية . » وفي تصوره ان عبارة الأسلوب هو الشخصية (ترددت في جميع الإجابات تقريبا ولكن في صيغ مختلفة : الأسلوب هو الرجل . الأسلوب هو الإنسان . الأسلوب هو الكاتب . . إذا لم تخني الذا كرة) :

« صحيحة وضرورية بمعنى جماهيري وليس فقط بمعنى فردي . » ولكن هذا المد في حرية المغامرة اللغوية باعتبارها فردية حيناً وفردية وجماعية حيناً آخر ، يضع سليمان العيسى إزاءه الاحتراز التالي : « أخشى أن يكون الكثير من أدبائنا الشبان قد حملوا مبضع الجراح قبل أن يفتحوا أي كتاب من كتب التشريح » . وهذا الاحتراز منطقي . بيد أن السؤال أصلاً موجه إلى الذين يريدون التجاوز أو الإحجام عن التجاوز عن معرفة وليس عن جهل أو تجاهل . ومع ذلك فلا بأس من التأكيد على تجاوز الموروث ولكن بعد هضمه وتمثله ليأخذ منه الجسد مايحتاج إليه من غذاء على حد تعبير سليمان العيسى . ويقول بندر عبدالحميد كلاماً مشابهاً حين يجزم بأننا لانستطيع أن نتجاوز الموروث بالاهمال وإنما نتجاوزه بالفهم والاستيعاب . فنحن : « نعجب بأسلوب الجاحظ والتوحيدي والهمذاني نثراً ونعجب بالمتنبي

شعراً . ولو استطاع أحدنا أن يكتب بلغتهم بالمستوى نفسه لما كان له هذه الأهمية . »

هنا تبرز المفارقة في النقد . ثمة نموذج سابق تتم الأسلبة قياساً عليه كما ان التقويم النقدي يتم قياساً عليه أيضاً في معظم الأحيان . وهذا هو الفهم السكوني للغة . وقد عبر أحمد يوسف داود عن اعتراضه على السؤال لأنه ربما ينطوي على مثل هذا الفهم . « فطبيعة اللغة الحية تفرض تجاوز الأنماط التعبيرية شئنا أم لم نشأ . » . ولكن هذا الجزم يغفل عامل العنصر الإرادي في تطور اللغة سواء لدى المؤسسات التعليمية التي تلقن الصيغ التي تريد تلقينها ، أو لدى الكاتب الذي يتعامل مع اللغة تعاملاً حراً إلا من القيود التي يختارها لنفسه في مثال معين أو تختارها له لغته في مثال ثان أو يختارها الرأي العام القارىء في مثال ثالث .

وهذا العنصر الإرادي يعبر عنه سعدالله ونوس بقوله : ان التراث أو الموروث (لايستعاد وإنما يمكن تمثله وإدراجه في صلب التجربة الحاضرة ، هذا التمثل هو موقف نقدي وتجاوز بآن واحد .) .

ولكن هل هذا العنصر إرادي أم انه إرادي وغير إرادي في الوقت نفسه . ؟ . . ربما تسرعت في تأويل هذا الرأي . فالبيئة لها تأثيرها الحاسم.وهي قد تشكل في أحد معانيهاالعنصر غيرالإرادي في التطور. يقول رياض عصمت:(ان البيئة تلعبدوراً كبيراً في التأثير علىاللغة.) ويضيف : (وليس جديداً أن نذكر كم اسماً يوجد للأسد أو للسيف في الشعر الجاهلي القديم) . غير أننا ينبغي هنا أن نشير إلى ان المترادفات لاوجود لها في العربية وان وجود عدد كبير من الأسماء للأسد أو للسيف إنمايدلعلى القدرة الهائلة التي كانت الفطرة العربية تتمتعبها في

تمييزها للفروقات الدقيقة بين اسم واسم آخر . ماهو دور البيئة في وضوح هذه الفروقات الدقيقة لدى العرب القدامى وماهو دور البيئة في طمس هذه الفروقات لدى العرب المحدثين . ؟ . .

لماذا كانت البيئة تتصرف على نحو علمي ثم كفت عن التصرف على هذا النحو العلمي في عصرنا الحاضر ، عصر العلم والتقنية . ؟ . .

— ٤ —

ماهو دور القارىء واسهامه في عنصر البيئة هذا . ؟ . . رياض عصمت يقول ان : (كثيراً من الفنون الأدبية : الشعر والقصة والمسرح لم تفقد جماهيريتها إلا بسبب اللغة . وبالتالي أصبحت فنوناً بورجوازية تتوجه إلى قطاع محدد وليس إلى عامة الناس كما كانت في الماضي . لقد أصبحت فنوناً شعبية وذلك بسبب حاجز رئيسي هو اللغة .) . غير أن من المتعذر اعتبار مفهوم الطبقة الاجتماعية مطابقاً لمفهوم مفترض عن طبقة القراء. وأحد الأدلة على ذلك يكمن في الحقيقة القائلة إن ثقافتنا العربية المعاصرة تشير إلى وجود مثقفين غير متعلمين وتشير إلى وجود متعلمين غير مثقفين. كما أن عادات القراءة ليست مرتبطة بالطبقة الاجتماعية في بلادنا . بل على العكس أكاد أجزم أن الطبقة البورجوازية العربية هي الطبقة التي لاتطالع باعتبار ان المطالعة غير مجزية حسب منطقها المادي النفعي الضيق الصدر ، منطق الحانوت الصغير والتجارة المربحة بأيسر السبل .

مهما كان دور القارىء محدوداً في ثقافتنا العربية المعاصرة التي تعاني من الأمية الثقافية المرتفعة الرأس قدر ماتعاني من الأمية التعليمية المطأطئة الرأس فإن التعبير عن الفكر يظل (عملية خلق لاعملية اقتداء.) كما يؤكد هاني الراهب . وبالتالي فهو يذكر مبادىء ثلاثة :

١ — اسلوب التعبير يتبدل ويتطور .

٢ — هذا التطور في أسلوب التعبير كان استجابة فرضها تطور أعم وأعمق آخذ بالمجتمع العربي والدولي في كل عصر .

٣ — الأسلوب الجديد يفرض نفسه دائماً على الأسلوب القديم .

ويكاد جميع المستفتين أن يشتركوا في القول بأنه هذا مايحدث في حياتنا الثقافية فعلاً إذا لم يكن هذا هو ماينبغي حدوثه . بل إن صلاح دهني يقرر إنه « إذا كان الكثير من مشكلات التعبير لم يعد مطروحاً في نظر كتاب العربية الجدد فلأن تلك المشكلات وجدت حلولاً » . ولكن هل مشكلات التعبير مسائل تقنية فحسب ، أم أنها ترتبط ارتباطاً أساسياً وثيقاً بمسألة الحرية في المجتمع العربي المعاصر ؟ . إن الشرط الفني لايمكن أن ينفصم عن الشرط الاجتماعي في تجربة اللغة.ولهذا فإذا كان ينبغي التأكيد على دور اللغة في الحفاظ على الشخصية العربية كما يقول رشاد أبو شاور فإن اللغة أيضاً على حد تعبير شوقي بغدادي : « ليست إلا من صنع البشر . وما دام البشر الذين صنعوها يتطورون فإن لغتهم يجب أن تتطور معهم وإلا انفصلت عن الحياة وصارت عقبة في طريق التقدم . » وهي كما يقول علي عقلة عرسان : « أهم أداة تعبير ملكها الإنسان وهي تواكبه في مراحل تقدمه وتراجعه . »

— ٥ —

ولكن مارصيد ذلك كله في تجربتنا العربية . ؟ إذا كان الأسلوب هو الفكر فإن الأزمة في جوهرها هي أزمة الحرية على الأصعدة الاجتماعية والسياسية ، والفنية . فعندما يكتب الكاتب العربي المتوسط الجودة وأحياناً المتمكن ، عبارة : « كان يمارس الحب » بدلاً من عشرات الكلمات التي تفيد المعنى نفسه فإنه إنما يعبر بذلك عن سيطرة القيد الاجتماعي . وعندما يستهل هذا الكاتب كل معالجة لأحد مناشط الفكر بقوله : « الأزمة » حيث لايكون ثمة أزمة وإنما هو مضطر الى الحديث عن وجود أزمة لتبرير تناول أي موضوع مهما كان هاماً في عالم تسيطر عليه الآنية ، فإنه إنما يعبر بذلك عن سيطرة القيد الاجتماعي أيضاً . وعندما يكتب هذا الكاتب مقالاً سياسياً يتوكأ على مائتي كلمة مهترئة أو مقددة فإنه يعبر بذلك عن سيطرة القيد السياسي السلطوي إلى حد أن الكاتب ممنوع من قول مايريده، ولذلك فهو يكتب مالا يقول شيئاً . تلك هي الأسلبة أو سيطرة الصيغة الأسلوبية المسبقة على لغة الثقافة العربية المعاصرة . وعندما تسود الأسلبة على لغة التعليم والصحافة والنقد الأدبي باسم السلطة الأيديولوجية ، وعلى لغة الأدب باسم السلطة التراثية والسلطة الأيديولوجية متضافرتين فإن الأسلبة تنعكس حينئذ على الكاتب العربي المعاصر استلاباً مُقلقلاً قد تمتد عدواه إلى القارىء فيكف عن فهم كل مالم يقم الملقن التراثي أو السياسي بتلقينه . الأسلبة هنا تصبح المعادل الموضوعي للاستلاب .

★ ★ ★